فرح الانضباط

الطبعة الثالثة

سبيلُ النموِّ الروحي

ريتشارد فوستر

ريتشارد فوستر

فرح الانضباط

ophir

فرح الانضباط

ما يزال فرح الانضباط (Celebration Of Discipline)، منذ طبعته الأُولى (باللغة الإنكليزيَّة) في ١٩٧٨م، مصدرَ عونٍ لملايين الطالبين على اكتشاف حياةٍ روحيَّة أغنى، مِلؤها الفَرَح والسَّلام وفهمٌ أوفى لله.

يَقسِم فوستر الانضباطات ثلاثَ مجموعات من الأنشطة الروحيَّة: فيبدأُ بالانضباطاتِ الداخليَّةَ مثل التأمُّل والصَّلاة والصَّوم، ثمَّ يتناولُ الانضباطاتِ الخارجيَّة باستعراض انضباطات البساطة والعزلة والخضوع والخدمة، ثمَّ ينتهي بالانضباطاتِ الجماعيَّة متوِّجًا إيَّاها بانضباط الاحتفال.

يُقدِّم فوستر عددًا كبيرًا من الأمثلة التي تُبيِّن كيف يمكن أن تصيرَ الانضباطاتُ جزءًا من أنشطتنا اليوميَّة، وكيف يمكن أن تُساعِدَنا على نَبْذ عاداتنا السطحيَّة وجلبِ وفرةِ الله الغنيَّة إلى حياتنا، مُبيِّنًا كيف تُسهِمُ كلُّ مجموعةٍ من الانضباطات في بلوغ حياةٍ روحيَّة مُتَّزِنة.

ISBN 978-90-5950-170-6

www.ophir.com.jo
fb.com/ophirpub
@ophirpub

ophir

فرح الانضباط

لقيَ هذا الكتاب ترحيبًا من كثيرين بوصفه أفضلَ كتابٍ حديثٍ كُتِب على الإطلاق في موضوع الروحانيّة المسيحيّة، ووصفته مجلّة "المسيحيّة اليوم" بأنّه واحدٌ من أفضل عشرة كُتبٍ في القرن العشرين. إنّه كتابٌ يسبر أغوار "الانضباطات" الكلاسيكيّة في الإيمان المسيحيّ، أي المُمارسات الروحيّة الأساسيّة فيه. فطُولَ الطريق، يُبيّن ريتشارد فُوستَر أنّنا فقط بهذه الممارسات وعبرَها نستطيع أن نجد السبيلَ الحقيقيّ إلى النموّ الروحيّ.

يمدُّنا الكاتب بتبصّراتٍ جديدة حاسمة، مُبيّنًا كيف أنّ مفهوم البساطة بحسب الكتاب المقدّس، إذا ما أُدرِكَ وطُبِّق على النحو الصحيح، يُضفي فرحًا واتّزانًا على حياتنا الداخليّة والخارجيّة، ويُحرّرنا كي نتمتّع بإمدادات الله بصفتها هِبَةً يمكن أن نُشرِكَ الآخرين فيها.

ريتشارد فوستر
Richard Foster

وُلد عام ١٩٤٢م في ولاية نيوميكسيكو الأميركيّة، ويحمل شهادة البكالوريوس في الدين والفلسفة، وشهادة الدكتوراه في العهد الجديد والأخلاقيّات الاجتماعيّة.

هو مؤلّفُ لبضعة كُتبٍ أحرزَتْ مَبيعًا مميّزًا، بينها "الصلاة" و"أنهارُ الماء الحيّ". وهو مؤسّس رينوفارِ (Renovaré)– تلك الحركة العاملة ضِمنَ الكنائس والعاكفة على إحياء الكنيسة في جميع معالمها المتعدّدة الوجوه– وهو كبيرُ مُحرّري "الكتابُ المقدّس الخاصّ بالتشكيل الروحيّ" الصادر بِعنايةِ من رينوفارِ.

فرج
الانضباط

فرح الانضباط

سبيلُ النموِّ الروحي

ريتشارد فوستر

ترجمة

سعيد فارس باز

أوفير
ophir

Copyright © 2009 by **Richard J. Foster, L.L.C.**
Originally published in the U.S.A. by HarperSanFrancisco, San Francisco, California under the title **"Celebration of Discipline"**, copyright © by Richard J. Foster, L.L.C.,1998.

فرح الانضباط

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٩
الطبعة العربية الثانية ٢٠١٤
الطبعة العربية الثالثة ٢٠١٥
حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2009 by **Ophir Printers & Publishers.**

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.
Second print 2014
Third print 2015

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١/٤٤٨٢
ISBN 978-90-5940-170-6

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

شكر وعرفان ٧

تقديم بقلم د. إلتُن تروبلُد ١١

مُقدِّمة ١٣

١. الانضباطاتُ الروحيَّة: بابٌ إلى الحُرِّيَّة ٢٥

القسم الأوَّل: الانضباطات الداخليَّة

٢. انضباطُ التأمُّل ٤١

٣. انضباطُ الصلاة ٦٣

٤. انضباطُ الصَّوم ٧٩

٥. انضباطُ الدِّراسة ٩٧

القسم الثاني: الانضباطات الخارجيَّة

٦. انضباطُ البساطة ١١٧

٧. انضباطُ العُزلة ١٣٧

٨. انضباطُ الخضوع ١٥٣

٩. انضباطُ الخدمة ١٧١

القسم الثالث: الانضباطات الجماعيَّة

١٠. انضباطُ الاعتراف ١٩١

١١. انضباطُ العبادة ٢٠٩

١٢. انضباطُ الإرشاد ٢٢٩

١٣. انضباطُ الاحتفال ٢٤٧

خاتمة ٢٦١

الملاحظات ٢٦٣

شكر وعرفان

١٩٧٨م

من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتشارُك. فأنا مَدينٌ كثيرًا لأولئك الذين أحاطت حياتُهم بي وجَوهروا أفكار هذا الكتاب. وبفضل صداقة دَلَس ولارد وتعليمه أدركتُ أوَّلًا معنى الانضباطات الرُّوحيَّة وضرورتها. فإنَّ حياته تُجسِّد المبادئ التي يتضمَّنها هذا الكتاب.

كذلك أدينُ بالكثير لِبَس بُلجِن، إذ قرأتْ بانتباهٍ وبروح الصلاة كلَّ سطرٍ من هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا. وقد عزَّز حسُّها الإيقاعيُّ مقروئيَّة هذا الكتاب أيَّ تعزيز. أمَّا كِن ودوريس بُويس فقد ساعداني أكثر ممَّا سيعرفان يومًا بتشجيعهما وحماستهما الثابتَين. وأضافت مقدارًا كبيرًا مساعدةُ كُوني ڤارْس، في الطِّباعة واللُّغة والاستبشار. كما أنَّ ماري مايتُن عملت بغير انقطاع في طباعة المُسَوَّدة الأُولى والنصِّ النهائيِّ على السواء. وقد علَّمني ستان ثُورنبرغ عن انضباط الخدمة بكلامه وسيرته. وقدَّمت رايكِل هِنشَو مهاراتِها كقارئة خبيرة للتجارب الطِّباعيَّة. وتشكُّراتي الخاصَّة لكنيسة الفْرَندز في نيوبِرغ على رفع الأعباء عنِّي كي أتفرَّغ للكتابة في الأسابيع الأخيرة من تأليف هذا الكتاب، ولا سيَّما لِرُون وُدوَرد الذي زادت أعباؤه الرَّاعويَّة إذ نقصت أعبائي.

وأشكُر زوجتي كارولين، وولدَينا جُول وناثان، على صبرهم الفائق طوالَ فترة كتابة هذا الكتاب.

١٩٨٨م

ها قد مضى عقدٌ من الزَّمَن على نشر فرح الانضباط أوَّلَ مرَّة. وما زلتُ أستصدقُ القولَ إنَّ من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتَّشارك؛ إنَّما الفارق الوحيد الآن هو أنَّ الجماعة التي أنا مَدينٌ لها باتَت أكبرَ بكثير. فعلى مرِّ السنين كتب إليَّ أشخاصٌ عديدون ليُشجِّعوا ويتحدَّوا ويُصوِّبوا ويحثُّوني على التفكير. أضِف أنَّ كثيرين حدَّثوني شخصيًّا بشأن اختباراتِ جهادهم وتعلُّمهم ونُموِّهم. فهؤلاءِ جميعًا وغيرُهم علَّموني عنِ الحياة الروحيَّة وأسهموا في هذه الطَّبعة المُنقَّحة.

وأودُّ أن أخُصَّ بالشُّكر زوجتي كارولين التي علَّمتني على مرِّ السنين عنِ السَّير مع الله أكثرَ ممَّا تستطيعُ الكلمات أن تُعبِّر عنه. حتَّى إنَّ إهداء هذا الكتاب إليها بات الآن أكثرَ وثاقةً ممَّا كان قبل عشر سنين. وأُريد أن أشكر أيضًا مُساعِدَتي الإداريَّة ليندا غريبيل التي عملت بلا كَلَلٍ ولا مَلَل في حذافيرِ هذه الطبعة.

وإذ أُراجِع **فرح الانضباط** يَصعقُني جدًّا ضَعفُ الكلمات. فعلى أفضل حال، هي شهاداتٌ لحقِّ الله مُتكسِّرةٌ ومُتجزِّئة. حقًّا إنَّنا ننظر عبرَ زجاج قاتم! ومع ذلك تصعقني أكثرَ كثيرًا بَعدُ حقيقةُ كون الله قادرًا على أن يأخذ أشياءَ غيرَ وافيةٍ ولا كاملة، وجامدةً وباردة، إلى أبعدِ حدّ، نظيرَ الكلمات المطبوعة على ورق، ويستخدمها لتغيير حياة الناس. أمَّا كيف يحصل هذا، فأمرٌ لا أدريه. إنَّها مُعجزةُ نعمة، وهي تُشير إلى هذه الحقيقة: إذا كان على هذه الصفحات ما يبثُّ الحياة فيك، فإنَّه ليس منِّي. إنَّما المجدُ لله وحدَه!

١٩٩٨م

منذ عشرين عامًا كتبتُ: "من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتشارُك". ومنذ عشرة أعوام أكَّدت من جديدٍ ذلك الإقرار، مُضيفًا: "إنَّما الفارق الوحيد الآن هو

أنَّ الجماعة التي أنا مَدينٌ لها باتت أكبر بكثير". فهكذا هي الحال اليوم، ضعفَين وثلاثة أضعاف.

غير أنّي أودُّ أن أُضيف فارقًا آخر الآن لم يكن قائمًا آنذاك: أنَّ أفرادًا مُتفرِّقين من جماعتنا المتزايدة دائمًا قد عبروا مُنذئذٍ واديَ الظِّلّ. وهمُ الآن يَحيَون في الضِّفَّة الأُخرى فائضين- ولا شكَّ عندي- فرحًا تامًّا ورضًى كاملًا.

كانت بَس بُلجِن هيَ الأُولى بين أُولئك الذين عبروا ذلك الوادي. وبينما كنتُ أكتب **فرح الانضباط** أوَّلَ مرَّة، كنتُ ألتقي بَس بُلجِن أُسبوعيًّا، فتُقوِّم عملي تقويمًا نقديًّا. وقد كانت بَس شاعرة، فأضفتْ لمسةً شعريَّةً على كلِّ ما كتبتُه. ولكنْ حدث أكثر من مجرَّد النَّقد والتنقيح، إذ توطَّدت بيننا أواصُر صداقةٍ غنيَّةٍ وباقية.

ثُمَّ انتقلتُ إلى موقع جديد، وأنا لا أدري هل نلتقي ثانيةً، أنا وبَس، في هذه الضِّفة من الوادي. ثُمَّ التقينا، وأحسَّ كلانا أنَّ ذلك آخرُ لقاءٍ يجمعنا، وعبَّرنا عن إحساسنا هذا. فتحدَّثنا واستعَدْنا الذِّكريات، وأطلعَتْني على قصيدةٍ جديدةٍ نظمَتها. ثُمَّ قرأتُ لها بصوتٍ مُرتعشٍ الفقرةَ الختاميَّة من آخِر كتاب في سلسلة عالم نارنيا: "ولكنَّ الأشياء التي بدأت تحدث بعد ذلك كانت فائقة العظمة والجمال بحيثُ لا يمكنني أن أصفها. وبالنسبة إلينا، هذه نهاية القصص كلِّها. إنَّما يمكننا أن نقول حقًّا بمنتهى الصِّدق إنَّهم كلَّهم عاشوا في سعادةٍ غامرة ونعيمٍ مُقيمٍ إلى الأبد. ولكنْ بالنِّسبة إليهم لم تكُن تلك إلَّا بداية القصَّة الحقيقيَّة. إذ إنَّ كلَّ حياتهم في هذا العالم وجميعَ مغامراتهم في نارنيا لم تكُن إلَّا الغلاف وصفحة العنوان. فها هم الآن يبدأون أخيرًا الفصل الأوَّل من القصَّة العظيمة التي لم يقرأها قطُّ أحدٌ على الأرض. وهي قصَّة تستمرُّ إلى الأبد، وكلُّ فصلٍ فيها أجملُ من سابِقِه".

ولمَّا فرغتُ من القراءة، جلسنا كِلانا صامتَين ثُمَّ غادرتُ وسافرتُ عائدًا إلى

بيتيَ الجديد. وبعد مدَّةٍ قصيرة غادرَت هي أيضًا، مسافِرةً إلى بيتها الجديد ما وراءَ وادي الظِّلّ.

إنَّ خَسارةً كهذه واقعٌ يجب أن نواجهَه كلُّنا في وقتٍ من الأوقات، وربَّما مرارًا وتكرارًا. فاقرأ إذًا هذه الكلمات المُشجِّعة مِن نظم تشارلز وسلي:

إنْ فرَّق الموتُ بين صديقي وبيني،
فأنتَ، يا ربُّ، لا تلومُني على حُزني،
ولا تعبس إذ ترى دموعي؛
كابحًا جماحَ عواطفي المضطربة
بل تطلب منِّي أن أنتحبَ بأسًى مُتصبِّر
على الذين يرقدون فيك.

أُحِسُّ رجاءً خالدًا قويًّا،
يرفعُ روحي النائحة
فوق حِملها الثقيل كالجَبَل؛
مُفتدًى من الموتِ والحُزن والألَم
فعمَّا قريبٍ ألتقي صديقي من جديد
على ذراعَيِ الله الحنون.

ستنقضي لحظاتٌ زائلةٌ قليلةٌ بَعد،
ثُمَّ يردُّ الموتُ البَرَكةَ التي خطفها؛
فإليَّ تُرسِلُ، يا ربُّ، الدَّعوة،
وتعيدُ إليَّ صديقيَ الذي رحل،
في ذلك اليوم الأبديِّ السعيد.

تقديم

ثمَّة كُتبٌ كثيرةٌ تُعنى بحياة الإنسان الداخليَّة. ولكنْ ليس من كُتب كثيرة تمزج الأصالة الحقيقيَّة بالنزاهة الفكريَّة. غير أنَّ هذا المزيج بالذات هو ما وُفِّق ريتشارد فوستر إلى إنتاجه. فلمَّا كان المؤلِّف راسخًا في النِّتاج التأمُّليِّ الكلاسيكيّ، أعطانا دراسةً دقيقةً يمكن أن تُقدَّر لذاتها مدَّةً طويلة. ومع أنَّ الكتاب الحاليَّ ينمُّ عن مديونيَّةٍ للكلاسيكيَّات، فهو ليس كتابًا فيها، بل بالأحرى يُمثِّل عملًا أصيلًا حقيقيَّ الأصالة.

وما يلفتنا في الحال هو طبيعة الشموليَّة التي يتميَّز بها هذا المؤلَّف. فلدينا اليوم كتبٌ مُعاصِرة كثيرة تتطرَّق إلى نواحٍ مخصوصة من الحياة الداخليَّة، ولكنَّ هذا يختلف عنها بكَونه يتناول تشكيلةً مدهشة من المواضيع المهمَّة، وكثيرٌ من طرافة معالجتها ينجم عن جُرأة الكتاب. فقد تولَّى الكاتبُ النظر في طيفٍ عريض من الاختبارات، من الاعتراف إلى البساطة إلى الفَرَح. وبما أنَّ النِّتاج المُنجَز هو حصيلةُ مُطالعةٍ واسعة وتفكيرٍ دقيق، فليس هذا من نوع الكتب التي يمكن تصفُّحها بسرعةٍ أو استخفاف.

إنَّ مصادر التبصُّر شتَّى، وفي طليعتها الأسفارُ المقدَّسة وكُتب التأمُّل الكلاسيكيَّة المعتبَرة، ولكنْ ليست هذه هي الينابيع الوحيدة التي يستقي منها المؤلِّف. فالقارئ النَّبيه سيُلاحظ سريعًا مديونيَّةً للمفكِّرين العالميِّين أيضًا. ونظرًا لكون المؤلِّف ينتمي إلى الصَّاحبيِّين (الفْرَندز أو الكْوَيكرز)، فليس منَ المُفاجئ أن تبرز إسهاماتُ الكُتَّاب الصاحبيِّين الكلاسيكيِّين، وهي تشتمل على آثار

جورج فُوكس وجون وُلمان وحنَّة وتأوُل سميث وثوماس كَلِي، وكثيرين غيرهم. وليس الغرض هنا طائفيًّا، بل هو مسكونيٌّ أصيل، بما أنَّ التبصُّرات المهمَّة لا ينبغي أبدًا أن تقتصر على الجماعة التي تنشأ فيها. وعليه، فإنَّ ما يُقدَّم إلينا هنا هو مثالٌ في عموميَّة المُشاركة.

هذا، وتنفرد معالجةُ البساطة بقيمة مُميَّزة، جزئيًّا لأنَّها ليست بسيطة. فبالحقيقة أنَّ "المبادئ الضابطة" العشرة المُتعلِّقة بالبساطة- والتي تُشرَح في الفصل السادس- هي بحدِّ ذاتها مُسَوِّغٌ كاف لظهور كتاب جديد عن الحياة الروحيَّة. ذلك أنَّ المبادئ العشرة المعروضة، رُغمَ تجذُّرها في الحكمة القديمة، تُقدَّم مُعاصِرةً على نحوٍ مدهش.

يعي الكاتب جيِّدًا جدًّا أنَّ التشديد على البساطة قد يغدو فخًّا بحدِّ ذاته. لهذا السبب لم يقبل أن يحسم في أيِّ أمر بديهيٍّ مثل اعتماد الأزياء البسيطة، وإن كان قد قال بإحكام: "دعك من الأزياء، إنَّما اشترِ فقط ما تحتاج إليه". فَهَهُنا اقتراح ثوريٌّ، إن اعتُمِد على نطاقٍ واسع يُحرِّر تحريرًا هائلًا مَن كانوا ضحايا المُعلنين، ولا سيَّما أُولئك الذين يعلنون عبر شاشة التلفاز. ولا بدَّ أن تليَ ثورةٌ حضاريَّةٌ حقيقيَّة إذا أطاعت أعدادٌ كبيرةٌ من الناس الأمرَ الصريح: "كُفَّ عن التكديس!"

إنَّ أكبر المشكلات في زماننا ليست تكنولوجيَّة. فهذه نتولَّى أمرها بطريقةٍ لا بأس بها. وليست هي أيضًا سياسيَّة أو اقتصاديَّة؛ لأنَّ المصاعب في هذين المجالَين- وإن كانت مُربِكة- تبقى ثانويَّة. إنَّما المشكلات الكُبرى هي خُلقيَّة وروحيَّة، وما لم نُحرِز بعض التقدُّم في هذَين الميدانَين، فإنَّنا قد لا نبقى مجرَّدَ بقاء. فعلى هذا النَّحو انحطَّت الحضاراتُ وهَوَت في الماضي. ولهذا السبب أُرحِّب بنِتاجٍ ناضجٍ حقًّا يتناوَلُ تعهُّدَ حياةِ الرُّوح.

د. إلتُن تروبلُد (D. Elton trueblood)

مُقدِّمة

من العجيب في نظري كيف يستخدم الله خَربَشاتٍ على ورق لإنجاز عمله في قلوب الناس وعقولهم. فكيف تُنقَل هذه الخربشات إلى حروفٍ وكلماتٍ وجُمَل، وأخيرًا إلى معنًى؟ حقًّا إنَّ لنا أن نغبط أنفسنا على معرفتنا قليلًا عن وظيفة الناقلات العصبيَّة في الدِّماغ، أو عن كيفية تأثير بروتينات الإندورفين في التعلُّم والتذكُّر، ولكنَّنا إذا كُنَّا صادقين فإنَّنا نعرف أنَّ التفكير بحدِّ ذاته لُغز. فالحمد والتسبيح هما ردَّة الفعل الوحيدةُ المُوافِقة.

عند كتابتي هذه الكلمات، كان قد مضى عقدانِ من الزَّمَن على نشر مجموعة هذه الخَربَشات، **فرح الانضباط**، أوَّلَ مرَّة. وبعد العقد الأوَّل، أراد الناشرون، وقد حيَّرتهم أقدميَّةُ الكتاب وشعبيَّتُه دون شكّ، أن يحتفلوا بهذا المَعلَم، فطلبوا إليَّ أن أُراجع النصَّ الأصليّ، الأمرُ الذي سرَّني أن أفعله. والآن، بعد عقدٍ آخر، يستمرُّ الواقعُ المُحيِّر. فبطريقةٍ ما (ومَن ذا يستطيع أصلًا أن يُفسِّر كيف ذلك؟) ما زال الناس يجدون على صفحات هذا الكتاب عونًا لهم في مسيرتهم اليوميَّة مع الله. واحتفالًا بهذه الذكرى السنويَّة العشرين، طلب إليَّ الناشرون أن أكتب مقدِّمة، ومن جديدٍ سرَّني أن أستجيب. ولعلَّ من المناسب، تلبيةً لطلبهم، أن أحكيَ لك كيف برز إلى الوجود هذا الكتاب الذي في يدك.

الإفلاس الروحيّ

عند تخرُّجي حديثًا في معهد اللاهوت، كنتُ مستعدًّا لإخضاع العالم. وكان أوَّلَ مركز عُيِّنت فيه كنيسةٌ صغيرة في منطقةٍ مزدهرة من كاليفورنيا الجنوبيَّة. فقلتُ لنفسي مُتأمِّلًا: "هُنا فُرصتي لأُبيِّن لقيادة الطائفة، لا بل للعالم كلِّه، ما يسَعُني أن أفعله". وصدَّقني أنَّ رؤى جاوزت كثيرًا جدًّا أعداد حلوى السَّكاكر كانت تتراقص في رأسي. ولكنَّني صحوتُ قليلًا لمَّا عمد الرَّاعي السابق، لدى عِلمِه بتعييني، إلى وضع ذراعه على كتفي قائلًا: "إذًا، يا فوستر، حان دورُك للمُكوث في الصحراء!" غير أنَّ تلك "الصَّحوة" لم تَدُم إلَّا هُنيهَةً. إذ دار في خاطري هذا الفِكر وصدَّقتُه: "ستصير هذه الكنيسة نورًا متوهِّجًا موضوعًا على جَبَل، وسيُقبِل الناسُ كالسَّيلِ فعلًا".

وبعد ثلاثة أشهُر تقريبًا، كنتُ قد أعطيتُ تلكَ الجماعة الضئيلة كلَّ ما أعرفه، ثُمَّ زدتُ قليلًا، ولكنَّ ذلك لم يُجدِهم نفعًا. ولم يبقَ لديَّ ما أُعطيه. فقد أفلستُ روحيًّا، وقد علمتُ ذلك. وكفاني ذلك المقدارُ من "النور المتوهِّج الموضوع على جبل"!

لقد تخطَّت مشكلتي أن يكون عندي ما أقولُه من يوم أحدٍ إلى آخر. إذ كانت مشكلتي أنَّ ما كنتُ أقوله فعلًا لم يكن قادرًا قطُّ على مُساعدة الناس. لقد افتقرتُ إلى الجوهر، إلى العُمق. فإنَّ الناس كانوا جياعًا إلى كلمةٍ من عند الله، ولم يكُن لديَّ أيُّ شيءٍ أُعطيهم إيَّاه. لا شيءَ بتاتًا.

ثلاثة مؤثِّرات مُتقارِبة

إنَّما بحكمة الله، كانت ثلاثةُ مؤثِّرات تتقارَب آنذاك في تلك الكنيسة الصغيرة، قُدِّر لها أن تُغيِّر اتِّجاه خدمتي، بل بالحقيقة وجهةَ حياتي كلِّها. وتيسَّر لهذه المؤثِّرات

معًا أن تمدَّني بالعُمق والجوهر اللذَين كنتُ شخصيًّا في حاجةٍ إليهما، وبالعُمق والجوهر اللَّذَين أدَّيا بي، في الوقت المؤاتي، إلى خطِّ كلمات فرح الانضباط. ولكنَّ في هذا استِباقًا لقصَّتي.

أمَّا أوَّل أمرٍ جرى فقد عجَّل حدوثَهُ تدفُّق سيلٍ من المحتاجين حقًّا إلى جماعتنا الصغيرة. وهؤلاء إنَّما تدفَّقوا فعلًا كالسَّواقي بعد عاصفةٍ رعديَّة. ولَكَم كانوا جائعين إلى الجوهر الروحيِّ، وكم كانوا أيضًا مستعدِّين لفعل أيِّ شيءٍ تقريبًا في سبيل الحصول عليه! وقد كان هؤلاء هم مَنبوذي حضارة يومنا المُنطلِقة في المسار السريع-"مَن يجلس الآخرون فوقهم، ويبصقون عليهم، ويسبقونهم ويُجاوِزونهم"- فكان احتياجهُم باديًا للعِيان. وقد بدا أيضًا للعِيان عجزي عن توفير الرِّعاية الجوهريَّة لهم.

هذا الافتقار إلى أيَّة كثافةٍ روحيَّةٍ حقيقيَّة أدَّى بي، على نحوٍ شبه غريزيّ، إلى أساتذة التأمُّل والتعبُّد في الإيمان المسيحيّ: أُغسطينوس أسقف هيبون، وفرنسيس الأسِّيزيّ، وجوليان الزاهد، وعديدين غيرهم. فبطريقةٍ ما، لمستُ أنَّ هؤلاء الكُتَّاب الأقدمين عاشوا وتنفَّسوا الجوهرَ الروحيَّ الذي كان يلتمسه هؤلاءِ الأصدقاءُ الجُدد في اجتماعنا الصغير التماسًا ماسًّا.

يقينًا أنِّي اطَّلعتُ على مكتوباتٍ كثيرين من هؤلاء الكُتَّاب في الإطار الأكاديميّ. ولكنَّ ذلك كان اطِّلاعًا من النَّوع العقليِّ المعزول. أمَّا الآن فقد قرأتُ بعينَين مختلفتَين، إذ كنتُ أتعامل يوميًّا مع احتياجاتٍ بشريَّة تفطر القلبَ وتسحق النفس وتُبدِّد العزم. فهؤلاء "القدِّيسون"، كما ندعوهم أحيانًا، عرفوا الله بطريقةٍ لم أعرفه أنا بها طبعًا. وقد اختبروا الربَّ يسوع بصفته الحقيقة الحاسمة في حياتهم. وقد حازوا رؤيا لله مُتأجِّجةً أعمَتهم عن كلِّ ولاءٍ مُنافِس. لقد اختبروا الحياة المَبنيَّة على **الصَّخر**.

لم يكن يُهمُّ تقريبًا لِمَن قرأتُ في تلك الأيَّام: "ممارسة حضور الله" للأخ لورنس، أو "القصر الداخليّ" لتريزا الآفيليَّة، أو "يوميَّات جون وُلمان"، أو "معرفة القدُّوس" لِتُوزر. فجميع هؤلاء عرفوا الله بطُرقٍ نائيةٍ جدًّا عن أيِّ شيءٍ اختبرتُه يومًا... أو حتَّى أردتُ أن أختبره! ولكنْ فيما استمررتُ في تشرُّب قِصَص أُولئك الرجال والنِّساء الذين تأجَّجت فيهم نار المحبَّة الإلهيَّة، بدأتُ أتوق إلى نوع الحياة هذا لنفسي. ثُمَّ أدَّى التَّوق إلى الطلب، والطلبُ إلى الوِجدان. وما وجدتُه أراحني، وعمَّقني، وكثَّفني.

أمَّا التأثير الثاني فقد جاءني من فردٍ في تلك الجماعة الضئيلة، هو الدكتور دَلَس وِلارد. وإذ كان دَلَس أُستاذ فلسفةٍ بارعًا، فقد كان متضلِّعًا من الكلاسيكيَّات، وفي الوقت نفسه ذا إدراكٍ ثاقبٍ للمشهد المُعاصِر. وهو علَّم جماعتنا الصغيرةَ والقليلةَ الخبرةِ دراساتٍ في رسالة رومية وسِفر الأعمال والموعظة على الجبل والانضباطات الروحيَّة، وأكثر من ذلك. إنَّما بصرف النظر عنِ الموضوع المُحدَّد، كان وِلارد دائمًا يجتذبُنا إلى داخل الصُّورة الكبرى. وقد كان تعليمه مؤسَّسًا على الحياة، يحترمُ دائمًا المصادرَ الكلاسيكيَّة، ويسعى دائمًا إلى إكسابها تعبيرًا حديثًا. هذه التعاليم زوَّدتني بالنظرة العالميَّة التي أمكنني بمُقتضاها أن أُنظِّم كامل تدرُّبي الأكاديميِّ والكتابيّ.

ولكنْ لم يقتصرِ الأمرُ على التعليم، أو بالأقلِّ على التعليم كما نُفكِّر فيه عادةً. إذ قام تواصُلٌ من القلب إلى القلب بين هذا الفيلسوف المُمتاز وتلك المجموعة الضئيلة والعامِّيَّة من تلامذة المسيح. فإنَّ دَلَس علَّمنا تمامًا في خضمِّ صراعاتنا وجراحنا ومخاوفِنا. إذ أنزلَ العقل إلى داخل القلب، وعلَّم من ذلك المركز العميق.

واليوم، بعد سنين كثيرة، ما زلتُ أستمتع بتأثير تلك الحلقات التي كانت مُفعَمةً بالتعليم والحياة والصلاة. وقد كان ذلك بالطبع تعليمًا بالتشارُك. إذ كُنَّا

نجلس بعضُنا في بيوتِ بعض، حيث كُنَّا نضحك معًا، ونبكي معًا، ونتعلَّم معًا، ونُصلِّي معًا. ونجمَ عن حيويَّةِ تلك المُناسبات البيتيَّة بعضٌ من أفضل أوقات التعليم، حيث كُنَّا نُطيل السَّهر أحيانًا، طارحينَ الأسئلة ومُناقشين القضايا، ومُطبِّقين حقَّ الإنجيل على أحوال الحياة. وكان من شأن دَلَس أن يتنقَّل بيننا مُعلِّمًا، دائمًا معلِّمًا. وهو كان صاحب موهبةٍ روحيَّةٍ ذات جاذبيَّةٍ في التعليم، كما أعتقدُ يقينًا. ذلك هو التعليم بحكمة، التعليم بشغف، التعليم من القلب. وكنَّا نختبر دائمًا شعورًا بما هو مُقدَّسٌ وفائق.

أمَّا التأثير الثالث فقد أتى أصلًا على يد قِسِّيس لوثريّ، هو وِليَم لوثر قاسِوغ. (ومَن كان اسمه "وِليَم لوثر قاسوغ" كيف يُعقَل ألَّا يكون إلَّا راعيًا في كنيسة لوثريَّة؟) فإنَّ كنيسة وِليَم، وقد كانت كبيرةً وناشطةً ومؤثِّرة، خيَّمت على جماعاتنا الصاحبيَّة الضئيلة. غير أنَّ ما شدَّني إلى وِليَم لم تكن له علاقةٌ بما هو "كبير" أو "مؤثِّر" أو حتَّى "لوثريّ". لا بل إنَّ ما رأيتُه كان شخصًا مُتعطِّشًا إلى أُمور الله. ومن ثَمَّ طلبتُه وقلتُ له: "وِليَم، أنت تعرف عنِ الصلاة أكثر ممَّا أعرفُه. فهلَّا تُعلمني كلَّ ما تعرفه!"

والآن، كانتِ الطريقة التي علَّمني وِليَم بها عنِ الصلاة هي بالصلاة... الصلاة الحيَّة الحيويَّة، الصادقة القلبيَّة، الجَذلى الفاحصة للذات. وإذ فعلنا ذلك، بدأنا بعدَ مُدَّة نختبر "الغوص المُمتع في اللاهوت" ذاك الذي تتحدَّث بشأنه مدام غِيُون. وبكلِّ صدقٍ أقول إنَّه كان لذاك الاختبار كثيرٌ من الوَقع والصِّبغة اللَّذَين تميَّزتْ بهما الاختباراتُ التي سبق أن قرأتُ عنها في آثار أساتذة التأمُّل والتعبُّد.

وقد كان الانتقالُ إلى قلب الصلاة هذا تأثيرًا ذا شِقَّين فعلًا. فإنَّ اختباراتي في الصَّلاة مع وِليَم عزَّزتها اختباراتُ امرأةٍ ماضية العزيمة على نحوٍ عجيب، هي

بَث شابيرو، وقد كانت أُولى الشَّيخات في جماعتنا الصغيرة. كانت بَث ممرِّضة في مستشفًى كبير، وقد اعتادت بعد العمل في المناوبة الليليَّة أن تأتيَ إلى مبنى الكنيسة في الصباح الباكر، حيث نقضي معًا (هي وأنا) ساعةً أو ساعتَين في الصلاة لأجل الناس، جميع أنواع الناس، سواءٌ في اجتماعنا أو خارجَه. فأيًّا كانوا ومهما كانوا، كانت بَث ترغب في الصلاة لأجلهم.

ثُمَّ إنَّنا كُنَّا أغلب الأحيان نُناقش قضايا لاهوتيَّةً وإيمانيَّةً وحياتيَّة. ومهما تحدَّثنا بشأنه، كانت بَث تُجرِّبه في المُستشفى. فإذا ناقشنا ما يُعلِّمه الكتاب المقدَّس عن "وضع الأيدي"، كانت بَث في عملها تدسُّ يديها في القُفَّازَين المطَّاطيَّين إلى داخل محضَن، وتضعُهما على طفلٍ خديج، وتُصلِّي بصمتٍ ومحبَّة، ثُمَّ تُراقِب الصغير فيما تتحسَّن صحَّته وسلامتُه. وقد كانت هذه الأُمور ممَّا تفعله بَث، لا بين حينٍ وآخر فحسب، بل مرارًا وتكرارًا. فعلى يد بَث تعلَّمتُ ضرورة الإتيان بالحقائق الروحيَّة إلى مُعترَك المعاناة البشريَّة.

وهكذا تقاربَت هذه المؤثراتُ الثلاثة في تلك الأيَّام من خدمتي الراعويَّة الباكرة، فكانت النتيجة ثورةً هادئة، داخلًا وخارجًا. وفي جماعتنا التي ضمَّت طالبين مُحتاجين، كُنَّا نُجرِّب كلَّ ما نتعلَّمه. وقد كانت تلك أيَّامَ اندفاع، إذ لمسنا أنَّنا نصبو إلى أمرٍ جليل. فكنَّا نُطرِّق على سِندان الحياة اليوميَّة كلَّ ما ظهر لاحقًا في **فرح الانضباط**. غير أنَّ هذه التأثيرات وحدها لم تدفعني إلى الكتابة الفعليَّة. إذ كانتِ الحاجة تدعو إلى المزيد.

ثلاثة حوافز فعَّالة

هذا "المزيد" جاء على شكل ثلاثة حوافزَ منفصلةٍ ومختلفةٍ تمامًا. وقد جاء أوَّلُها على يد بِل كاثِرز، وهو مُرسَلٌ سابق وصاحبُ تمييزٍ وحكمةٍ نادرَين. وحدث الأمرُ

هكذا: في أعقاب ثلاثة أيّام من الصّوم والصلاة، شعرتُ بدافع إلى الاتّصال ببِل ودعوته ليُصلّيَ لأجلي. أجل، ذلك كان مدى إرشادي- أن يُصلّيَ لأجلي فحسب- ولم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمّا ينبغي أن يُصلّيَه، ولا حتّى عنِ السبب. وقد وافق على المجيء.

لمّا وصل بِل، كان أوّل شيءٍ فعله حالًا أنّه بدأ يعترف لي بخطاياه. وجلستُ في مكاني مصعوقًا. "ماذا هو فاعل؟ إنّه الحكيمُ الروحيّ!" ذلك هو ما جال في خاطري، ولكنّني انتظرتُ صامتًا. حتّى إذا فرغ أخيرًا، تَلوتُ عليه تلك الكلمات المحُرِّرة الواردة في ١ يوحنّا ١: ٩ "إنِ اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادل حتّى يغفر لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كُلِّ إثم".

ثمّ نظر بِل إليَّ مباشرةً- واخترقني بنظره تمامًا- وسألني بكلِ هدوء: "والآن، هل تُريد منّي أن أصليَ لأجلك بَعد؟" لقد رأى ما في قلبي! إنّه علم أنّني كنتُ قد رفعتُه عاليًا على قاعدة بصفته واحدًا من مُعلّمي الدين الروحيّين المرموقين، وعمد إلى تحطيم ذلك إلى كومة من الرُّكام. وإذ صحّاني تمييزُه، أجبتُ بكلِّ بساطة: "نعم، أُريد".

إذ ذاك وضع يديه عليَّ، وصلّى واحدةً من أعمق الصلوات التي تلقّيتُها على الإطلاق. وما زالت قوّة تلك الصلاة تُرافقني اليوم. وليس في وسعي أن أبدأ بإطْلاعك على ما اتّصفتْ به صلاتُه تلك من علوٍ وعمقٍ وطولٍ وعرض، غير أنّني أُفضي إليك بعبارةٍ واحدة تفوّه بها، عبارةٍ مملوءةٍ بالقوّة، عبارةٍ نبويّة. إذ قال: "أُصلّي طالبًا أن تُعطِيَه يَدَي كاتب".

لقد بلغ السّهمُ مَقصِدَه. فما أزال أتوق إلى الكتابة منذ سنين. ولكنّني لم أُطلع أيَّ نفسٍ حيّة على هذه الرّغبة الخفيّة. وقد حال خجلي الشديد دون الإفصاح عنها لأحد. إنّما في ذلك اليوم شعرتُ بحصولي على قوّةٍ لخدمة

الكتابة. ومع أنَّ **فرح الانضباط** كان آنذاك طيَّ المستقبل، على بُعدِ سنين، فإنَّني باشرتُ فعلًا التَّتلمذَ الضروريَّ بكتابةِ كثيرٍ من المقالات الصَّحفيَّة.

أما الحافز الثاني فقد كان د. إلتُن تروبلُد، وهو مؤلِّفٌ محترم لنحوِ ستَّةٍ وثلاثين كتابًا. وكنتُ آنذاك أخدم ضمن فريقٍ رعويٍّ جديد شمالَ غربِ الباسيفيكيِّ في ما يدعوه مختصُّو نموِّ الكنائس باسم "الكنيسة الكبيرة". وقد كان ذلك مكانًا فيه بَدَتِ الأُمور جاريةً على ما يُرام مهما فعلتُ. كما كان ذلك وقتًا للتفكير مليًّا في الدُّروس المُستفادة، والنَّظرِ في إمكانيَّة تطبيقها على نطاقٍ أوسع.

في أثناء تلك الفترة، حضرتُ مؤتمرًا عامًّا للقادة الصاحبيِّين (الكْوَيكرز)، وكان بينهم الدكتور تروبلُد. وفي أعقاب المؤتمر، مكثتُ وزميلي في الخدمة رُن وُدوارد يومَين إضافيَّين للقيام بشيءٍ من التخطيط الوعظيِّ للأشهر المُقبلة.

وهكذا اتَّفق لي أن التقيتُ الدكتورتروبلُد في رَدهة الفندق. ولا أبالغُ مهما أشدتُ باهتمامه ولطفه اللَّذَين أبداهما نحو شخصٍ غير معروفٍ لديه. وبعد لُحيظاتٍ من المحادثة، التفتَ إليَّ فجأةً وسألني أيَّ كتابٍ كنتُ أكتبُ. فوقع عليَّ السؤال وقوعَ الصاعقة، وتمتمتُ مُتلعثمًا بكلماتٍ تُفيد أنَّني لم أكن مستعدًّا لبذل الجهد الذي يستلزمه تأليفُ كتابٍ طويل، غير أنَّني كنتُ أكتب بِضعَ مقالات. فقال متأمِّلًا: "هَمْم، حسنًا، لا بأس في هذا. ولكنْ قريبًا يجب أن تكتب كتابًا!" وقد حملت كلماتُه مقدارًا بالغًا من السُّلطان والشأن بحيثُ لم أستطِع إخراجها من وعيي. فقد تكلَّم بالحقِّ في قوَّة، وأثَّرَ فيَّ أيَّ تأثيرٍ في ذلك اليوم.

ولمَّا رجعتُ إلى الدِّيار، تجاسرتُ على الكتابة إلى تروبلُد، مُفصِحًا عن وجود فكرةٍ فعليَّة لديَّ بشأن كتاب، وأرفقتُ بالرِّسالة خلاصةً وجيزة لِما هو اليومَ **فرح الانضباط**. فأرسل إليَّ جوابًا رقيقًا ومُشجِّعًا ضمَّنه نصيحةً حازمة: "تيقَّنْ بأن

تجعل كلَّ فصل يدفعُ بالقارئ إلى الفصل التالي". وقد كانت تلك نصيحةً استهديتُ بها فعلًا في ترتيب فصول الكتاب.

كذلك توافر أيضًا حافزٌ ثالث. وبينما كان الاختباران الأخران حادَّين وحاسمَين، كان هذا الأخيرُ مُتطاوِلًا وغيرَ واضح المعالم. وقد جاء من كِن ودوريس بُويْس، وهما صديقان قديمان تولَّيا دورًا والِدِيًّا في حَياتي بعد عبور والديَّ البيولوجيَّين واديَ الظلّ.

إنَّهما ساعداني بطُرقٍ لا تُحصَى. فلمَّا كنتُ طالب دراساتٍ عُليا، طبعَت لي دوريس على الآلة الكاتبة (في تلك الأيَّام الغابرة السابقة للكومبيوتر) كثيرًا من الأبحاث الفصليَّة، فضلًا عن أُطروحة الدكتوراة التي أعددتُها. وقد حرصَت دائمًا على إطراء أبحاثي، حتَّى تلك البالغة التِّقنيَّة بحيث لم تكن لديها إلَّا فكرةٌ ضئيلة عن موضوع الكتابة. وعلى مرِّ السنين، تحدَّث كِن معي في لاهوتيَّات الحياة العمليَّة، ومثَّلها لي خير تمثيل. وقد شجَّعَتني دوريس دائمًا، رُبَّما بإفراط. وقد حرص كِلاهما على ألَّا يقولا الكثير بشأن كتابتي، بل بالأحرى على تيسير الكتابة لي. فهُما حمَّساني من الخطوط الجانبيَّة، ووثقا بي حين لم أستطِع تقريبًا أن أثق بنفسي.

وفي إحدى الفترات الحَرِجة، سمح لي كِن ودوريس باستخدام بيتهما المتنقِّل حتَّى يُتاحَ لي حيِّزٌ للكتابة دون مقاطَعات. فكنتُ أجلس هناك، أُشكِّل الأفكار وأصوغ الكلمات، ثُمَّ أشطبُها وأُعيد صياغتها. وقد كتبتُ أُولى صفحات **فرح الانضباط** في ذلك البيت المتنقِّل على الطريق الخاصَّة أمام منزل كِن ودوريس.

إنَّ هذه الاختبارات الثلاثة أطلقتني إلى الكتابة. غير أنَّ الكتابة ليسَتِ الطِّباعة. فبصراحة، لم أكن أعرف شيئًا عن عالَم الوكَلاء والمُحرِّرين، وألواح

صفِّ الحروف، وصفحات التجارب الطباعيَّة. وعليه، فإنَّ الانتقال من الكتابة إلى نشر الكتاب استغرق سلسلة من الأحداث الخارجة عن سيطرتي.

ثلاثة تدخُّلات من العناية الإلهيَّة

كان مؤتمرٌ للكُتَّاب مُنعقدًا في پورتلاند بأُوريغُن، على مقربةٍ منِّي. وقد حالتِ التزاماتي السابقة دونَ حضوره. غير أنِّي دفعتُ كامل رسوم ذلك الحَدَث، فقط كي أحظى بمُقابلة مدَّتُها عشر دقائق مع مُمثِّلٍ لدار هارپر أند رُو للنَّشر. وكنتُ أعلم أنَّ هارپر دارُ نشرٍ عامَّةٌ تضمُّ قسمًا دينيًّا قويًّا، ولها شُهرةٌ راسخة بالمطبوعات الجِدِّيَّة. ولكن من الخير المحض أنِّي لم أكُن أعلم أنْ لم يسبق أن أُتيح لكاتبٍ غيرِ منشورٍ له أن يتقدَّم إلى تلك الدَّار المرموقة.

وهكذا قابلتُ روي م. كارلِزل، المُحرِّر الدينيَّ في دار هارپر. وقد جرى لقاؤنا على ما يُرام، وطلب إليَّ أن أُرسِل إليه مشروع الكتاب كاملًا. فلبَّيتُ الطلب على وجه السُّرعة، مُتجاسِرًا أن أكتب في رسالتي الوصفيَّة: "هذا الكتاب هو لجميع الذين خيَّبتهم سطحيَّاتُ الثقافة الحديثة، ولا سيَّما الثقافة الدينيَّة الحديثة".

ثُمَّ جاوبني السيِّد كارلِزل بشأن مشروعي في الوقت المناسب. وسأذكر دائمًا أوَّل جملة من رسالته بحرفيَّتها: "بكلمة، نحنُ متحمِّسون حماسةً فائقة لمشروعك". ومن بين النصوص المبدئيَّة المُقدَّمة طوعًا إلى دار هارپر تلك السنة، وقد تخطَّت سبعَ مئة مخطوطة، كانت مخطوطتي هي الوحيدة التي قُبِلَت. أمَّا لماذا، فأمرٌ لم أستطِع تصوُّرَه!

كذلك أيضًا لم أعلم أنَّ تدخُّلًا ثانيًا للعناية الإلهيَّة كان جاريًا آنذاك. ففي أثناء محادثاتي مع السيِّد كارلزل، أرسل إلتُن تروبلُد خلاصة كتابي، مع توصيته الصادرة من القلب، إلى كلايتُن كارلسُن، الناشر الدينيِّ لهارپر أند رُو.

وكان إلتُن قد نشر جميع كتبه الستَّة والثلاثين لدى دار هارپر، وله علاقةٌ وثيقةٌ وقديمةُ العهد بالسيِّد كارلسُن. فلا شكَّ أنَّ إلتُن فتح لي أبوابًا لولاه لبقيَت مُقفلة. ولم أعلَم شيئًا عن هذا التفصيل طوال المدَّة المنصرفة التي تخطَّت عشرين سنة، إنَّما أعلمَني به مؤخَّرًا السيِّد كارلسُن. أمَّا إلتُن فلم يذكره مرَّةً قطّ.

ولكنْ هناك المزيد. فلدى قبول مشروع الكتاب، واجهتُ مأزقًا عَسِرًا. إذ كانَت المسؤوليَّات في الكنيسة تستوجب كاملَ اهتمامي: تحضير المواعظ، زيارة المرضى، الإرشاد، وغيرها. ثُمَّ إنَّ تحديد المُهلة القصوى للطَّبع سبَّب لي ذُعرًا. فكيف يمكنني إنجاز الأمر؟ لقد علمتُ بالحقيقة أنَّ ذلك غير ممكن. فماذا أفعل إذًا؟ استولى عليَّ الارتباك، وكان الخِيار الوحيد الذي أمكنني تصوُّرُه أن أُقرِّر عدم كتابة الكتاب.

عند هذا المَفصِل الحَرِج، تبرهَنَت حكمةُ أُسلوبِ خدمتنا الجماعيّ. فإنَّ رُن وُدوارد، رئيسَ فريقنا، بادر إلى القيام بفعلِ نعمةٍ وتضحيةٍ محض، إذ تطوَّع لينوبَ عنِّي في جميع التزاماتي الوعظيَّة حتَّى أفرغ من الكتابة. كذلك أيضًا أدرك شيوخُنا فرادة هذه الفُرصة. ومن ثَمَّ، ففي سبيل الجماعة المسيحيَّة الكُبرى، أعفَوني إلى حينٍ بالفعل من جميع مسؤوليَّاتي الراعويَّة، ليتسنَّى لي أن أُكرِّس جميع طاقاتي للكتابة فحسْب. وقد عكفتُ على ذلك فعلًا، ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة ساعةً كلَّ يوم، على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا. لا ريبَ أنَّ مزيدًا من العمل كان ينبغي القيامُ به، ولكنَّ بنية الكتاب الأساسيَّة اكتملت في فترة الكتابة المركَّزة تلك. ولم يُتَح لي قطُّ، من قبلُ ومن بَعد، مثلُ هذا التحرُّر من جميع الأعباء والمسؤوليَّات. وقد مثَّل ذلك في ذهني فعلًا مُلهَمًا ولا أنانيًّا من جانب شيوخ الكنيسة ورُن وسائر أعضاء الفريق. وهكذا كان أنَّ **فرح الانضباط** رأى النُّور.

وها أنا أسألك بَعد: ما هذا الكتابُ حقًّا؟ إنَّه ليس سوى خربشاتٍ على وَرَق. ولكنَّه بنعمة الله قد استُخدِم- ويا للعجب!- طيلة السنين العشرين المنصرمة، كأداة لتغيير حياة الناس. ومن أجل هذا أشكر الله. ثُمَّ ماذا بشأن مستقبل الكتاب؟ ذلك أتركُه بسرور لتدخُّلاتِ الله في عنايته الفائقة. المجد لله وحدَه!

ريتشارد فوستر

أيلول (سبتمبر) ١٩٩٧

1

الانضباطاتُ الروحيَّة: بابٌ إلى الحُرِّيَّة

أجتازُ هذه الحياة كعابرٍ في طريقه إلى الأبديَّة، خُلِق على صورة الله، ولكن لمَّا حُطَّت تلك الصورة بات مُحتاجًا لأن يُعلَّم كيف يتأمَّل ويتعبَّد ويُفكِّر.

دونالد كوغَن (Donald Coggan)

السطحيَّة لعنةُ عصرنا. وعقيدة الإشباع الفوريِّ مشكلةٌ روحيَّةٌ جوهريَّة. فالحاجة الماسَّة اليوم ليست إلى عددٍ أكبر من الأذكياء أوِ الموهوبين، بل إلى مُتعمِّقين.

إنَّ انضباطات* الحياة الروحيَّة تدعونا إلى الغوص في الأعماق مُجاوِزين العيشة السطحيَّة. إنَّها تدعونا إلى استكشاف الكهوف الداخليَّة في العالم الروحيّ، وتحثُّنا على أن نكون الجوابَ لعالَمٍ فارغ. وهذه نصيحة جون وُلمان: "يحسن بك أن تُقيم في الأعماق، ليُتاح لك أن تحسَّ وتتفهَّم أرواح الناس".[1]

* لعلَّك تتساءل عن سبب نعت الانضباطات المعالَجة في هذا الكتاب بأنَّها "كلاسيكيَّة". فهي ليست كلاسيكيَّة فقط لأنَّها قديمة العهد، وإن كان قد مارسها أشخاص مُخلِصون على مرِّ القرون. إنَّما الانضباطات كلاسيكيَّة لأنَّها مركزيَّة في الاختبار المسيحيّ. وبشكلٍ أو بآخر، جميعُ أساتذة التأمُّل والتعبُّد قد أكَّدوا ضرورة الانضباطات.

ولا ينبغي لنا أن نُقاد إلى الاعتقاد أنَّ الانضباطات هي للجبابرة الروحيِّين فقط، وهي من ثَمَّ خارجَ مُتناوَلِنا، أو أنَّها فقط للمتأمِّلين الذين يُكرِّسون كامل وقتهم للصلاة والتعبُّد. هَيهاتِ هيهات! إنَّ الله يقصد أن تكون انضباطاتُ الحياة الروحيَّة للكائنات البشريَّة العاديَّة: للأشخاص الذين لهُم أعمال وأشغال، ويعتنون بأولاد، ويغسلون الصُّحون ويَجزُّون المسطَّحات الخضراء. وبالحقيقة أنَّ الانضباطات تُمارَس على أفضل نحوٍ في خِضَمِّ علاقاتنا بالزَّوجة أوِ الزَّوج، وبإخوتنا وأخواتنا، وبأصدقائنا وجيراننا.

كذلك لا ينبغي أيضًا أن نُفكِّر بالانضباطات الروحيَّة كما لو كانت نوعًا من الكدح والكدِّ يستهدف إقصاء الضَّحِك عن وجه الأرض. فالفرح هو اللازمة المُلازمة للانضباطات جميعًا. والغرض منها هو التحرير من العبوديَّة الخانقة والخانعة للمصلحة الذاتيَّة والخوف. فعندما تتحرَّر الروحُ الداخليَّة من كلِّ ما يُثقِل كاهلها، يكاد يستحيل أن يُوصَف ذلك بأنَّه كدحٌ وكدّ. حتَّى إنَّ الغناء والرقَّص، بلِ الهُتاف أيضًا، تغدو من مُميِّزاتِ انضباطات الحياة الروحيَّة.

وبمعنًى مُهمٍّ من المعاني، ليستِ الانضباطاتُ الروحيَّة صعبة*. فلا داعيَ لأن نكون متضلِّعين من اللاهوتيَّات جيِّدًا حتَّى نُمارس الانضباطات. ذلك أنَّ المُهتدينَ إلى المسيح حديثًا- وفي ما يتعلَّق بهذا الأمر: الأشخاص الذين ينبغي لهم بعدُ تسليمُ حياتهم ليسوع المسيح- يُمكِنهم ويجب عليهم أن يُمارِسوها. إنَّما الشَّرطُ الجوهريُّ أن يكون لديهم توقٌ إلى الله، على حدِّ ما خطَّ كاتب المزامير: "كما يشتاق الأيِّل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحيّ" (المزمور ٤٢: ١ و٢).

فمرحبًا بالمبتدئين! وأنا أيضًا مُبتدئ، حتَّى بعد قضائي عددًا من السنين في

* بمعنًى آخر، هي صعبةٌ حقًّا؛ وذلك هو الموضوع الذي سنتطرَّق إليه لاحقًا.

ممارسة كلِّ انضباط يتناوله هذا الكتاب... بل وخصوصًا بعدَ هذا. وكما يقول ثوماس مرتُن، فإنَّنا "لا نريد أن نكون مبتدئين. ولكنْ لنقتنعْ بحقيقةِ أنَّنا لَن نكون أبدًا إلَّا مُبتدئين، طيلةَ حياتنا!"[٢]

نقرأ في المزمور ٤٢: ٧ "غمرٌ يُنادي غمرًا". فربَّما في مكانٍ ما من غُرَف حياتك السرِّيَّة سمعتَ الدعوة إلى عيشةٍ أعمق وأكمل. ولعلَّك سئمتَ الاختباراتِ التافهة والتعليم السطحيّ. وبين حينٍ وآخرَ التقطتَ لَمَحاتٍ أو ومضاتٍ تتعلَّق بما يتخطَّى ما قد عرفتَه. فأنت في داخل كِيانك تتوق إلى الانطلاق نحو الأعماق.

وأُولئك الذين سمعوا النداء النَّائيَ في داخل أعماقهم، والذين يرغبون في استكشاف عالَم الانضباطات الروحيَّة، تُواجِهُهم في الحال صعوبتان، **الأُولى** هي فلسفيَّة. فإنَّ قاعدة عصرنا المادِّيَّةَ قد باتت واسعة الانتشار بحيثُ أثارت لدى الناس شكوكًا خطيرة بشأن قدرتهم على تخطِّي نطاق العالم الطبيعيّ. وكثيرون من العُلَماء المرموقين قد جاوزوا مثلَ هذه الشُّكوك، عالمينَ أنَّنا لا يمكن أن نُحصَر داخل علبةِ مكانٍ وزمان. غير أنَّ الشخصَّ العاديَّ مُتأثِّرٌ بالعلم الشعبيِّ، وهذا مُتخلِّفٌ عن أيَّامنا جيلًا كاملًا ومُتحامِلٌ بشكلٍ متحيِّزٍ على العالَم اللامادِّيّ.

ويصعب أن نُغاليَ في وصف مدى تشبُّعِنا بعقليَّة العِلم الشعبيّ. فالتأمُّل مثلًا، إذا سُمِح به أصلًا، لا يُعدُّ لقاءً بين الإنسان والله، بل تلاعبٌ سيكولوجيّ. ويحتمل الناس عادةً خوضًا وجيزًا في "رحلة الاستبطان الذاتيَّة"، ولكنْ لا يلبثُ أن يحينَ وقتُ مواصلة الشؤون الواقعيَّة في عالَم الواقع. فنحن نحتاج إلى الشجاعة كي نتخطَّى تحامُل عصرنا، ونؤكِّدَ معَ خِيرَةِ عُلَمائنا أنَّ في الوجود ما يُجاوزُ العالَمَ المادِّيّ. وبأمانةٍ فكريَّة، ينبغي أن نكون على استعدادٍ لأنْ ندرس ونستكشف الحياة الروحيَّة بمثل الدِّقَّة البالغة والعزم الوطيد اللَّذَين نُوظِّفهما في أيِّ ميدانٍ من ميادين البحث.

أمَّا الصعوبة **الثانية** فهي صعوبة عمليَّة. ذلك أنَّنا لا نعرف تمامًا كيف نمضي في استكشاف الحياة الداخليَّة. ولم تكُن الحال دائمًا على هذا المنوال. ففي القرن الأوَّل وقبلَه، لم يكن ضروريًّا إعطاءُ تعليماتٍ بشأن كيفيَّة "القيام" بانضباطات الحياة الروحيَّة. وقد دعا الكتاب المقدَّس الناس إلى مُمارَساتٍ من قبيل الصوم والصلاة والتعبُّد والاحتفال، غير أنَّه لم يُعطِ تقريبًا أيَّة تعليماتٍ بشأن القيام بتلك المُمارسات. ومن السَّهل أن نرى سبب ذلك. فإنَّ هذه الانضباطات قد مُورِسَت تكرارًا، كما كانت جزءًا من الحضارة العامَّة بحيثُ عرف الجميع "كيف" تُمارَس. فمثلًا، كان الصَّوم عامًّا جدًّا بحيث لم يُضطرَّ أحدٌ لأنْ يسأل ماذا يأكل قبل الصِّيام، أو كيف يُفطِر، أو كيف يتجنَّب الدَّوخة وهو صائم، ما دام الجميع يعرفون ذلك أصلًا.

غير أنَّ هذا لا ينسحب على جيلنا. فثمَّة اليومَ جهلٌ مُطبِق للنَّواحي الأكثرِ بساطةً وعمليَّةً في الانضباطات الروحيَّة الكلاسيكيَّة كُلِّها تقريبًا. من هنا وجبَ أن يتضمَّن أيُّ كتابٍ يُكتَب في الموضوع توجيهًا عمليًّا محدَّدًا بشأن كيفيَّة القيام بالانضباطات المعهودة. إنَّما لا بدَّ من كلمة تحذير تُطلَق من أوَّل الطريق: أن نعرف الآليَّات أمرٌ لا يعني أنَّنا نُمارِس الانضباطات. فإنَّ الانضباطاتِ الروحيَّة هي حقيقةٌ داخليَّةٌ وروحيَّة، وتوجُّهُ القلبِ الداخليُّ أهمُّ بكثيرٍ جدًّا من الآليَّات للإقبال إلى لُبِّ الحقيقة في الحياة الروحيَّة.

وفي حماستنا لممارسة الانضباطات، قد نُخفِق في ممارسة الانضباط الذاتيّ. فالحياة المَرْضيَّة أمام الله ليست سلسلةً من الواجبات الدينيَّة. إنَّما لنا أمرٌ واحد نفعلُه، ألا وهو أن نختبر حياةَ علاقةٍ وثيقةٍ بالله "أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظلُّ دوران" (يعقوب ١: ١٧).

عبوديَّة العادات الرَّاسخة

اعتدنا أن نُفكِّر في الخطيَّة كأفعال عصيانٍ لله مُنفردة. وهذا صحيحٌ بالقَدْر الذي يؤول الأمر إليه، ولكنَّ كلمة الله المقدَّسة تتخطَّى هذا أكثرَ جدًّا*. ففي رسالة رومية يشير الرسول بولس تكرارًا إلى الخطيَّة بصفتها حالةً تُعذِّب البشر جميعًا (مثلًا، رو٣: ٩- ١٨). والخطيَّة، من حيث كونُها حالة، تُنفِّذ مُبتغاها بواسطة "أعضاء الجسد"، أي من طريق عادات الجسد الراسخة (رو٧: ٥ وما يلي). وليس من عبوديةٍ تمكن مقارنتها بعبوديَّة عادات الخطيَّة الراسخة.

يقول الكتاب في إشعياء ٥٧: ٢٠ "أمَّا الأشرار فكالبحر المضطرب، لأنَّه لا يستطيع أن يهدأ، وتقذفُ مياهه حمأةً وطينًا". فإنَّ البحر غيرُ مُضطرٍّ لأنْ يفعل أيَّ شيءٍ خاصٍّ لكي يُنتِج حمأةً وطينًا؛ إذ إنَّ ذلك نتيجةٌ لحركاته الطبيعيَّة. وهذا أيضًا يصحُّ فينا حين نكون في حالة الخطيَّة. إذ إنَّ حركاتِ حياتنا الطبيعيَّةَ تُنتِج حمأةً وطينًا. فالخطيَّة جزءٌ من تركيبة حياتنا الداخليَّة. ونحن لا نحتاج إلى أيِّ جهدٍ خاصٍّ كي نُنتجَها. فلا عجب إن شعرنا بأنَّنا عالقون في فَخّ.

إنَّما أُسلوبنا المُعتاد في التصدِّي للخطيَّة المُتأصِّلة فينا هو أن نشنَّ هجومًا مباشرًا عليها. ونحن نتَّكل على قوَّة إرادتنا وعزيمتنا. فمهما كانَت المسألة لدينا- غضبًا أو خوفًا أو مرارةً أو شراهةً أو كبرياءَ أو شهوةً أو سوءَ استخدامٍ للمادَّة- نعقد عزمنا على ألَّا نُعيد الكرَّة؛ كما أنَّنا نُصلي ضدَّها ونحارب ضدَّها ونوجِّه إرادتنا ضدَّها. غير أنَّ الجهاد عبث بِعَبث، ثُمَّ نجد أنفُسنا مرَّةً أُخرى مُفلسينَ أدبيًّا، أو أسوأَ بَعد: مُبالغين جدًّا في التفاخُر ببرِّنا الخارجيِّ بحيث تكون "القبورُ المُبيَّضة" وصفًا لطيفًا لحالتنا. وفي كُتيِّب مُمتاز، عنوانه "التحرُّر من الأفكار الأثيمة"، يقول

* الخطيَّة مسألةٌ شديدة التَّعقيد بحيثُ تشتمل اللُّغة العبريَّة على ثماني كلماتٍ مختلفة تُشير إليها، والثماني كلُّها موجودةٌ في الكتاب المقدَّس.

كاتبُه هَيني آرنولد: "ينبغي أن نوضح بكلِّ جلاء أنَّه ليس في وسعنا أن نُحرِّر قلوبنا ونُنقِّيَها بإعمالِ **إراداتنا** الخاصَّة".[٣]

وفي رسالة كولوسِّي يذكر الرسول بولس بعض الضوابط الخارجيَّة التي يستعملها الناس للسيطرة على الخطيَّة: "لا تمسَّ ولا تذُق ولا تجسّ". ثُمَّ يُضيف أنَّ لهذه الفرائض مظهرَ حكمةٍ بعبادةٍ يفرضها المرء بإرادته الذاتيَّة (كو٣: ٢٠-٢٣). والتعبير المُترجَم "بعبادةٍ نافلة" (ع ٢٣) جاء في اللغة الأصليَّة "بعبادةِ إرادة"- ويا له من تعبيرٍ كاشف ووصفٍ دقيق لجزءٍ كبيرٍ من حياتنا! فاللَّحظة التي نشعر فيها بأنَّنا نقدر على النجاح وإحراز الانتصار على الخطيَّة بقوَّة إراداتنا وحدِها هي اللحظةُ التي نكون فيها مُتعبِّدين للإرادة. أليس من دواعي السُّخرية أنْ ينظر بولس إلى مجهوداتنا الأكثر إجهادًا في مسيرتنا الروحيَّة ويدعوها "عبادةَ إرادة" باعتبارها ضربًا من عبادة الأوثان؟

إنَّ قوَّة الإرادة لن تنجح أبدًا في التَّصدِّي لعادات الخطيَّة المتأصِّلة في أعماقنا. وحسبَ قول أميت فُوكس: "حالَما تُقاوِم عقليًّا أيَّة حالة غير مرغوبة أو مطلوبة، تَمنحها بذلك مزيدًا من القوَّة التي ستستخدمها ضدَّك، وتكونُ قد استنفدتَ مواردَك الخاصَّة إلى ذلك المدى عينه".[٤] كذلك خلص هَيني آرنولد إلى القول: "ما دمنا نعتقد أنَّنا نستطيع أن نُنقذ أنفسنا بقوَّة إراداتنا الذاتيَّة، فنحن إنَّما نجعل الشرَّ في داخلنا أقوى منه في أيِّ وقتٍ آخر".[٥] وقد اختبر هذه الحقيقةَ عينَها جميعُ الكُتَّاب الكبار الذين تطرَّقوا إلى حياة التأمُّل والتعبُّد، من القدِّيس أُغسطينوس إلى القدِّيس فرنسيس الأسِّيزي، ومن جون كالڤن إلى جون وسلي، ومن تريزا الآفيليَّة إلى جوليان الزاهد.

قد تُنتج "عبادةُ الإرادة" مظهرَ نجاحٍ خارجيًّا إلى حين، ولكنْ في صُدوع حياتنا وشقوقها لا بدَّ أن تنكشف أخيرًا حالتُنا الداخليَّة العميقة. ويصف السيِّد المسيح هذه الحالة حين يتكلَّم عن برِّ الفرِّيسيين الخارجيّ: "مِن فضلة القلب

يتكلَّم الفم... ولكن أقول لكم إنَّ كلَّ **كلمةٍ بطَّالة** يتكلَّم بها الناس سوف يعطون عنها حسابًا يوم الدين" (متَّى ١٢: ٣٤-٣٦). تَرى إذًا أنَّ الناس، بفضل الإرادة، يمكن أن يؤدُّوا عرضًا حسنًا إلى حين، ولكنْ عاجلًا أو آجلًا ستأتي تلك اللَّحظة الخالية من الحَذَر والتي سوف تنفلتُ فيها "الكلمة البطَّالة" لتكشف حالة القلب الحقيقيَّة. فإنْ كُنَّا مملوئين رحمةً وتحنُّنًا، فلا بدَّ أن ينكشف ذلك؛ وإنْ كُنَّا مملوئين مرارةً، فلا بدَّ أن ينكشف ذلك أيضًا.

ليس أنَّنا نُخطِّط أن نكون على هذا النَّحو أو ذاك. فلا نيَّةَ لدينا أن ننفجر غضبًا، ولا أن نُبديَ غُرورًا بغيضًا، ولكنْ حين نكون بين الناس يخرج ما **نحنُ** عليه. ومع أنَّنا قد نحاول بكُلِّ قوَّتنا أن نُخفيَ أُمورًا كهذه، تفضحُنا عيونُنا، أو ألسنتُنا، أو ذُقوننا، أو أيدينا، أو كاملُ لُغَةِ أجسامنا. فليس لقوَّة الإرادة دفاعٌ ضدَّ الكلمة الطائشة، ولا ضدَّ اللحظة الخالية من الحَذَر. إذ إنَّ الإرادة تُعاني العجزَ عينه الذي يتصِّف به الناموس: أنَّها تستطيع فقط أن تتعامل مع المظاهر الخارجيَّة. غير أنَّها عاجزةٌ عن إحداث التغيير الواجب في الروح الداخليَّة.

الانضباطاتُ الروحيَّة تفتح الباب

عندما نيأس من إحراز التغيير الداخليِّ بواسطة قِوى الإرادة والتصميم البشريَّة، ننفتح على إدراكٍ جديدٍ عجيب: أنَّ البرَّ الداخليَّ هو عطيَّة من عند الله نتقبَّلها بالنِّعمة. فالتغيير المطلوب في داخلنا هو من عملِ الله، لا عملنا نحن. إذ إنَّ الحاجة تدعو إلى شُغلٍ داخليّ، والله وحدَه قادرٌ على أن يشتغل من الداخل. فنحن لا نستطيع أن نَبلغ أو نُحرز برَّ ملكوت الله هذا، بل هو نعمة تُعطى إعطاءً.

وفي رسالة رومية يذهب الرسول بولس إلى أبعد مدًى ليُبيِّن أنَّ البرَّ هِبَةٌ من

عند الله* فهو يستخدم اللفظة خمسًا وثلاثين مرَّة في هذه الرسالة، ويُصِرُّ كلَّ مرَّة على أنَّ البرَّ لا يمكن إحرازُه أو بلوغُه بواسطة الجهد البشريّ. ومن أوضح العبارات تلك الواردةُ في رومية ٥: ١٧ "... الذين ينالون فيض النعمة **وعطيَّة البرِّ** سيملكون في الحياة بالواحد يسوعَ المسيح". طبعًا، لا يوجد هذا التعليم فقط في رسالة رومية، بل في الكلمة المقدَّسة كلِّها، وهو يقوم واحدًا من الأركان الأساسيَّة في الإيمان المسيحيّ.

غير أنَّنا حين نحوز هذا التبصُّر الرائع، نغدو عُرضةً لخطإٍ في الاتِّجاه المُعاكِس. إذ نُغرَى بأن نعتقد أنْ ليس ثمَّة ما يمكن أن نفعله. فما دامت جميع الجهادات البشريَّة تؤول إلى الإفلاس الروحيّ (ونحن نعلم أنَّ هذا هو واقعُ الحال بعد ما جرَّبناه واختبرناه)، وما دام البرُّ عطيَّةً مجانيَّةً من الله (الأمرُ الذي ينصُّ عليه الكتاب المقدَّس بكلِّ وضوح)، أفلا يكون من المنطقيِّ إذًا أن نستنتج أنَّ علينا انتظارَ الله كي يأتيَ ويُغيِّرنا؟ الجوابُ هو لا، رُغمَ غرابةِ الأمر. فالتحليل صحيح- أنَّ الجهادَ البشريَّ غيرُ وافٍ والبرَّ هِبَةٌ من الله- ولكنَّ الاستنتاج خطأ. إذ إنَّ ثمَّة ما يمكن أن نفعله، ويا لَغِبطتنا! فلا داعيَ لأنْ نَعلَق على أحد قَرنَي الحيرة التي تتكوَّن من خِيارَين لا ثالث لهما: إمَّا الأعمال البشريَّة وإمَّا الكسل. ذلك أنَّ الله أعطانا انضِباطات الحياة الروحيَّة كوسيلة لتقبُّل نعمته. فالانضِباطات تُيسِّر لنا أن نضع أنفسنا بين يدَي الله حتَّى يُتاحَ له أن يُغيِّرنا.

يقول الرسول بولس إنَّ "من يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فسادًا؛ ومَن يزرع للروح فمن الروح يحصد حياةً أبديَّة" (غلاطية ٦: ٨). وهذه الاستعارة

* يشمل هذا البرَّ الموضوعيَّ والبرَّ الشخصيَّ كليهما. وفي هذا الكتاب نتناول مسألة البرِّ الشخصيّ (أو التقديس إذا فضَّلتَ لفظةً لاهوتيَّةً أُخرى)، ولكن من المهمّ أن نعيَ أنَّ كليهما هِبَةٌ يُنعِم بها الله. ثُمَّ إنَّ الكتاب المقدَّس في الواقع لا يُجري التفريق الواضح الذي اعتاد اللاهوتيُّون أن يُجروه بين البرِّ الموضوعيِّ والبرِّ الشخصيّ، فقط لأنَّ كَتَبة الوحي كانوا يرَون من السُّخف أن يتكلَّموا بشأن حيازة أحدهما دونَ الآخر.

التمثيليَّة التي يستخدمها بولس مُنوِّرةٌ للذهن حقًّا. فالفلاَّح عاجزٌ عن إنماء الحنطة؛ إذ كلُّ ما يقدر أن يفعله هو توفير الأحوال المؤاتية لإنمائها. إنَّه يحرث التُّربة، ويزرع البذار، ويسقي النَّبات، ثُمَّ تتولَّى الباقيَ قوى الأرض الطبيعيَّةُ، فيطلع الزَّرع. وهكذا حالُ الانضباطات الروحيَّة: إنَّها طريقةٌ في الزَّرع للروح. فالانضِباطات هي طريقةُ الله لغرسنا في التُّربة الروحيَّة؛ إذ تضعُنا حيثُ يُتاح لله أن يعمل داخلَنا ويُغيِّرنا. فهي في حدِّ ذاتها لا تستطيع أن تفعل شيئًا؛ إنَّما تستطيع فقط أن تضعنا في المكان الذي يمكن فيه أن يُفعَل شيء. إنَّها من وسائط نعمة الله. والبرُّ الداخليُّ الذي نَنشده ليس شيئًا يُسكَب على رؤوسنا. فقد رتَّب الله أن تكون انضباطاتُ الحياة الروحيَّة هي الوسيلة التي نضع بها أنفسنا حيث يمكن أن يباركنا الله.

ومن المناسب في هذا الشأن أن نتكلَّم بشأن "سبيل النِّعمة المنضبطة". أمَّا تقييده "بالنِّعمة" فلأنَّ الأمر مجَّانيّ؛ وأمَّا وصف النِّعمة بأنَّها "منضبطة" فلأنَّ هنالك ما ينبغي أن نفعله نحن. ويُوضِح دِيترِتش بُونهُويفر في كتابه "كلفةُ التِّلمذة"، أنَّ النِّعمة مجَّانيَّة ولكنَّها ليست رخيصة. فإنَّ نعمة الله غيرُ مُكتسَبة ولا يُمكن تحصيلُها بالجهد الذاتيّ، ولكنْ إذا كُنَّا نتوقَّع أن ننموَ في النِّعمة أصلًا، ينبغي لنا أن ندفع الثمن اللازم لمسلكٍ عمليٍّ يشمل الحياة الفرديَّة والجماعيَّة على السَّواء. وما غايةُ الانضباطات سوى النموِّ الروحيّ.

وربَّما كان من المُفيد أن نتصوَّر عِيانيًّا ما نحن بصدد البحث فيه. فتصوَّرْ سلسلةَ جبالٍ طويلةً ضيِّقة ذات منحدرٍ عموديٍّ من كِلا الجانبَين. أمَّا الهوَّة القائمة عنِ اليمين فهي طريق الإفلاس الأدبيِّ بشتَّى وسائل الكفاح البشريِّ في سبيل البرّ. وقد دُعِيَت هذه تاريخيًّا بدعةَ "الأخلاقيَّة". وأمَّا الهوَّة القائمة عنِ اليسار فهي الإفلاس الأدبيُّ أو الخُلقيُّ عبرَ غياب أيِّ كفاح بشريّ. وهذه قد دُعِيَت بدعة "اللاناموسيَّة". ولكنَّ على السلسلة سبيلًا، ألا وهو انضباطاتُ الحياة الروحيَّة. هذا السبيل يؤدِّي إلى التحويل والشِّفاء الداخليَّين اللَّذين نسعى

إليهما. ويجب علينا ألَّا نميل البتَّة يمينًا أو يسارًا، بل نبقى على السبيل. ورغم أنَّ السبيل محفوفٌ بالمصاعب الشديدة، فإنَّه حافلٌ أيضًا بأفراحٍ لا تُصدَّق. فإذ نسيرُ على هذا السبيل، ستأتي علينا بَرَكة الله وتُعيد تشكيلَنا على صورة السيِّد المسيح. إنَّما علينا أن نتذكَّر دائمًا أنَّ السبيل لا يُنتج التغيير، بل يضعُنا فقط حيث يمكن أن يحدث التغيير. هذا هو سبيل النِّعمة المنضبطة.

ينطوي اللاهوت الأدبيُّ على قول مأثور: "الفضيلة سَهلة". ولكنَّ هذه المقولة صحيحةٌ فقط إلى المدى الذي يكون فيه عملُ الله بنعمته قد سيطر على روحنا الداخليَّة وغيَّر أنماطَ العاداتِ الراسخةَ في حياتنا. وحتَّى يتمَّ ذلك، تبقى الفضيلة صعبة، بل بالحقيقة عسيرةً جدًّا. فنحن نُجاهد كي نُبديَ روحَ محبَّةٍ وعطف، غير أنَّ ذلك يكون كأنَّنا نجلب إلى الداخل شيئًا من الخارج. ثُمَّ يفورُ من الأعماق الداخليَّة ذلك الأمرُ الوحيد الذي لا نرغب فيه: روحُ مرارةٍ لاذعة. ولكنْ ما إن نعيش ونسير على سبيل النعمة المنضبطة مدَّةً من الزمن، حتَّى نكتشف حصول تغييراتٍ داخليَّة حتمًا.

إنَّنا لا نقوم بما يتعدَّى قبولَ هبَة، ومع ذلك نعلم أنَّ التغييرات حقيقيَّة. ونحن نعلم أنَّها حقيقيَّة لأنَّنا نكتشف أنَّ روح الرحمة والتحنُّن التي استصعبنا جدًّا إبداءها في ما مضى باتَت الآن سهلة. وبالحقيقة أنَّ الامتلاء بالمرارة سيكون هو الأمرَ الصَّعب. فإنَّ المحبَّة الإلهيَّة قد انسلَّت إلى روحنا الداخليَّة وأخضعَت أنماط عاداتنا. وفي اللَّحظات الخالية من الحَذَر، يحصل فيضٌ تلقائيٌّ من المقادس الداخليَّة في حياتنا، قِوامُه "محبَّة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفُّف" (غلاطية ٥: ٢٢ و٢٣). ولا تعود لدينا تلك الحاجة المُضنية إلى سَتْر ذواتنا الداخليَّة عن الآخرين. فَلَسنا مُضطرِّين لأن نجتهد ونتعب كي نصير صالحين ولُطَفاء؛ إذ نكونُ **بالفعل** صالحين ولُطفاء. وأن نكفَّ عن كوننا صالحين ولُطَفاء سيكون هو الأمرَ الصَّعب، لأنَّ الصلاح واللُّطف باتا جزءًا من طبيعتنا. فكما أنتجتْ حركاتُ حياتنا

الطبيعيَّةُ في ما مضى حمأةً وطينًا، كذلك تمامًا تُنتج الآن ما هو "برٌّ وسلام وفرح في الروح القدس" (رومية ١٤: ١٧). وقد لاحظ شكسبير أنَّ "مزيَّة الرحمة ليست مُتكلِّفة"... وعلى غرارها جميعُ الفضائل متى تمَّت لهُنَّ السيطرةُ على الشخصيَّة.

طريق الموت: تحويلُ الانضباطات إلى فرائضَ ناموسيَّة

إنَّ الانضباطاتِ الروحيَّةَ مُعَدَّةٌ لخيرنا. فالمقصود منها أن تأتيَ بفيضِ الله إلى داخل حياتنا. ولكن من الممكن أن تُحوَّل إلى تشكيلةٍ أُخرى من الفرائض الناموسيَّة القاتلة للنَّفس. فالانضباطات المرتبطة بقيودٍ ناموسيَّة تَنفثُ الموت.

لقد علَّم السيِّد المسيح أنَّ علينا تَخطِّيَ برِّ الكَتَبة والفَرِّيسِّيين (متَّى ٥: ٢٠). إنَّما ينبغي لنا أن نَعيَ أنَّ برَّهم لم يكُن أمرًا يسيرًا. فقد كانوا عاكفين على اتِّباع الله بطريقةٍ كثيرون منَّا غير مُستعدِّين لمُجاراتها. غير أنَّ عنصرًا واحدًا كان كلَّ حينٍ مركزيًّا في برِّهم، ألا وهو **التظاهريَّة** (أي الإفراط في التعلُّق بالمظاهر الخارجيَّة). فقد كان قِوام برِّهم السيطرة على المظاهر الخارجيَّة، مشتملةً أغلبَ الأحيان على استغلال الآخرين. إنَّما المدى الذي نكون قد بلغناه في تخطِّي برِّ الكَتَبة والفَرِّيسيِّين يُرى في مقدار ما تُبيِّنه حياتُنا من عمل الله الداخليِّ في القلب. يقينًا أنَّ ذلك ستكون له نتائج خارجيَّة، غير أنَّ العمل سيكون داخليًّا. وسهلٌ في تحمُّسنا للانضباطات الروحيَّة أن نحوِّلها إلى البرِّ الخارجيِّ الذي اتَّصف به الكَتَبة والفَرِّيسيون.

وعندما تُحَطُّ الانضباطاتُ الروحيَّة لتُجعَل ناموسًا، فإنَّها تُستعمَل لاستغلال الناس والسيطرة عليهم. إذ نأخذ الوصايا الصريحة ونستعملها لتقييد الآخرين. ومثل هذا الانحطاط اللاحق بالانضباطات يُنتِج كبرياءَ وخوفًا. أمَّا الكبرياء فستبرُزُ لأنَّنا نغدو مُعتقِدين أنَّنا الصِّنفُ الصحيح من الناس. وأمَّا الخوف، فلأنَّنا نرتاع من فقدان السيطرة.

فإن شئنا أن نتقدَّم في مسيرتنا الروحيَّة بحيث تكون الانضباطات بَرَكة، لا لعنة، يجب أن نصل في حياتنا إلى حيثُ يمكننا أن نُنزِل عن ظهورنا ذلكَ الحملَ الدَّهريَّ المُتمثِّل في رغبتنا دائمًا أن نُدير الآخرين. إذ إنَّ هذه النَّزعة، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر بمُفرَده، ستؤدِّي بنا إلى تحويل الانضباطات الروحيَّة فرائضَ ناموسيَّة. وما إن نُرسي فريضة، حتَّى تكونَ لنا "تظاهريَّة" نحكم بها مَن يرقى إلى مُستواها ومَن لا يرقى. فبغير قوانينَ ناموسيَّة، تكون الانضباطات في الجوهر عملًا داخليًّا، ومن المستحيل أن نفرض السيطرة على عملٍ داخليّ. وحين نعتقد بحقٍّ أنَّ التحويل الداخليَّ هو عمل الله، لا عملُنا نحن، يمكننا أن نُسكِّن شغفَنا بإصلاح الآخرين.

ينبغي أن نحذر من السُّرعة الهائلة التي يمكن أن نندفع بها إلى هذه الكلمة أو تلك، ونحوِّلَها إلى فريضة ناموسيَّة. ولحظةَ نفعل هكذا نؤهِّل أنفُسَنا للحُكم الصارم الذي تفوَّه به السيِّد المسيح على الفَرِّيسيين: "يحزمون أحمالًا ثقيلة عَسِرة الحَمْل، ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يُحرِّكوها بإصبعهم" (مت٢٣: ٤). وفي هذه الأُمور، نحتاجُ لأنْ تترسَّخ في أعماق أذهاننا كلماتُ الرسول بولس: "...جعلَنا كفاةً لأنْ نكون خدَّام عهدٍ جديد، لا الحرف بلِ الروح، لأنَّ الحرف يقتل ولكنَّ الروح يحيي" (٢كورنثوس ٣: ٦).

ففيما نَلِجُ العالَمَ الداخليَّ الخاصَّ بالانضباطات الروحيَّة، نتعرَّض دائمًا لخطر تحويلها إلى فرائض ناموسيَّة. غير أنَّنا لسنا متروكين لوسائلنا البشريَّة الخاصَّة. فقد وعد الربُّ يسوع بأن يكون هو **مُعلِّمَنا ومُرشِدَنا** الحاضرَ كلَّ حين. و سماع صوته ليس بالأمر الصعب. و فهم توجيهه ليس صعبًا. فإن كُنَّا قد باشرنا بَلْوَرة ما ينبغي أن يبقى حيًّا ونامِيًا، فالربُّ سيقول لنا. وفي وسعنا أن نركن إلى تعليمه. وإن كُنَّا ننحرف نحو فكرةٍ خاطئة أو ممارسة باطلة، فهو سيردُّنا. وإن كُنَّا راغبين في الإصغاء إلى **المؤدِّب السماويّ**، فسوف نتلقَّى التعليم والتوجيه اللذين نحتاج إليهما.

إنَّ عالمنا جائعٌ إلى أُناسٍ تغيَّروا تغيُّرًا أصيلًا. وقد صدق ليو تولستوي إذ قال: "كلُّ إنسانٍ يُفكِّر في تغيير البشريَّة، ولا أحدَ يُفكِّر في تغيير نفسه".[٦] فلنكُن بين أُولئك الذين يعتقدون اعتقادًا راسخًا أنَّ التحويل الداخليَّ في حياتنا هدفٌ يستحقُّ أن نبذل في سبيله أفضلَ جُهدِنا.

القسم الأوَّل

الانضباطات الداخليَّة

٢

انضباطُ التأمُّل

ليس التأمُّل الحقيقيُّ حيلةً سيكولوجيَّة، بل هو نعمةٌ لاهوتيَّة.

ثوماس مِرتُن (Thomas Merton)

في المجتمع المعاصر، يتخصَّصُ **خصمُنا** في ثلاثة أُمور: الضَّجَّة والعَجَلة والجماهير. فإذا استطاع أن يُبقيَنا مُنهمكين في أُمورٍ كثيرةٍ ومُتعدِّدة، فإنَّه يُسرُّ ويرضى. وقد قال عالمُ النفس كارل يونغ مرَّةً مُنبِّهًا: "العَجَلة ليست مِن إبليس؛ بل هي إبليس ذاته".[١]

فإن كُنَّا نرجو أن نتخطَّى سطحيَّات حضارتنا، ومن جُملتها الجانبُ الروحيُّ فيها، يجبُ أن نكون على استعداد للغوص في أعماق الصَّمت المُنعِشة، في عالم التأمُّل الداخليّ. وأساتذة التأمُّل والتعبُّد كلُّهم، في مكتوباتهم، يدْعوننا لأن نكون رُوَّادًا على هذه الجبهة الروحيَّة المتقدِّمة. فلئن بدا الأمر مُستغرَبًا في الأذان المعاصرة، ينبغي لنا، بلا خجل ولا وجل، أن نتسجَّل تلامذةً مُمَهَّنين في مدرسة الصلاة التأمُّليَّة التعبُّديَّة.

شهادة الكتاب المقدَّس

لا ريبَ أنَّ انضباط التأمُّل التعبُّديِّ كان مألوفًا لدى كَتَبة الكلمة المقدَّسة. والكتاب المقدَّس يستخدم كلمتَين عبريَّتَين مختلفتين (**هَجاه** و**سِيَت**) للتعبير

عن فكرة التأمُّل، وهما معًا تُستخدَمان نحو ثمانٍ وخمسين مرَّة. ولهاتين الكلمتَين معانٍ شتَّى: الاستماع إلى كلمة الله، التأمُّل في أعمال الله، التفكُّر في شريعة الله، وغير ذلك بَعد. وفي كلِّ حالة، يُشدِّدُ على تغيُّرٍ في السلوك نتيجةً لمُقابلتنا الإلهَ الحيّ. لِذا كانَتِ التَّوبة والطاعة سِمتَين أساسيَّتَين في أيِّ فهم كتابيٍّ للتأمُّل التعبُّدي. فها هو كاتب المزامير يهتف: "كم أحببتُ شريعتَك! اليوم كلَّه هي لَهَجي...من كلِّ طريقِ شرٍّ منعتُ رجليَّ، لكي أحفظ كلامك. عن أحكامك لم أمِل، لأنَّك أنت علَّمتَني" (المزمور ١١٩: ٩٧و ١٠١و ١٠٢). وهذا التركيز الدائم على الطاعة والأمانة هو ما يُميِّز أوضحَ تمييزٍ بين التأمُّل المسيحيِّ ونظائره الشرقيَّة والدُّنيويَّة.

وأُولئك الذين جالوا في رياض صفحات الكتاب المقدَّس عرفوا سُبُلَ التأمُّل والتعبُّد. "وخرج إسحاق ليتأمَّل في الحقل عند إقبال المساء" (تكوين ٢٤: ٦٣). "إذا ذكرتُك على فراشي، في السُّهد ألهج بك" (المزمور ٦٣: ٦). وبالحقيقة أنَّ المزامير تُشيد بتأمُّلات شعب الله في شريعته تعالى. "تقدَّمت عيناي الهُزُع، لكي ألهج بأقوالك" (مز ١١٩: ١٤٨). والمزمور الذي يتصدَّر باقيَ المزامير يدعو الجميع إلى الاقتداء "بالرَّجُل المُطوَّب" الذي "في ناموس الربِّ مسرَّتُه، وفي ناموسه يلهج نهارًا وليلًا" (مز١: ٢).

وقد عرف الكاهنُ الشَّيخُ عالي كيف يُصغي إلى الله، وساعد الصبيَّ الصغير صموئيل على معرفة كلام الربّ (١صموئيل٣: ١- ١٨). وقضى النبيُّ إيليا كثيرًا من الأيَّام والليالي في البرِّيَّة مُتعلِّمًا أن يُميِّز صوتَ الربِّ الموصوفَ بأنَّه "صوتٌ مُنخفضٌ خفيف" (١ملوك ١٩: ٩- ١٨). وإشعياءُ رأى الربَّ في مَقامٍ "عالٍ ومرتفع" وسمع صوته قائلًا: "مَن أُرسِل؟ ومن يذهب من أجلنا" (إش٦: ١- ٨). وإرميا اكتشف أنَّ كلمة الربِّ كانت في قلبه "كنارٍ مُحرِقة محصورة في عظامي" (إر٢٠: ٩). ثُمَّ يمضي الشهودُ إلى الأمام، وهؤلاء كلُّهم

كانوا أشخاصًا قريبين جدًّا من قلب الله. وقد تكلَّم الله إليهم لا لأنَّهم حازوا قُدراتٍ خاصَّة، بل لأنَّهم كانوا راغبين ومستعدِّين لأنْ يستمعوا.

ثُمَّ إنَّ السيِّد المسيح، في خِضمِّ خدمةٍ حافلةٍ بالعمل إلى أقصى الحدود، تعوَّد أن ينسحب إلى "موضع خلاء منفردًا" (متَّى١٤: ١٣).* وكان يفعل ذلك لا ليكون بعيدًا عن الناس فحسب، بل ليُتاح له أن يختليَ في حضرة الله. فماذا فعل يسوع مرَّةً بعد مرَّةٍ في تلك الجبال الخالية؟ إنَّه كان يُقابِل أباه السماويَّ، ويُصغي إليه، ويتحادث معه بمحبَّةٍ ومودَّة، وهو يدْعونا إلى القيام بالأمر ذاته.

الاستماع والطاعة

إنَّ التأمُّل المسيحيَّ، بمنتهى البساطة، هو القدرة على الاستماع إلى صوت الله وإطاعة كلمته. ويا ليتني أستطيع أن أجعل هذا الأمر البسيط جدًّا أكثرَ تعقيدًا بالنِّسبة إلى أولئك الذين يَهوَون الأُمور الصَّعبة! فهو لا ينطوي على أيَّة أسرارٍ خفيَّة، ولا أيَّة مانْترا (Mantra)** سرِّيَّة، ولا على أيَّة رياضاتٍ ذهنيَّة، ولا تحليقاتٍ خاصَّة في أجواء الوعي الكونيّ. وحقيقةُ الأمر أنَّ إلهَ الكونِ العظيمَ، خالقَ كلِّ شيء، يتوق إلى الشَّركة معنا. ففي جنَّة عدن، كان آدم وحوَّاء يتكلَّمان إلى الله وكان الله **أيضًا** يتكلَّم إليهما... كان الجميع في شَركةٍ طيِّبة. ثُمَّ حصل السُّقوط، وبمعنًى مهمٍّ طرأ انقطاعٌ على الشُّعور بالشَّركة الدائمة، لأنَّ آدم وحوَّاء اختبأا من الله. ولكنَّ الله ظلَّ مُبادرًا إلى الاتِّصال بأولاده المُتمرِّدين، وفي سِيَرِ أشخاصٍ مثل قايين وهابيل ونوح وإبراهيم نرى الله مُتكلِّمًا ومُتصرِّفًا، ومُعلِّمًا ومُرشِدًا.

* راجع أيضًا مت٤: ١- ١١؛ لو٦: ١٢؛ مت١٤: ٢٣؛ مر١: ٣٥؛ ٦: ٣١؛ لو٥: ١٦؛ مت١٧: ١- ٩؛ ٢٦: ٣٦- ٤٦.

** مانترا: مصطلح يُستخدم في بعض الديانات الهنديَّة (الناشر).

وقد تعلَّم موسى- وإن يكُن بكثيرٍ من التذبذُبات والانعطافات- كيف يستمع إلى صوت الله ويُطيع كلامه. وبالحقيقة أنَّ الكلمة المقدَّسة تشهد أنَّ الله كان يُكلِّم موسى "وجهًا لوجه، كما يُكلِّم الرجُل صاحبَه" (خروج٣٣: ١١). فقد كان هنالك نوعٌ من العلاقة الوثيقة، أو الشَّركة الحميمة. غير أنَّ بني إسرائيل، بصفتهم شعبًا، لم يكونوا مُهيَّئين لمثل هذه العلاقة الوثيقة. فما إن تعلَّموا قليلًا عنِ الله، حتَّى أدركوا أنَّ وجود المرء في حضرته كان شأنًا خَطِرًا، وقالوا كذلك لموسى: "تكلَّم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلَّم معنا الله لئلاَّ نموت (خروج٢٠: ١٩). بهذه الطريقة يُتاح لهم أن يُحافِظوا على وجاهتهم الدينيَّة بمعزلٍ عنِ الأخطار المُلازِمة. وكانت تلك بدايةَ السِّلسلة العظيمة المؤلَّفة من الأنبياء والقُضاة، وقد كان موسى أوَّل حلقةٍ فيها. غير أنَّها كانت خُطوةَ ابتعادٍ عن إحساسِ المُباشِريَّة الملموسة في السَّحابة نهارًا وعمود النار ليلًا.

ثُمَّ في ملء الزمان، جاء الربُّ يسوع وعلَّم حقيقةَ ملكوت الله، مُبيِّنًا كيف يمكن أن تكون حالةُ الحياة في ذلك الملكوت. وقد أسَّس جماعةً مشتركة حيَّة تختبره بصفته الفادي والمَلِك، مُستمعةً إليه في كلِّ شيء ومطيعةً إيَّاه في كلِّ زمان. وفي علاقة السيِّد المسيح الوثيقة بالآب، أعطانا مِثالًا على تلك الحياة المُميَّزة بالاستماع والطاعة. "لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا، إلَّا ما ينظر الآب يعمل؛ لأنْ مهما عمل ذاك، فهذا يعمله الابن كذلك" (يو٥: ١٩). "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا؛ كما أسمع أدين" (يو٥: ٣٠). "الكلام الذي أُكلِّمكم به لستُ أتكلَّم به من نفسي، لكنَّ الآب الحالَّ فيَّ هو يعمل الأعمال" (يو١٤: ١٠). ولمَّا أوصى السيِّد المسيح تلاميذه بأن يثبتوا فيه، تيسَّر لهم أن يفهموا ما عناه لأنَّه هو كان ثابتًا في الآب. وقد أعلن أنَّه هو الراعي الصالح وأنَّ خرافه تعرف صوته (يو١٠: ٤). كما أنَّه قال لنا إنَّ المُعزِّيَ، روحَ الحقّ، كان مُزمِعًا أن يأتي، وإنَّه هو يُرشِدنا إلى جميع الحقّ (يو١٦: ١٣).

وفي ثاني سِفرٍ كتبه البشير لوقا- أي سفر أعمال الرسل- يتَّضح أنَّ الكاتب يعني ضمنيًّا أنَّ الربَّ يسوع، في أعقاب قيامته وصعوده، ما زال مستمرًّا في **العمل والتعليم**، حتَّى لو تعذَّر على الناس أن يَرَوه بالعين المجرَّدة (أعمال الرُّسل ١:١). ويُشير بطرس واستفانوس كِلاهما إلى يسوع على أنَّه الإتمام للنبوَّة الواردة في سفر التثنية ١٨: ١٥ بشأن النبيِّ الذي يُماثِل موسى والذي سوف يتكلَّم وإليه يَستمعُ الشعب ويُطيعونه (أع٣: ٢٢؛ ٧: ٣٧).* ففي سفر الأعمال نرى المسيح المُقام والمالك، بروحه القدُّوس، يُعلِّم ويُرشِد شعبَه: هاديًا فيلبُّس إلى أُناسٍ ينتمون إلى حضاراتٍ غيرِ مبلوغةٍ بَعد (أعمال٨)، مُعلنًا أنَّه المسيح لبولس (أع٩)، مُعلِّمًا بطرس بشأن قوميَّته اليهوديَّة (أع١٠)، مُقتادًا الكنيسة خارجَ أسرها الحضاريّ (أع١٥). وما نراه مرارًا وتكرارًا هو شعبُ الله مُتعلِّمين أن يعيشوا على أساس الاستماع إلى صوتِ الله وإطاعة كلمته.

وقُصارى القول إنَّ هذا يُشكِّل الأساس الكتابيَّ للتأمُّل. والخبر الرائع هو أنَّ المسيح لم يكفَّ عنِ التصرُّف والتكلُّم. فهو مُقام، وعاملٌ في عالَمِنا. فلا هو خامل، ولا هو مُصابٌ بالتهاب الحَنجَرة. إنَّه حيّ، وهو في وسطنا بصفته كاهنَنا كي يغفر لنا، ونبيَّنا كي يُعلِّمنا، ومَلِكَنا كي يسود علينا، وراعيَنا كي يقودَنا.

إنَّ جميع القدِّيسين على مرِّ الأجيال قد شهدوا لهذه الحقيقة وممَّا يدعو إلى الرثاء أنَّ المسيحيِّين المُعاصِرين يجهلون تمامًا ذلك البحرَ الواسع من المكتوبات في التأمُّل المسيحيِّ بأقلام مؤمنينَ أُمناء على مرِّ القرون. وشهادتُهم جميعًا لحياة الفرح في الشَّركة الدائمة مُتماثِلةٌ ومُتناغِمة على نحوٍ مُدهش. فمن كاثوليكيٍّ إلى إنجيليّ، ومن أُرثوذكسيٍّ مشرقيٍّ إلى تابع للكنيسة الغربيَّة الحُرَّة، نَلقى حثًّا على "أن نعيش في حضرة الربِّ في شركة غير مُنقطعة".[٢] ويقول المُتصوِّف الروسيُّ ثيوفان الناسك:

* راجع أيضًا تثنية ١٨: ١٥- ١٨؛ مت١٧: ٥؛ يو١: ٢١؛ ٤: ١٩- ٢٥؛ ٦: ١٤؛ ٧: ٣٧- ٤٠؛ عب١: ١- ١٣؛ ٣: ٧و ٨؛ ١٢: ٢٥.

"أن تُصلِّيَ هو أن تُنزِل العقلَ إلى داخل القلب، وتقف هناك أمام وجه الربّ، الحاضر دائمًا أبدًا والناظر كلَّ شيء، في داخلك".[٣] وقد صرَّح اللاهوتيُّ الأنجليكانيُّ جيرمي تايلُر أنَّ "التأمُّل هو واجبُ الجميع".[٤] وفي زماننا، لمَّا سُئل ديترتش بونهويفر، الشهيدُ اللوثريّ، عن سبب انصرافه إلى التأمُّل، أجاب: "لأنَّني مسيحيّ".[٥] إنَّ شهادة الأسفار المقدَّسة وشهادة أساتذة التأمُّل التعبُّديِّ غنيَّتان جدًّا، ونابضتان حياةً بحضور الله، بحيث يكون من الغباوة أن نُهمِل مثل هذه الدعوة الكريمة إلى اختبار "أعماق يسوع المسيح"[٦]، على حدِّ تعبير مدام غِيُون.

غاية التأمُّل

إنَّنا إذ نتأمَّل نتأصَّل في ما سمَّاه توما الكمبيسي "صداقة أُلفة مع يسوع".[٧] فنحن نغوص في نور المسيح وحياته ونصير مُستريحين في ذلك الوضع، حيث يتحوَّل حضور الربّ الدائمُ (أو كُلِّيةُ وجوده، كما نقول) من عقيدة لاهوتيَّة إلى واقع مُتألِّق. ولا تعود العبارة "يمشي معي ويحكي معي" مُجرَّدَ تَغريدةِ تقوى، بل تغدو بالأحرى وصفًا دقيقًا للحياة اليوميَّة.

أرجو أن تفهم مقصدي: إنَّني لا أتحدَّث بشأن علاقة صاحبٍ بصاحب تَتَّصِف بالخِفَّة ورفع الكلمة. فكلُّ رقَّةٍ عاطفيَّة من هذا النَّوع إنَّما تفضح فقط كم هو ضئيلٌ ما نعرفه، وكم نحن بعيدون جدًّا عن الربِّ المرتفع والمُمجَّد كما هو مُعلَنٌ لنا في الكلمة المقدَّسة. ويقول لنا يوحنَّا في رؤياه إنَّه لمَّا رأى المسيح المالك سقط عند رجليه كمَيْت (رؤيا١: ١٧)، فهكذا ينبغي لنا نحن أن نفعل كذلك. لا، فأنا أتكلَّم عن حقيقة أقربَ إلى ما شعر به التلاميذ في العلِّيَّة حين اختبروا وثاقةَ العلاقة ومهابة الاحترام معًا.

فما يحصل في التأمُّل هو أنَّنا نُهيِّئ الحيِّز الروحيَّ والعاطفيَّ الذي يُتيح

للمسيح أن يُنشئ مَقدسًا داخليًا في القلب. والآية الرائعة "هأنذا واقفٌ على الباب وأقرع..." كُتِبت أصلًا للمؤمنين، لا لغير المؤمنين (رؤ٣: ٢٠). فنحن الذين سلَّمنا المسيح حياتَنا، ينبغي لنا أن نعرف كم يشتاق كثيرًا جدًّا أن يأكل معنا ويتحادث معنا. إنَّه يشتهي وليمةً أفخارستيَّةً دائمة في مَقدِس القلب الداخليّ. والتأمُّل يفتح الباب. ومع أنَّنا نكون مُنهمِكين في تمارينِ تأمُّلٍ محدَّدةٍ في أوقاتٍ مُعيَّنة، فإنَّ الهدفَ يبقى أن نأتيَ بهذه الحقيقة الحيَّة إلى جميع أنحاء الحياة.

إنَّ هذا النوع من الشَّرِكة الباطنيَّة يُغيِّر الشخصيَّة الداخليَّة. فلا يَسَعُنا أن نُضرِم الشُّعلة الأبديَّة في مَقدِس النفس الداخليّ، ونظلَّ كما كُنَّا، لأنَّ النار الإلهيَّة سوف تلتهم كلَّ ما هو غيرُ طاهر. كما أنَّ **مُعلِّمنا** الحاضرَ دائمًا أبدًا سيكون مُرشِدًا إيَّانا كلَّ حين إلى ما هو "برٌّ وسلام وفرح في الروح القدس" (رومية١٤: ١٧). وسيَنبغي لنا أن نتخلَّى عن كلِّ ما هو غريبٌ عن طريقه الإلهيّ. لا، ليس "سينبغي لنا" بل "سنرغبُ في" ذلك، لأنَّ أشواقنا وآمالنا ستكون أكثرَ فأكثرَ تناغُمًا مع طريقه. وعلى نحوٍ مُتزايد، سوف يترجَّح كلُّ ما في داخلنا كإبرةِ بُوصلة مُتَّجِهًا نحو قِبلة الروح القدس.

مفاهيم خاطئة يُمكِن فهمُها

كُلَّما أُخِذت فكرةُ التأمُّل المسيحيَّةُ على مَحمِل الجِدّ، قام أُولئك الذين يفترضون أنَّها مُرادِفة لمفهوم التأمُّل الذي تشتمل عليه الدِّياناتُ الشرقيَّة. وبالحقيقة أنَّ بين الفكرتَين هُوَّةً شاسعةً جدًّا. فالتأمُّل الشرقيُّ محاولةٌ لإفراغ الذِّهن؛ أمَّا التأمُّل المسيحيُّ فهو محاولةٌ لِمَلء الذهن. وشتَّانَ ما بين الفكرتَين!

فأشكال التأمُّل الشرقيَّة تُشدِّد على الحاجة إلى صيرورة المرء منفصلًا عنِ العالم. إذ يجري التشديد على فقدان الكينونة الشخصيَّة والفرديَّة، والاندماج

في العقل الكونيّ. فهنالك توقٌ إلى التحرُّر من أعباء هذه الحياة وآلامها، والانطلاق على لاشخصانيَّة النِّرڤانا (السعادة القُصوى التي تتخطَّى الألم والتي تُلتَمس بإماتة الشهوات كلِّيًّا). إذ ذاك تُفقَد الهُويَّة الشخصيَّة، ويُنظَر إلى الكيان الشخصيِّ بالحقيقة على أنَّه الوهمُ الأقصى، حيث تأتي لحظة الإفلات من دولاب الوجود البائس. وليس من إله يلتصق به المرءُ أو يستمع إليه. فالانفصال إذًا هو الغاية القُصوى في الديانة الشرقيَّة.

غير أنَّ التأمُّل المسيحيَّ يُجاوز كثيرًا مفهوم الانفصال. إذ تدعو الحاجة إلى الاتِّصال- إلى "سبتِ تأمُّل"[٨] على حدِّ تعبير بطرس السَّلسيِّ، الراهبِ البنديكتيِّ من القرن الثاني عشر. ولكنَّ في التفكير بلُغة الانفصال فقط خطرًا فعليًّا، كما لمَّح السيِّد المسيح في قصَّته عنِ الإنسان الذي فُرِّغ من الشرِّ ولكنَّه لم يُملأ بالخير. "متى خرج الروح النجس من الإنسان... يذهب ويأخذ سبعة أرواح أُخَر أشرَّ منه، فتدخل وتسكن هناك؛ فتصير أواخر ذلك الإنسان أشرَّ من أوائله" (لوقا١١: ٢٤- ٢٦).[٩]

كلاَّ! إنَّ الانفصال وحدَه غيرُ كافٍ، بل يجب أن نُتابع الطريق إلى **الاتِّصال**. ذلك أنَّ الانفصال عنِ الفوضى الشائعة حوالَينا هو في سبيل حيازة اتِّصالٍ أغنى بالله. فالتأمُّل المسيحيُّ يؤدِّي بنا إلى الكمال الداخليِّ الذي لا بدَّ منه لتقديم أنفُسنا لله بملء الحرِّيَّة.

وهنالك مفهوم خاطئٌ آخر بشأن التأمُّل إذ يُرى أنَّه صعبٌ جدًّا، بل مُعقَّد تعقيدًا فائقًا. ومن ثَمَّ، فرُبَّما كان من الأفضل أن يُترك للاختصاصيِّ الذي يتَّسع وقتُه لاستكشاف المناطق الداخليَّة القَصيَّة. كلَّا على الإطلاق! فالخُبراءُ الثِّقاتُ في هذا الطَّريق لا يُخبِرون أبدًا أنَّهم كانوا في رحلة موقوفة على القلَّة المُميَّزة، أو على الجبابرة الروحيِّين. ومن شأنهم أن يضحكوا على الفِكرة بحدِّ ذاتها. فإنَّهم

قد شعروا بأنَّ ما كانوا فاعليه هو نشاطٌ إنسانيٌّ طبيعيّ- طبيعيٌّ ومهمٌّ مَثَلُه مَثَل التنفُّس. كما أنَّ من شأنهم أيضًا أن يقولوا لنا إنَّنا لسنا بحاجة إلى أيَّة مواهبَ خاصَّة أو قُدرات خارقة للطبيعة. فقد كتب ثوماس مِرتُن: "إنَّ التأمُّل هو بالحقيقة بسيطٌ جدًّا، ولا نحتاج كثيرًا إلى تِقنيَّات مُتقَنة تُعلِّمنا كيف نقوم به".[١٠]

وثمَّة مفهوم خاطئٌ ثالث يتمثَّل في حسبان التأمُّل أمرًا غير عمليٍّ ولا يمتُّ بأيَّة صِلَة إلى القرن العشرين. ويُخشى أن يؤدِّيَ إلى نظير الشخص المُخلَّد في كتاب "الإخوة كرامازوف" لدوستويفسكي بصورة الأب فيراپونت: وهو شخصٌ قاسٍ، ذو برٍّ ذاتيٍّ، يُنقِذ نفسه بمجهوده الخاصِّ الخالص من العالم ثُمَّ يستنزل اللعنات على العالم. فكثيرون يعتقدون أن التأمُّل، في أفضل حالاته، يؤدِّي إلى أُخرَويَّةٍ سقيمةٍ تُبقينا في معزلٍ عن معاناة البشريَّة.

غير أنَّ تخمينات كهذه تُخطئُ المرمى بمسافةٍ بعيدة. ففي الواقع أنَّ التأمُّل هو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يُعيدَ توجيه حياتنا على نحوٍ كافٍ بحيث يتأتَّى لنا أن نتعامل مع الحياة الإنسانيَّة تعامُلًا ناجحًا. وقد كتب ثوماس مِرتُن أيضًا: "لا يكون للتأمُّل معنًى ولا حقيقة إلَّا إذا كان متأصِّلًا في **الحياة** بثبات".[١١] ومن الناحية التاريخيَّة، لم تُشدِّد أيَّة جماعة على الحاجة إلى دُخول أغوار الصَّمت المُصغي أكثر ممَّا شدَّد عليها الصَّاحبيُّون (الكْوَيكرز)، وقد كانَت النتيجة تأثيرًا اجتماعيًّا حيويًّا فاقَ أعدادَهم بكثير. وحسنًا علَّق وِليَم پن قائلًا: "التَّقوى الحقيقيَّة لا تُخرِج الناس من العالَم، بل تُمكِّنهم من أن يعيشوا فيه عيشةً أفضل، وتحفز مساعيَهم إلى إصلاحه".[١٢]

فسوف يُؤتي التأمُّل أغلبَ الأحيان تبصُّراتٍ عمليَّةً في الصَّميم، تكاد أن تكون دُنيويَّة صِرفًا. إذ إنَّك ستتلقَّى توجيهًا في كيفيَّة التعامُل مع زوجتك (أو مع زوجِكِ)، وتتعلَّم كيف تتصدَّى لهذه المشكلة الحسَّاسة أو لذلك الوضع المِهنيّ.

فيكون رائعًا إذا أدَّى تأمُّلٌ ما إلى بهجةٍ غامرة، ولكنَّ الأعمَّ كثيرًا جدًّا أن نُعطَى إرشادًا في التصدِّي للمشكلات البشريَّة المعتادة. ذلك أنَّ التأمُّلَ يُرسِلُنا إلى عالَمِنا العاديِّ بمنظورٍ أعظم واتِّزانٍ أوفر.

وربَّما كان المفهوم الخاطئُ الأكثر شيوعًا هو أن يُنظَر إلى التأمُّل كما لو كان شكلًا دينيًّا من أشكال المُناوَرة النَّفسيَّة. فهو قد يكون ذا قيمةٍ في تخفيض ضغطنا الدَّمويِّ أو تخفيف توتُّرنا، بل إنَّه أيضًا قد يمدُّنا بتبصُّراتٍ مُنوِّرة إذ يساعدنا على الاتِّصال بذهننا الناشط دونَ الوعي. ولكنَّ فكرة الاتِّصال والتواصُل مع إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب تبدو غيرَ علميَّة وغير منطقيَّة بعضَ الشيء. فإن شعرتَ بأنَّنا نعيش في عالَمٍ ماديٍّ صِرف، فستنظر إلى التأمُّل بصفته طريقةً جيِّدة للحصول على نموذج موجاتٍ دماغيَّة ثابتة من طراز ألفا. ولكنْ إنْ كنتَ تعتقد أنَّنا نعيش في كونٍ خلقه الإلهُ اللامحدودُ ذو الشخصيَّة، والذي يُسَرُّ بتواصُلِنا معه، فستنظر إلى التأمُّل باعتباره تواصُلًا بين **المُحِبِّ** والمحبوب.

ومفهوما التأمُّل هذان ضدَّان تامَّان. فأحدُهما يحصرنا داخل اختبارٍ بشريٍّ كلِّيًّا؛ والآخر يُطلقنا إلى لُبِّ لقاءٍ إلهيٍّ- بشريّ. وأحدُهما يتحدَّث بشأن استكشافٍ ما دونَ الوعي؛ أمَّا الآخر فيتكلَّم بشأن "الاسترخاء في ذلك الشخص الذي **اهتدينا** إليه، والذي يحبُّنا، وهو قريبٌ منَّا، ويأتي إلينا كي يجذبنا إلى ذاته".[١٣] وكِلا المفهومَين قد يبدو دينيًّا، بل يستخدم أيضًا لُغَةً خاصَّة، غير أنَّ أوَّلهما لا يستطيع في آخِر المطاف أن يجد موضعًا للحقيقة الروحيَّة.

فكيف نُقبِل إذًا إلى الإيمان بعالَمٍ يخصُّ الروح؟ أبالإيمانِ الأعمى؟ حاشا! فإنَّ الحقيقة الداخليَّة المُتعلِّقة بالعالَمِ الروحيِّ في متناول جميع الذين يرغبون أن يبحثوا عنها. وكثيرًا ما تبيَّن لي أنَّ أُولئك الذين يَفضحون الزَّيف في عالَمِ الروح بإفراطٍ لم يُمضُوا قطُّ عشر دقائق في التفتيش عن حقيقة وجود عالَمٍ كهذا.

فلأقترحْ عليك أن نسلك سبيلًا تجريبيًّا نحو الحقائق الروحيَّة. فعلى غِرار أيِّ مسعًى علميٍّ آخر، نُكوِّن فَرضيَّةً ونُجرِّبها لنرى أصحيحةٌ هي أم لا. وإن أخفقتْ تجرِبتُنا الأُولى، لا نيأس ولا ننعت الأمر كلَّه بأنَّه خِداع. فنحنُ نُعيد النظر في طريقتنا، ورُبَّما نُعدِّل فَرضيَّتنا، ثُمَّ نُحاوِلُ من جديد. وينبغي لنا على الأقلِّ أن نكون أُمَناء في المُثابرة على هذا العمل إلى درجة مثابرتنا في أيِّ حقلٍ من حقول العِلم. أمَّا حقيقةُ كون الكثيرين غيرَ راغبين في القيام بهذا فلا تنمُّ عن ذكائهم، بل عن تحيُّزهم.

الاشتياق إلى صوت الله الحيّ

تمرُّ بنا أوقاتٌ فيها يقولُ كلُّ ما في داخِلنا "آمين" لكلمات فردريك دبليو. فابر:

أن نجلس ونُفكِّر فقط في الله
يا له من فَرَح غامر!
فليس في الأَرض سعادةٌ أسمى
من أن نُفكِّر هذا الفِكر
ونتنفَّسَ هذا الاسم الأسنى.[١٤]

ولكنَّ الذين يتأمَّلون يعرفون أنَّ ردَّة الفعل الأغلبَ هي التبلُّد الروحيّ: بُرودةٌ وجمود وقِلَّةُ رغبة. إذ يبدو أنَّ لدى البشر ميلًا دائمًا لأنْ يتولَّى شخصٌ آخر التكلُّم إلى الله نيابةً عنهم. فنحن قانعون بأن نتلقَّى الرسالة بطريقةٍ غير مباشرة. وقد كانت واحدةً من غلطات بني إسرائيل المُهلِكة أنَّهم أصرُّوا على أن يكون لهم مَلِكٌ بشريٌّ بدلًا من الاستراحة إلى مُلك الله الثيوقراطيِّ (الحكم الإلهيّ) عليهم. ويمكننا أن نلمح مسحة حزن في قول الربّ: "إيَّاي رفضوا حتَّى لا أملك عليهم" (١صموئيل ٨: ٧). فإنَّ تاريخ الدِّين هو قصَّةُ اندفاع البشر المحموم وشبه

اليائس إلى أن يكون لديهم مَلِكٌ أو وسيطٌ أو كاهنٌ أو راعٍ أو وكيل. بهذه الطريقة لا نُضطرُّ لأنْ نذهبَ إلى الله نحنُ أنفُسُنا. ومُقاربةٌ كهذه تُنقذنا من الاضطرار إلى التغيُّر، لأنَّ المُثول في حضرة الله يعني أن نتغيَّر. ولا حاجةَ بنا إلى مراقبة الحضارة الغربيَّة عن كثب حتَّى نُدرِكَ أنَّها أسيرةُ الديانة التي تستوجب وجود وسيط.

لذلك يُروِّعنا التأمُّلُ أيَّ ترويع. فهو يدعونا بجرأةٍ إلى الدخول بأنفُسنا إلى حضرة الله الحيّ. إنَّه يقول لنا إنَّ الله مُتكلِّمٌ في الحاضر المستمرِّ، وهو يُريد أن يُكلِّمنا. ويُبيِّن الربُّ يسوع وكَتَبةُ الوحي في العهد الجديد بكلِّ وضوح أنَّ هذا الأمر ليس وقفًا على أهل الاختصاص الدينيّ- أو الكَهَنة- بل هو للجميع. فإنَّ **جميع** الذين يعترفون حقًّا بيسوع المسيح ربًّا هُم كهنوتُ الله الشاملُ، وبهذه الصِّفة يستطيعون أن يدخلوا قُدس الأقداس ويتواصلوا مع الله الحيّ.

ويبدو صعبًا جدًّا أن نحمل الناس على الاعتقاد أنَّ في وسعهم **شخصيًّا** أن يسمعوا صوت الله. غير أنَّ أعضاء كنيسة **المخلِّص** في واشنطُن العاصمة قَضَوا مدَّةً لا بأس بها وهم يُجرِّبون اختباراتٍ في هذا المجال. وهاكَ استنتاجَهم: "إنَّنا نعدُّ أنفُسَنا من أهل القرنَين العشرين والحادي والعشرين؛ إنَّما رُغمَ ذلك لدينا تلميحاتٌ إلى أنَّ المرء يمكن أن يتلقَّى توجيهاتٍ جليَّةً جلاءَ ذلك الذي تلقَّاه حنانيًّا...أنْ قُم واذهب إلى الزُّقاق الذي يقال له المُستقيم!"[١٥] ولمَ لا؟ فلماذا لا يمكن أن يُسمَعَ صوتُه ويُطاعَ اليوم؟ حقًّا إنَّه يمكن أن يُسمَع، وهو يُسمَع فعلًا، لدى جميع الذين يعرفونه بصفته **المُعلِّم والنبيَّ** الحاضرَ الآن.

فكيف نتلقَّى التَّوق إلى سماع صوته؟ "هذا الشَّوق إلى الالتفات عطيَّةُ نعمة. فأيُّ شخصٍ يتصوَّر أنَّ في وسعه بكلِّ بساطة أن يُباشِر التأمُّل، بغير أن يصلِّي لأجل التَّوق والنعمة للقيام بذلك، سوف يستسلم سريعًا. ولكنَّ التَّوق إلى التأمُّل، والنِّعمة لمُباشرة التأمُّل، ينبغي أن يُؤخذا كوعدٍ ضمنيٍّ بمزيدٍ من

النِّعَم".[١٦] فإنَّ التماسَ "عطيَّة النِّعمة" هذه وتلقِّيَها هُما الأمر الوحيد الذي يُبقينا مُتقدِّمين إلى الأمام في الرِّحلة الداخليَّة. وكما قال ألبرتوس الكبير: فإنَّ "تأمُّل القدِّيسين يُضرِمُه حبُّ مَن يتأمَّلون فيه، أي الله".[١٧]

تقديسُ الخيال

نستطيع أن نُنزل العقل إلى القلب على أيسرِ سبيل بواسطة الخيال. وفي هذا الموضوع، يتكلَّم الواعظُ الاسكُتلنديُّ الكبير ألكسَندر وايْت بشأن "وظائف الخيال المسيحيِّ الإلهيَّة وخدماته الجليلة".[١٨] فربَّما كان أفرادٌ أقلَّاء يختبرون الله من طريق التأمُّل المجرَّد وحدَه، ولكنَّ مُعظمَنا بحاجة لأنْ نكون أعمق تأصُّلًا في الأحاسيس. وعلينا ألَّا نحتقر هذا السبيل الأبسط، والأكثر اتِّضاعًا، إلى حضرة الله. فالربُّ يسوع نفسُه علَّم بهذه الطريقة، مُخاطِبًا الخيال مخاطبةً دائمة، وكثيرون من أساتذة التأمُّل التعبُّديِّ بالمثل يُشجِّعوننا على سلوك هذا السبيل. وقد قالت القدِّيسة تريزا الأَفيليَّة: "إذ لم أستطع أن أتأمَّل وأتفكَّر بواسطة فهمي، لجأتُ إلى تصوُّر السيِّد المسيح في داخلي".[١٩] وكثيرون منَّا يستطيعون أن يَتماهَوا مع كلماتها، لأنَّنا نحن أيضًا قد جرَّبنا مقاربةً عقليَّةً مجرَّدةً فوجدناها بالغة الغموض، وغير وثيقة الصلة جدًّا. وأكثرَ من ذلك بَعدُ أنَّ التخيُّل يُساعِدنا على إرساء أفكارنا وتركيز انتباهنا. وقد لاحظ فرنسيس دي سال أنَّنا "بواسطة التخيُّل نحصر ذهننا في السِّرِّ الذي نتأمَّلُه، حتَّى لا يَهيمَ مُتخبِّطًا في هذا الاتِّجاه وذاك، تمامًا كما نحبس العصفور في قفص، أو نربط الصَّقر بوِثاقِه كي يستقرَّ على أيدينا".[٢٠]

إنَّما اعترض بعضٌ على استخدام الخيال بدافع من كونه غير جدير بالثقة، ويمكن أيضًا أن يستخدمه الشرِّير. وهذا تخوُّفٌ في محلِّه، لأنَّ الخيال، كسائر مَلَكاتِنا، كان له دورٌ في السُّقوط. ولكنْ كما يمكننا أن نعتقد أنَّ الله يستطيع

أن يأخذ عقلنا (رُغم كونه ساقطًا) فيُقدِّسَه ويستخدمه لمقاصده الصالحة، هكذا نعتقد أنَّه يقدر أن يُقدِّس خيالنا ويستخدمه لمقاصده الصالحة أيضًا. طبعًا، يُمكن أن يُشوِّشَ الشيطان خيالنا، ولكنَّ ذلك يصحُّ أيضًا بالنِّسبة إلى جميع مَلَكاتنا. فإنَّ الله خلق في داخلنا خيالًا، وبصفته ربَّ خليقته فهو يستطيع أن يفتديَ خيالَنا- وهو يفتديه فعلًا- ويستخدمَهُ لأجل عمل ملكوت الله.

هذا، ويتمثَّل ارتيابٌ آخر من استخدام الخيال في التخوُّف من التلاعُب البشريّ، بل ومن خداع الذَّات أيضًا. وبَعد، فإنَّ لدى بعضٍ "خيالًا مُفرِط النشاط" كما نقول، وهم يستطيعون أن يخترعوا كلَّ نوعٍ من التصوُّرات لِما يَودُّون أن يَرَوه جاريًا. ثُمَّ ألا يُحذِّرُنا الكتاب المقدَّس من تصوُّرات الأشرار الباطلة (راجع رومية١: ٢١)؟ وهذا الارتيابُ مشروع. فمن الممكن ألَّا يكون هذا كلُّه سوى مَساعٍ بشريَّةٍ باطلة. لذلك كان مُهمًّا أهمِّيَّةً حيويَّةً أن ننطرح على الله باتِّكالٍ كُلِّيٍّ في هذه الأمور. فنحن نلتمس أن نُفكِّر أفكار الله على مِثاله، وأن نبتهج في حضرته، وأن نتوق إلى حقِّه وطريقه. وكلَّما تقدَّمنا في العيش على هذا النَّحو، تضاعف استخدامُ الله لخيالنا في سبيل مقاصده الصالحة. وبالحقيقة أنَّ الاختبار العامَّ الذي يشترك فيه أُولئك الذي يسيرون مع الله هو اختبارُ **إعطائهم** صُوَرًا لما يمكن أن يكون. فأنا أغلبَ الأحيان، عند الصلاة لأجل الآخرين، أُعطى صُورةً لحالتهم؛ وحين أُطلِعُهم على تلك "الصُّورة"، ينبعث منهم تأوُّهٌ داخليٌّ عميق، أو يبدأون بالبُكاء. وفي وقتٍ لاحقٍ يسألونني: "كيف عرفت؟" والحالُ أنَّني لم أعرف، بل رأيتُ ذلك فحسْب.

وأن نعتقد أنَّ الله يستطيع أن يُقدِّس الخيال ويستخدمه هو ببساطة أن نأخذ فكرة التجسُّد المسيحيَّة على مَحمل الجدّ. فإنَّ الله يُكيِّف نفسه ويدخل عالَمنا كما لو كان بَشَرًا بحيث يستخدم الصُّوَر التي نعرفُها ونفهمُها، كي يُعلِّمَنا عن العالم غير المنظور الذي لا نعرف عنه إلَّا معرفةً ضئيلة، كما أنَّنا نستصعبُ فهمَه جدًّا.

التأهُّب للتأمُّل

من المستحيل أن نتعلَّم كيف نتأمَّل من كتاب ما. فنحن نتعلَّم أن نتأمَّل بواسطة التأمُّل. ولكنَّ تعليماتٍ بسيطةً في حينها يمكن أن تُحدث فرقًا هائلًا. فالتلميحات العمليَّة وتمارين التأمُّل في الصفحات التالية مُقدَّمةٌ على أملِ أن تُساعِدَ في ممارسة التأمُّل فعليًّا. وهي ليست فرائض، ولا يُقصَد منها أن تحصرك.

هل من **وقتٍ** مُناسِب للتأمُّل؟ متى حصل تقدُّم حقيقيٌّ في الحياة الداخليَّة، يكون ممكنًا أن يُمارَس التأمُّل في أيِّ وقت وفي ظلِّ أيِّ ظرفٍ تقريبًا. ولنا في كِلا الأخِ لورنس من القرن السابع عشر وثوماس كَلِي من القرن العشرين أبلغُ شهادةٍ لهذه الحقيقة. ولكنْ إذ نقول هذا ينبغي أن نُدرك أهمِّيَّةَ أن يُخصِّص المبتدئون والخبراء على السواء جزءًا من كلِّ يومٍ للتأمُّل النِّظاميّ.

وما إن نقتنع بأنَّه ينبغي لنا أن نُفرِزَ أوقاتًا محدَّدة للتأمُّل، حتَّى يكونَ علينا أن نحترس من الفكرة القائلة إنَّ القيام بأفعالٍ دينيَّة معيَّنة في أوقاتٍ خاصَّة يعني أنَّنا في النهاية مُتأمِّلون. فهذا العمل يشمل الحياة كلَّها. إنَّه عملٌ نقوم به أربعًا وعشرين ساعةً في اليوم. والصلاة التأمُّليَّة هي نَمَطُ حياة. فالرسول بولس يحثُّنا أن "صلُّوا بلا انقطاع" (١تسالونيكي٥: ١٧). ويؤكِّد بطرس السَّلسيُّ بمسحةٍ من الظَّرف أنَّ "مَن يشخر في ليل الرذيلة لا يستطيع أن يعرف نور التأمُّل".[٢١]

لِذا ينبغي أن نغدو مُدرِكين كم يومُنا كُلُّه مُهِمٌّ في إعدادنا لأوقاتِ تأمُّلٍ محدَّدة. فإنْ كُنَّا كلَّ حين في حركةٍ مستمرَّةٍ حافلة بالنشاط المحموم، فلن نتمكن من أن نكون مُتنبِّهين في لحظة الصمت الداخليّ. والذِّهن المُرتبِك والمُشتَّت بالشؤون الخارجيَّة يكون بالكاد مُتأهِّبًا للتأمُّل. وغالبًا ما تكلَّم آباء الكنيسة بشأن ما دعَوه أُوتيوم سانكتُم، أي "وقت الفراغ المقدَّس". ويدلُّ التعبير على معنًى من الاتِّزانِ في الحياة، أو قُدرةٍ على أن نكون في سلامٍ عبرَ نشاطات يومنا، أو

قدرةٍ على الاستراحة وقضاء وقتٍ في التمتُّع بالجمال، أو قدرةٍ على أن نمشيَ الهُوَينا. وبمَيلنا إلى تعريف الناس بلُغةٍ ما يُنتجونه، نفعل حسنًا إذا تعهَّدنا "الفراغ المقدَّس". فإن كُنَّا نتوقَّع أن ننجح في الطريق التأمُّليّ، ينبغي لنا أن نَنشد "الفراغ المقدَّس" بتصميمٍ لا يرحم جداول أعمالنا.

ثُمَّ ماذا نقول بشأن مكانٍ مخصَّص للتأمُّل؟ سنتطرَّق إلى هذا الموضوع تحت عنوان "انضباط العُزلة"، ولذا نكتفي الآن بكلماتٍ قليلة تفي بالغرض. جِد مكانًا هادئًا تكونُ فيه بمنأًى عن المُقاطَعة. ولا يكُن بقربك هاتف. وإن تيسَّر لك مكانٌ يُطِلُّ على منظرٍ طبيعيٍّ جميل، كان أفضل. إنَّما الأفضلُ أن يكون لديك مكانٌ مُحدَّد، بدلًا من التفتيش عن موضعٍ مُختلف كلَّ يوم.

وما القول في **الوضعيَّة**؟ بمعنًى من المعاني، لا تُحدِث الوضعيَّةُ أيَّ فرقٍ على الإطلاق؛ ففي وسعك أن تُصلِّي في أيِّ مكان، وأيِّ زمان، وأيِّ وَضعٍ كان. ولكنْ بمعنًى آخر، تُضفَى على الوضعيَّة أهمِّيَّة قُصوى. فإنَّ الجسمَ والعقل والروح لا يُفصَل بعضُها عن بعض. والتوتُّر في الروح يُرسَل بَرقيًّا في لُغةِ الجسم. وقد شاهدتُ بالفعل أشخاصًا يحضرون خدمةَ عبادةٍ كاملَةً وهم يمضغون العِلكة مضغًا شديدًا دون أدنى وعيٍ لتوتُّرهم الداخليِّ العميق. فإنَّ الوضع الخارجيَّ لا يعكس فقط الحالة الداخليَّة، بل يمكن أيضًا أن يُسهِم في تعزيز موقف الصلاة الداخليّ. وإن كُنَّا داخليًّا مشحونين بالمشاغل والقَلَق، فإنَّ وضعيَّةَ سكونٍ واسترخاء نختارُها واعين لا بدَّ أن تنطويَ على مَيلٍ إلى تهدئة اضطرابنا الداخليّ.

إنَّما ليس من "فريضة" تُعطينا وصفة الوضعيَّة الصحيحة. فالكتاب المقدَّس يتضمَّن كلَّ وضعيَّة، من الانطراح انبطاحًا على الأرض إلى الوقوفِ والرأسُ واليدان مرفوعةٌ نحو السماء. وأعتقد أنَّ خيرَ مُقاربةٍ هي أن نجد وضعيَّةً تكونُ

الأكثرَ إراحةً والأقلَّ إلهاءً. وكان المُتصوِّف السعيد الذي عاش في القرن الرابع عشر، ريتشارد رُول، يُحبِّذ الجلوس، وقد علَّل ذلك بقوله: "تبيَّن لي أن الجلوس هو الوضع الذي يدوم أطول من المشي أو الوقوف أو الرُّكوع. ففي هذا الوضع أكون مستريحًا أكثر الكلّ، ويتَّجه قلبي إلى العلاء أكثرَ ما يمكن".[٢٢] وأنا أتَّفق معه في الرأي، وأرى أنَّ الأفضل هو أن أجلس على كرسيٍّ مستقيم، وظهري مُسنَد إلى ظهر الكُرسيِّ تمامًا، وكِلتا قدميَّ على الأرض. فالترهُّل دليلٌ على عدم الانتباه. ومُصالَبة الرجلين، أو وضع إحداهما فوق الأُخرى، تُعيق الدورة الدَّمويَّة. ولتُوضَع اليدان على الرُّكبتَين والكفَّان إلى الأعلى في إيماءةِ تقبُّل. ويحسنُ أحيانًا إغماضُ العينَين لتحاشي المُلهيات، وتركيز الانتباه على المسيح. ومن المفيد في أحيانٍ أُخرى أن تتفكَّر مليًّا في صورةٍ للربّ، أو تنظرَ خارجًا إلى بعض الأشجار والغُروس الجميلة للغاية نفسِها. وبصرف النظر عن كيفيَّة القيام بالأمر، فإنَّ الهدف هو أن نُركِّز انتباه الجسم والعواطف والعقل والروح على "مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كورنثوس٤: ٦).

أشكال التأمُّل

تحدَّث المؤمنون بالمسيح عبرَ القرون بشأن أنواعٍ شتَّى من طُرق الإصغاء إلى الله، والتواصُل مع خالق السماوات والأرض، واختبارِ مُحبِّ العالَم السرمديّ. وإذ نلتمسُ، على غرارهم، أن نتمتَّع بعلاقةٍ وثيقة بالله ونكونَ أُمَناء تُجاهَه، يمكن أن نجد عونًا كبيرًا جدًّا في الحكمة المُتراكِمة من جرَّاء اختبارهم.

في نظر أساتذة التأمُّل جميعًا، يُشكِّل التأمُّل في الأسفار المُقدَّسة النُّقطة المرجعيَّة المركزيَّة التي تُحفَظ بها جميع أشكال التأمُّل الأُخرى في منظورها الصَّحيح. وبينما تتركَّز دراسة الكلمة المقدَّسة على التفسير، يُركِّز تأمُّلُ

الأسفار المقدَّسة على تمثُّل النصّ ببُعدَيه الذاتيّ والشخصيّ، حيثُ تغدو الكلمة المكتوبة كلمةً حيَّة تُخاطِبُكَ شخصيًّا. ليس هذا وقتَ الدراسة التِّقنيَّة، ولا التَّحليل، ولا حتَّى جمع المادَّة التي تُريد مشاركةَ الآخرين فيها. فنَحِّ جانبًا كلَّ مَيلٍ إلى الغُرور، وبقلبٍ مُتَّضِع تَقَبَّل الكلمة موجَّهةً إليك أنت. وغالبًا ما أجِد الرُّكوع مناسبًا على الخصوص لهذا الوقت بالذَّات. وقد قال ديترتش بونهويفر: "مثلما لا تُحلِّل كلماتِ شخصٍ تحبُّه، بل تقبلُها كما قيلت لك، كذلك اقبلْ كلمة الوحي وتفكَّر بها في قلبك، كما فعلت مريم. ذلك كلُّ ما في الأمر. ذلك هو التأمُّل".[٢٣] وعندما أسَّس بونهويفر معهد اللاهوت في فِنكنوَلْد، كان كلُّ مَن فيه يُمارِس نصف ساعة يوميًّا من التأمُّل الصامت في الكلمة المقدَّسة.

ومن المهمِّ أن نُقاوِم تجربة المرور بسطحيَّةٍ على مقاطعَ كثيرةٍ من الكتاب المقدَّس. فإنَّ اندفاعنا المحموم يعكس حالتنا الداخليَّة، وحالتُنا الداخليَّة هي التي ينبغي أن تتغيَّر. وقد أوصى بونهويفر بقضاء أُسبوعٍ كامل في تأمُّل مقطعٍ واحد! لذا أقترحُ عليك أن تأخذ حادثةً بعينها، أو مَثَلًا بكامله، أو بضعَ آيات، أو حتَّى كلمةً واحدة، وتدعَها تتجذَّر فيك عميقًا. واسْعَ أن تعيش الاختبار، مُتذكِّرًا تشجيع إغناطيوس لُويولا بإشراك جميع حواسِّنا في العمليَّة. فاشتمَّ رائحة البحر. واسمع تلاطُم الأمواج على الشاطئ. وانظُر الجماهير. واشعُر بالشَّمسِ على رأسك، وبالجوع في معدتك. وتذوَّق مُلَوحة الهواء. والمس هدبَ ثوب الربّ. وفي هذا الشأن ينصحُنا ألكسندر وايْت قائلًا: "إنَّ الخيال المسيحيَّ حقًّا لا يَدَعُ نظرَهُ يزوغ أبدًا عن يسوع المسيح. فافتَح كتابَ العهد الجديد الخاصَّ بك، وصِرْ بمُخيِّلتكَ في تلك اللحظة واحدًا من تلاميذ المسيح في الموقع عينه، جاثيًا عند قدَميه".[٢٤]

افترِضْ أنَّنا نُريد أن نتأمَّل في تصريح المسيح المُذهِل: "سلامي

أُعطيكم" (يوحنَّا١٤: ٢٧). فليست مهمَّتنا أن ندرس المقطع بقدْرِ ما هي أن نترسَّخ في الحقيقة التي يتكلَّم المقطعُ بشأنها. وهكذا نُفكِّر مليًّا في حقيقة كونه يغمرنا الآن بسلامه. ومن ثَمَّ يتنبَّه العقل والقلب والروح إلى سلامه الفائض في داخلنا. ونحسُّ أنَّ كلَّ اضطرابات الخوف قد سُكِّنت واندحرت بفضل "القوَّة والمحبَّة والنُّصح" (٢تيموثاوس١: ٧). فبدلًا من تحليل السلام، ندخل إلى رحابه. إذ يكتنفُنا سلام السيِّد المسيح ويشملُنا ويغمُرنا. والأمر الرائع في اختبارٍ كهذا أنَّ الذَّات تُنسَى تمامًا. فلا يُقلقُنا بعدُ كيف نُضاعفُ تمتيع أنفُسنا بالسَّلام، لأنَّنا ننفتحُ لتدفُّق السلام داخلَ قلوبنا. ولا نعود نُفكِّر تفكيرًا شاقًّا في طُرقٍ للتصرُّف بمُقتضى السَّلام، لأنَّ أفعال السلام تنبع من الداخل تلقائيًّا.

فتذكَّر دائمًا أنَّنا نتفاعل مع القصَّة لا كمُشاهدين خاملين، بل كمُشاركين فاعلين. وتذكَّر أيضًا أنَّ المسيح حقًّا معنا كي يُعلِّمنا، ويشفيَنا، ويُسامحَنا. وقد أفصح ألكسندر وايْت قائلًا: "إذ يُمسَح خيالك بالزَّيت المُقدَّس، تفتح كتاب العهد الجديد ثانيةً. وإذا بك حينًا العشَّار، وحينًا آخر الابن الضالّ، وحينًا مريم المجدليَّة، وحينًا آخر بطرس في السقيفة...حتَّى يغدو العهد الجديد بكامله قصَّة سيرتك الذاتيَّة".[٢٥]

ويتمثَّل شكل آخر من أشكال التأمُّل في ما دعاه مُتصوِّفو القرون الوسطى "الاستجماع" وما دعاه الصاحبيُّون (الكْوَيكرز) أغلب الأحيان "الاستركاز". إنَّه وقتٌ لنصيرَ ساكنين، لندخُلَ رحاب الصَّمت المُنعِش، لِنَدعَ تشتُّت أذهاننا يتركَّز.

وفي ما يلي تمرينٌ وجيزٌ يُساعِدك على "الاستجماع"، ويُدعى ببساطة: "الكفَّان إلى الأسفل، الكفَّان إلى الأعلى". ابدأ موجِّهًا كفَّيك نحو الأسفل

كدلالة رمزيَّة على رغبتك في تسليم الله أيَّة هموم قد تكون لديك. ويمكنك أن تُصلِّي في قلبك: "يا ربّ، أُعطيك غضبي على فُلان. أُصرِّف خوفي من موعدي عند طبيب الأسنان قبلَ ظُهر اليوم. أُسلِّمُك قَلَقي لعدم حيازة مالٍ يكفي لسداد ما يستحقُّ عليَّ هذا الشَّهر. أُطلِقُ ارتباكي بمحاولة العثور على جليسة أطفال هذا المساء". فمهما كان الأمر الذي يشغل بالك أو يُقلقُك، فما عليك إلَّا أن تقول: "الكفَّان إلى الأسفل". أرخِ ذلك من يَدَيك. حتَّى إنَّك قد تشعر بإحساس إطلاقٍ ما في يَدَيك. وبعدَ بضع لحظاتٍ من الإخلاء والتسليم، حوِّل كفَّيك إلى الأعلى، كرمزٍ إلى رغبتك في التقبُّل من الربّ. ولعلَّك تُصلِّي سرًّا: "يا ربّ، أودُّ أن أتقبَّل حُبَّك الإلهيَّ لِفُلان، وسلامَكَ بشأن موعد طبيب الأسنان، وصبرك، وفرحك". فمهما كان ما تحتاج إليه، تقول: "الكفَّان إلى الأعلى". وبعد أن تَستركِز وتستقرّ، اقضِ اللحظات الباقية في صمتٍ تامّ. لا تطلب شيئًا، بل اترك الربَّ يتحادث معك ويؤكِّد لك محبَّته. وإن جاءتك انطباعاتٌ أو إرشادات، فلا بأس؛ وإن لم تجئ، فلا بأس.

هذا، ويتمثَّل شكلٌ ثالث من الصلاة التأمُّليَّة في تأمُّل خليقة الله. ليس هذا نوعًا من المُمارسات الصَّبيانيَّة لدى القائلين بوحدة الوجود (اعتبار الله والطبيعة شيئًا واحدًا)، بل فعلٌ توحيديٌّ (متعلِّق بالإيمان بالإله الواحد) فيه يُرينا خالقُ الكونِ العظيمُ شيئًا من مجده عبرَ خليقته. فإنَّ السماوات حقًّا تُعلن مجد الله والفَلَك يُخبر بعمل يديه (المزمور ١٩: ١). وتقترح إقْلين أندَرهِل أن "ابدأ بشكل التأمُّل الأوَّل ذاك الذي دعاه المُتصوِّفون القدامى أحيانًا **اكتشاف الله في مخلوقاته**".[٢٦]

إذًا، أولِ النظامَ المخلوقَ اهتمامك. انظُرِ الأشجار، انظُرها فعلًا. خُذ زهرةً ودع جمالها وتناسقها يترسَّخان في أعماق عقلك وقلبك. أصغِ إلى الطيور: إنَّها مُرسَلاتُ الله. راقبِ المخلوقات الصغيرة التي تزحف على الأرض. لا ريبَ

أنَّ هذه أفعالٌ وضيعة، ولكنَّ الله أحيانًا يُخاطِبُنا في العُمق بواسطة هذه الطُّرق البسيطة، إنْ سكَّنَّا نفوسَنا كي نسمع.

يبقى شكلٌ رابع من أشكال التأمُّل هو من بعض النواحي نقيضٌ تامٌّ لهذا الموصوف توًّا. إنَّه أن نتأمَّلَ في أحداث زماننا ونلتمسَ إدراكَ أهمِّيَّتها. فنحن مُلزَمون روحيًّا أن ننفذ إلى معنى الأحداث الداخليِّ، لا لنكتسبَ قوَّة، بل لنكتسبَ منظورًا نبويًّا. وقد كتب ثوماس مِرتُن أنَّ "الشخص الذي تأمَّل في آلام المسيح، ولكنْ لم يتأمَّل في معسكرات الإبادة النازيَّة، ما دخلَ بَعدُ دخولًا كاملًا عُمقَ اختبار المسيحيَّة في أيَّامنا".[٢٧]

وخيرُ طريقةٍ لإنجاز هذا الشَّكل من التأمُّل هي القيام به فيما الكتابُ المقدَّس بيَد، والجريدةُ بالأُخرى! إنَّما لا ينبغي أن تُسيطِر عليك الكليشيهاتُ السياسيَّة السخيفة والدِّعايةُ المُنحازة التي نُلَقَّنُها كلَّها اليوم. ففي الواقع أنَّ الصُّحفَ على العموم هي أكثرُ سطحيَّةً وهبوطًا من أن تكون كثيرة الفائدة. ونحن نُحسِن فعلًا إذا وضعنا أحداث زماننا أمام الله، وطلبنا إليه أن يؤتيَنا بصيرةً نبويَّة، عسى أن نُميِّز إلى أين تؤدِّي هذه الأحداث الجارية. ثُمَّ إنَّ علينا أن نطلُب إرشادًا بشأن أيِّ شيءٍ ينبغي لنا شخصيًّا أن نكون فاعليه لكي نكون نورًا وملحًا في عالَمِنا الفاسد والمُظلِم.

لا داعيَ لأنْ تخورَ عزيمتُك إذا كان تأمُّلك في البداية قليلَ المعنى عندك. فإنَّ في الحياة الروحيَّة تقدُّمًا، ومن الحكمة أن تكون لنا خبرةٌ ما بالقِمَم الصُّغرى قبل أن نُحاوِل تسلُّقَ جبل إفرست الخاصِّ بالنَّفس. إذًا، تمهَّل على نفسك. ثُمَّ إنَّك تتعلَّم انضباطًا لم تتلقَّ أيَّ تدريبٍ عليه. والحضارة الحديثة في معظمها لا تُشجِّع على اكتساب مهاراتٍ من هذا النَّوع. فإنَّك ستكون سائرًا بعكس التيَّار. ولكنْ تَشجَّع؛ إنَّ مهمَّتك بالغةُ القيمة والأهمِّيَّة!

هذا، وثمَّة أوجُهٌ أُخرى كثيرة من انضباط التأمُّل يمكن أن نستفيد من النظر فيها.* غيرَ أنَّ التأمُّل ليس فِعلًا مفردًا، ولا يُستطاع إتمامُهُ بالطريقة التي بها يُتِمُّ المرءُ صُنعَ كُرسيّ. إنَّه طريقةُ حياة. ولَسوف تكون كلَّ حين مُتعلِّمًا ومُتقدِّمًا ونامِيًا فيما تغوص في الأعماق الداخليَّة.

* ثمَّة موضوعان وثيقا الصِّلة بالتأمُّل سوف يُبحثان تحت عنوان "**انضباط العُزلة**": استعمالُ الصمت الخلاَّقُ، والمفهوم الذي توصَّل إليه القدِّيس يوحنَّا الصليبيُّ والذي دعاه على نحوٍ مُعبِّر "ليل النفس المُظلِم".

٣

انضباطُ الصلاة

أنا أساسُ تضرُّعِك. فأوَّلًا، مشيئتي هي أن يكون لك ذلك؛ فأجعلك ترغب فيه؛ ثُمَّ أجعلك أيضًا تلتمسه، فتلتمسه فعلًا. فكيف يُمكن إذًا ألَّا تنالَ ما تتضرَّع لأجله؟

جوليانا النُّرويخيَّة (Juliana of Norwich)

إنَّ الصلاة تقذف بنا إلى حدود الحياة الروحيَّة. وهي الأكثر أهمِّيَّةً بين الانضباطات الروحيَّة كلِّها لأنَّها تُدخلُنا في شركةٍ دائمة مع الآب. فالتأمُّل يقودنا إلى الحياة الداخليَّة، والصَّوم وسيلةٌ مُرافِقة، والدراسة تُغيِّر أذهاننا، ولكنَّ انضباط الصلاة هو الذي يُدخِلُنا النَّشاط الأعمق والأرفع بين أنشطة الروح الإنسانيَّة. ثُمَّ إنَّ الصلاة الأصيلة تبعث الحياة وتُغيِّرها. وقد كتب وليَم كاري: "الصَّلاة- الصلاة السرِّيَّة الحارَّة المقترنة بالإيمان- تكمن في أصل كلِّ تقوى شخصيَّة".[١]

أن نُصلِّيَ هو أن نتغيَّر. والصلاة هي السبيلُ الأساسيُّ الذي يستخدمه الله كي يُغيِّرنا. فإن كنَّا غير راغبين في التغيُّر، نهجرُ الصلاة بوصفها سِمَةً ملحوظة لحياتنا. وكُلَّما ازدَدنا اقترابًا من قلب الله، زاد إدراكنا لحاجتنا، وزاد توقُنا إلى التشبُّه بالسيِّد المسيح. فإنَّ وليَم بلايك يقول لنا إنَّ مهمَّتنا في الحياة هي أن نتعلَّم كيف نحمل "أشعَّة محبَّة الله". وما أكثر ما نصنع عباءاتِ مُراوَغة- أو ملاجئَ

واقيةً من الأشعَّة- كي نتجنَّب **مُحِبَّنا الأزليّ!** ولكنْ حين نُصلِّي، يكشف لنا الله بنعمته أفعالنا المُتَّصِفة بالمراوغة كشفًا بطيئًا وجليًّا، ويُحرِّرنا منها.

"تطلبون ولستم تأخذون، لأنَّكم تطلبون رديًّا لكي تُنفِقوا في لذَّاتكم" (يعقوب٤: ٣). فالطلب "على نحو صحيح" يقتضي تغييرًا في لذَّاتنا، أو أهوائنا. وفي الصلاة- الصلاة الأصيلة- نبدأ بتفكير أفكار الله اقتداءً به: فنرغب في ما يرغب فيه، ونحبُّ ما يحبّ، ونريد ما يريد. وتدريجيًّا، نُعلَّم أن نرى من وجهة نظره الإلهيَّة.

وجميع الذين ساروا مع الله نظروا إلى الصلاة على أنَّها شأنُ حياتهم الأهمُّ. فالكلمات الواردة في إنجيل مرقس: "وفي الصُّبح باكرًا جدًّا، قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يُصلِّي هناك"، تَبرُز شاهدًا لنمط حياة المسيح (مر١: ٣٥). واشتياقُ داود إلى الله جعله يُحطِّم سلاسل الراحة والاسترخاء: "إليك أُبكِّر" (مز٦٣: ١). ولما جُرِّب الرُّسل بأن يوظِّفوا طاقتهم في شؤون أُخرى مُهِمَّة وضروريَّة، عقدوا العزم على التفرُّغ دائمًا للصلاة وخدمة الكلمة (أعمال٦: ٤). وصرَّح مارتن لوثر مرَّةً قائلًا: "عندي شغلٌ كثير جدًّا بحيث يتعذَّر عليَّ القيام به دون قضاءِ ثلاث ساعات يوميًّا في الصلاة". وكان لديه شعارٌ روحيٌّ قائل: "مَن أحسن الصلاة فقد أحسن الدِّراسة".[2] وقال تشارلز وِسلي: "لا يفعل الله شيئًا إلَّا استجابةً للصلاة"[3]، وأسند قناعته هذه بتخصيص ساعتَين كلَّ يوم لهذه المُمارسة المقدَّسة. وكانَت الصلاة هي اللَّمحة الأبرز في ملامح حياة ديڤيد براينَرد. فإنَّ دفتر يوميَّاته تتخلَّله أخبارُ الصلاة والصوم والتأمُّل. ومما قاله: "أُحبُّ أن أختليَ وحدي في كوخي، حيث يُتاح لي قضاءُ وقت كثير في الصلاة". وأيضًا: "كرَّستُ هذا اليوم للصَّوم في الخفاء والصلاة إلى الله".[4]

فعند هؤلاء الرُّوَّاد الذين استكشفوا حدود الإيمان، لم تكنِ الصلاة عادةً يسيرة مُعلَّقة على هامش حياتهم؛ بل كانت هي حياتهم. لقد كانَتِ العملَ

الأكثر جدِّيَّةً في سنواتهم الأوفر إنتاجيَّة. وقد شهد وليَم پن عن جورج فوكس قائلًا: "فوقَ كلِّ شيء، برع في الصلاة. ولا بدَّ لي من القول إنَّ الإطار الأوفر هيبةً وحيويَّةً ووقارًا، بين كلِّ ما شعرتُ به أو عاينتُه يومًا، كان ذلك الإطار الذي يُحيط به عندما يُصلِّي".[٥] كما أنَّ أدونيرام جَدسون سعى أن ينسحب من العمل والرِّفقة سبعَ مرَّاتٍ في النهار لكي ينصرف إلى شأن الصلاة المقدَّس. وكان يبدأ ذلك عند الفجر، ثُمَّ يمضي فيه الساعةَ التاسعة، فالثانيةَ عشرة، فالثالثة، فالسادسة، فالتاسعة، وعند منتصف الليل يُخصِّص وقتًا للصلاة السرِّيَّة. وقد جعل جون هايْد، خادمُ الهند، الصلاةَ خصيصةً بارزةً من خصائص حياته حتَّى لُقِّب "هايْد المُصلِّي". فبالنسبة إلى هؤلاء، وإلى جميع الذين خاضوا بجُرأة غِمارَ الحياة الداخليَّة، كانتِ الصلاة كالتنفُّس.

غير أنَّ كثيرين منَّا تُحبطهم أمثلةٌ كهذه، بدل أن تَستنهِض هِمَمَهُم. فإنَّ "جبابرة الإيمان" هؤلاء يتخطَّون إلى مدًى بعيد جدًّا أيَّ شيءٍ اختبرناه، بحيثُ نُغرى بأن نيأس. ولكنْ بدلًا من جَلْدِ أنفُسنا من أجل تقصيرنا الجليّ، ينبغي أن نتذكَّر أنَّ الله يُلاقينا دائمًا حيثُ نحن، ويدفعُنا على مهلٍ إلى الأُمور الأعمق. فالمُهروِلون بين حينٍ وآخر لا يُشاركون فجأةً في الألعاب الأُوليمبيَّة، بل يُعِدُّون أنفُسَهم ويتدرَّبون مدَّةً من الزَّمن، وعلينا نحن أن نحذوَ حذوهم. وحين ننتهج تقدُّمًا تدريجيًّا كهذا، يمكننا أن نتوقَّع أنَّنا بعد سنةٍ من الآن سنُصلِّي بسلطانٍ أعظم ونجاحٍ روحيٍّ أوفر مما نحن عليه في الوقت الحاضر.

وفي مجهوداتنا لأجل الصلاة، يسهل أن ننهزم عند الانطلاقةِ تمامًا، لأنَّنا قد عُلِّمنا أنَّ كُلَّ شيءٍ في الكون مُفسَّرٌ وموضوعٌ فعلًا، ولذلك لا يمكن تغيير الأشياء. وإذا كان من غير الممكن أن تتغيَّر الأشياء، فلماذا نُصلِّي؟ لرُبَّما نشعر مثل هذا الشعور على نحوٍ كئيب، غير أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُعلِّم ذلك. فإنَّ مُصَلِّي الكتاب المقدَّس صلَّوا كما لو أنَّ صلواتهم تقدر أن تجعل موضوعًا ما-

وسوف تجعله بالفعل- مختلفًا. وقد أعلن الرسول بولس بسرور أنَّنا **نحن عاملون مع الله**، أي أنَّنا نُعاونُ الله في العمل لتحديد حصيلة الأحداث (١كو٣: ٩). فالرِّواقيَّة*، لا كلمة الله المقدَّسة، هي التي تقتضي عالَمًا مُقفَلًا.

وكثيرون ممَّن يشدِّدون على التَّسليم والإذعان لِما هي الأُمورُ عليه بوصفها "مشيئة الله" أقربُ فعلًا إلى أبيكتيتُس (أحد الفلاسفة الرِّواقيين) منهُم إلى المسيح. ولكنَّ موسى صلَّى بجسارةٍ لأنَّه آمن بأنَّ صلواته قادرةٌ على أن تُغيِّر الأُمور، حتَّى فِكرَ الله. فبالحقيقة أنَّ الكتاب المقدَّس يُشدِّد على انفتاحيَّة عالمنا تشديدًا قويًّا جدًّا، حتَّى إنَّه بصورةٍ تأنيسيَّة (أي نسب الصفات الإنسانيَّة إلى الله) يصعب وقعُها على مسامعنا الحديثة- يتحدَّث بشأن الله مُغيِّرًا فِكرَه كلَّ حين وفقًا لمحبَّته غير المُتغيِّرة (راجع خروج ٣٢: ١٤؛ يونان ٣: ١٠).

إنَّ هذا يُشكِّل تحريرًا أصيلًا للكثيرين منَّا، ولكنَّه يُلقي علينا أيضًا مسؤوليَّة هائلة: أنَّنا نعمل مع الله على تحديد المستقبل! فسوف تحدث أُمورٌ مُعيَّنة في التاريخ إن نحن صلَّينا على النحو الصحيح. وينبغي لنا أن نُغيِّر العالَم بالصَّلاة. فأيُّ حفزٍ إضافيٍّ يُعوِزُنا حتَّى نتعلَّم هذه الممارسةَ الإنسانيَّة الأَسمى؟

حقًّا إنَّ الصلاة موضوعٌ واسعٌ ومُتعدِّدُ الأوجه بحيثُ نُدرك في الحال استحالةَ حتَّى مجرَّدِ التطرُّق قليلًا إلى جميع نواحيها في فصلٍ واحد. وثمَّة جمهرةٌ من الأسئلة الفلسفيَّة المُهمَّة في هذا الصَّدَد: لماذا الصلاة ضروريَّة؟ كيف تعمل الصلاة عملَها؛ أي كيف يستطيع كائنٌ بشريٌّ محدود أن يدخل في حوارٍ مع خالق الكون اللامحدود؟ كيف يمكن لحقيقةٍ غير ماديَّة مثل الصلاة أن تؤثِّر في العالَم الماديّ؟ وأسئلة أُخرى كثيرة من هذا القَبيل. ثُمَّ هنالك أيضًا

* الرِّواقيَّة (Stoicism): مذهبٌ فلسفيٌّ لا يعتقد بفكرة إمكانيَّة إقامة علاقةٍ شخصيَّةٍ ما بين الله- الفكر الكونيّ على حدِّ تعبيرهم- والبشر. فالله عند الرِّواقيين لا يهتمُّ بشؤون البشر (الناشر).

أشكالُ الصلوات الكثيرةُ التي أمدَّت بمَدَدِها المؤمنين بالمسيح على مرِّ القُرون: من الصلاة الاستطراديَّة، إلى الصلاة الذهنيَّة، إلى الصلاة التركيزيَّة؛ ومن صلاة السَّكِينة، إلى صلاة التَّخلِّي والاستغناء، إلى صلاة الاسترشاد؛ وغيرُهنَّ كثير.

وقد كُتِبت كتُبٌ جيِّدةٌ حقًّا لا تكاد تُحصى في موضوع الصلاة، من أفضلها كتابُ أندرو موراي "مع المسيح في مدرسة الصلاة". فنفعل حسنًا إذا قرأنا كثيرًا واختبرنا عميقًا إن شئنا أن نعرف طُرق الصلاة. وبما أنَّ الحصر يُعزِّز الوضوح أغلَبَ الأحيان، فإنَّ هذا الفصل سيقتصر على الصلاة التشفعيَّة؛ أي تعلُّم الصلاة لأجل الآخرين بفعَّاليَّة. وأهلُ عصرنا، رجالًا ونساءً، يحتاجون أشدَّ الاحتياج إلى المساعدة التي يمكننا توفيرُها حتَّى إنَّ أفضل طاقاتنا ينبغي أن تُكرَّس لهذه المَهَمَّة المُهِمَّة.

تعلُّم الصلاة

إنَّ الصلاة الحقيقيَّة هي شيءٌ نتعلَّمه. فقد سأل التلاميذ السيِّد المسيح قائلين: "يا ربّ، علِّمنا أن نُصلِّي" (لوقا١١: ١). كانوا قد صلَّوا طِوال حياتهم، ولكنَّ شيئًا ما في نوعيَّة صلاة يسوع وكمِّيَّتها جَعَلَهم يرَونَ كم كان قليلًا ما عرفوه عن الصَّلاة. وإنْ كان لصلاتهم أن تُحدِث أيَّ فرق في المشهد البشريّ، فقد كانوا بحاجةٍ إلى تعلُّم بضعة أُمور في هذا المِضمار.

لقد كان اختبارًا مُحرِّرًا لي أن أُدرِكَ أنَّ الصلاة تشتمل على عمليَّة تعلُّم. إذ تحرَّرتُ كي أتساءل، وأختبر، بل كي أُخفِق أيضًا، لأنَّني عرفتُ أنَّني كنتُ أتعلَّم. وكانت قد مضت سنون وأنا أُصلِّي لأجل أُمورٍ كثيرة بحرارةٍ عظيمة، غير أنِّي لم أُحرِز إلَّا نجاحًا هامشيًّا. ولكنَّني إذ ذاك أدركتُ أنَّني ربَّما كنتُ قائمًا ببعض الأُمور على نحوٍ خاطئ، وفي وسعي أن أتعلَّم ما هو أفضل. فتناولتُ الأناجيل،

واقتطعتُ كلَّ إشارة إلى الصَّلاة، ثُمَّ ألصقتُ القُصاصاتِ على أوراق. ولما تيسَّر لي أن أقرأ تعليم الربِّ يسوع عنِ الصلاة في جلسةٍ واحدة، صُدِمتُ وصُعِقت. فإمَّا الأعذارُ والتعليلات المنطقيَّة التي تعلَّمتُها بشأن الصلاة غير المستجابة، وإمَّا كلماتُ السيِّد المسيح كانت خاطئة. ومن ثَمَّ عقدتُ العزم على تعلُّم الصلاة بحيث يتوافق اختباري مع كلمات السيِّد المسيح، بدل محاولتي أن أجعل كلماته تتوافق مع اختباري الضئيلِ الضَّحل.

لعلَّ السِّمة الأكثر إذهالاً في صلاة الربِّ يسوع أنَّه لما صلَّى لأجل الآخرين لم يختم صلواته قطُّ بالقول: "إن شاءت مشيئتُك". ولا فعل ذلك أيضًا الرُّسُل أو الأنبياءُ حين كانوا يُصَلُّون من أجل الآخرين. فمن الواضح أنَّهم كانوا يعرفون ما هي مشيئةُ الله قبل أن يُصلُّوا صلاةَ الإيمان. ذلك أنَّهم كانوا غائصين تمامًا في محيط الروح القدس، حتَّى إنَّهم إذا واجهوا وضعًا محدَّدًا كانوا يعرفون ماذا يفعلون. فقد كانت صلاتُهم بالغة اليقينيَّة بحيثُ اتَّخذتْ في الغالب صورة أمرٍ مباشر ذي سُلطان: "سِر"، "ابرأ"، "قِف". وقد تبيَّن لي أنَّه عند الصلاة لأجل الآخرين كان جليًّا أنَّه لا مكانَ للصلوات المقرونة بالقول "إن شاءت مشيئتُك"، تلك الصَّلوات غير الحاسمة، والمُتردِّدة ونصف الراجية.

ثمَّة بالطَّبع مكانٌ وزمان مُناسِبان لأن نُصلِّي "إن شاءت مشيئتُك". فأوَّلًا، في صلاة الاسترشاد يكون اشتياق قلوبنا الشديد إلى معرفة مشيئة الله: "ما مشيئتك يا ربّ؟" "ماذا يُرضيك؟" "أيُّ شيءٍ من شأنه أن يُسهم في امتداد ملكوتك على الأرض؟" وهذا هو نوع الصلاة الفاحصة الذي ينبغي أن يتخلَّل كاملَ اختبارِ حياتنا. ثُمَّ في صلاة التَّخلِّي والاستغناء نعكف على التخلِّي عن مشيئتنا الذاتيَّة حين تتضارب مع مشيئة الله وطريقه. فمن البديهيِّ أنَّ هدفنا هو أن نتعلَّم دائمًا أن نُفكِّر أفكار الله سيرًا على خُطاه، ولكنَّنا جميعًا نمرُّ في أوقاتٍ تعترض فيها رغباتُنا البشريَّة في السبيل. ففي أوقاتٍ كهذه يجب علينا أن نقتديَ

بسيِّدنا ومُعلِّمنا إذ صلَّى في البُستان: "ولكنْ لتكُن لا إرادتي، بل إرادتُك" (لوقا٢٢: ٤٢).

وفيما كنتُ أتعلَّم، فتَّشتُ عن أشخاص بدا أنَّهم اختبروا قوَّةً وفعاليَّةً في الصلاة تفوقان ما اختبرتُ أنا، وطلبتُ إليهم أن يُعلِّموني كلَّ ما يعرفونه. أضِف أنَّني التمستُ حكمة أرباب الصلاة الماضين وخِبرتَهم إذ أمَّنتُ وقرأتُ كلَّ كتابٍ جيِّد نالته يدي في الموضوع. وباشرتُ دراسة مُصَلِّي العهد القديم- موسى وإيليَّا وحنَّة ودانيال- باهتمام جديد.

وفي الوقت عينه، بدأتُ أُصلِّي لأجل الآخرين راجيًا حدوث تغيير لا بدَّ أن يحدث. وأنا شَكورٌ لأنَّني لم أنتظر حتَّى أصير كاملًا أو أحوزَ كلَّ شيءٍ مباشرةً قبل الصلاة لأجل الآخرين، وإلَّا فما كنتُ لأبدأ قطعًا. ويقول پي. تي. فورسايْث: "تُمثِّل الصلاة في الدِّين ما يُمثِّله البحثُ الأصليُّ في العِلم".[٦] فقد شعرتُ أنَّني مُنهمِك في "البحث الأصليِّ" في مدرسة الروح القدس. وكان ذلك الاختبار مُبهِجًا إلى حدٍّ يفوق الوصف. فكلُّ إخفاقٍ بادٍ أفضى إلى عمليَّة تعلُّم جديدة. وقد كان المسيح هو **مُعلِّمي** الحاليَّ بحيثُ باتت كلمته مُترسِّخةً بالتدريج في اختباري: "إن ثبتُّم فيَّ، وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تُريدون، فيكون لكم" (يو ١٥: ٧).

وأن نُدرِكَ أنَّ عمل الصلاة يشتمل على عمليَّة تعلُّم أمرٍ يُنقِذنا من أن نستبعد ذاك مُكابِرين باعتباره زائفًا أو غير حقيقيّ. فإذا أدَرْنا جهاز التلفاز عندنا ولم يعمل، لا نُصرِّح بأنَّه ليس في الهواء أو على السِّلك شيءٌ مثل التردُّدات الإلكترونيَّة، بل نفترض أنَّ هناك عطلًا ما، شيئًا يمكننا من أن نعثر عليه ونُصلِحَه. ثُمَّ نفحص القابسَ وزرَّ التشغيل والتيَّارَ حتَّى نكتشف ما يُعيق سَرَيان الطاقة الخفيَّة التي تنقل الصُّوَر. ونعرف هل وُجِدتِ المشكلة وحُلَّت إذ نرى اشتغالَ

الجهاز أو عَدَمَه. وهكذا هي حال الصَّلاة. ففي وسعنا أن نُحدِّد كونَنا نُصلِّي على نحوٍ صحيح إن حصلت الطلبات المرفوعة. وإن كان لا، نبحثُ عن "العائق"؛ فلعلَّنا نُصلِّي على وجهٍ خاطئ، أو لعلَّ في داخلنا شيئًا تدعو الحاجة إلى تغييره، أو ربَّما كانت هنالك مبادئ صلاةٍ جديدةٌ ينبغي أن نتعلَّمها، أو ربَّما كنَّا بحاجةٍ إلى الصَّبر والمواظبة. ولذلك نستمع، ونُجري التعديلات الضروريَّة، ثُمَّ نحاول من جديد. وفي وسعنا أن نعرف أنَّ صلواتنا تَلقى استجاباتِها بمثل اليقين الذي يمكننا به أن نعرف أنَّ جهاز التلفاز يعمل.

ومن أهمِّ النواحي الحاسمة في تعلُّم الصلاة من أجل الآخرين أن نتواصل مع الله بحيث يُتاح لحياته وقوَّته أن تتدفَّقا من خلالنا إلى الآخرين. فغالبًا ما نفترض أنَّنا على تواصُل، فيما لا نكون كذلك. فإنَّ عشراتِ الإشارات الراديويَّة والتلفزيونيَّة مثلًا عبرتْ غرفتكَ وأنت تقرأ هذه الكلمات، ولكنَّك أخفقتَ في التقاطها لأنَّك لم تكُن مُدَوزَنًا لتلقِّي التردُّدات المؤاتية. وغالبًا ما يُصلِّي الناس مرارًا وتكرارًا بكلِّ ما في الدُّنيا من إيمان، ولكنْ لا يحصل شيء. فبطبيعة الحال، لم يكونوا مُدَوزَنين لسماع الله. ونحن نُباشِر الصلاة لأجل الآخرين بأنْ نُهدِّئ أوَّلًا نشاطنا الجسديَّ ونُصغيَ إلى الرَّعد الصامت الصَّادر عن ربِّ الجنود. فمُؤالفة أنفُسنا لسماع الأنفاس الإلهيَّة عملٌ روحيّ، ولكنْ بغيرها تكون صلاتنا تكرارًا باطلًا (متَّى ٦: ٧). والإصغاء إلى الربِّ هو الأمر الأوَّل، والثاني والثالث، الضَّروريُّ للتشفُّع الناجح. وقد علَّق سورين كيركيغارد مرَّةً قائلًا: "صلَّى رجُل، وخُيِّل إليه أوَّل الأمر أنَّ الصلاة كلام. ولكنَّه بات صامتًا أكثر فأكثر، حتَّى أدرك آخِرَ الأمر أنَّ الصلاة إصغاء".[٧]

فالإصغاء إلى الله هو المقدِّمة الضَّروريَّة للتشفُّع. إذ إنَّ عمل التشفُّع، ويُدعى صلاةَ الإيمان أحيانًا، يفترض مُقدَّمًا أنَّ صلاة الاسترشاد تُصعَد إلى الآب على الدَّوام. فينبغي أن نسمع ونعرف ونُطيع مشيئة الله قبل أن نُصلِّي لأجلها في حياة

الآخرين. وصلاةُ الاسترشاد تسبق دائمًا صلاة الإيمان وتكتنفها.

فنقطة الانطلاق إذًا في تعلُّم الصلاة لأجل الآخرين هي الإصغاء لتلقِّي الإرشاد. وفي البداية، تقضي الحكمة بأن تضع جانبًا داء المفاصل عند عمَّتك سلوى بعدما قضيتَ عشرين سنةً مصلِّيًا من أجله. ففي الشؤون الصِّحِّيَّة، نميل دائمًا إلى الصلاة لأجل الحالات الصَّعبة أوَّلًا، كالسَّرطان المُميت أو التشمُّع الخَطِر. ولكنْ حين نُصغي، نتعلَّم أهمِّيَّة البدء بالأمراض الصُّغرى مثل الرَّشح وأوجاع الأُذن. فالنَّجاح في زوايا الحياة الصغيرة يُزوِّدنا بسُلطانٍ في الشؤون الكُبرى. وإن كنَّا هادئين، نتعلَّم ليس مَن هو الله فقط؛ بل أيضًا كيف تشتغل قوَّتُه.

نخشى أحيانًا ألَّا يكون لدينا إيمانٌ كافٍ كي نُصلِّيَ لأجل هذا الولد أو ذاك الزواج. فينبغي أن تُسَكِّن مخاوفنا؛ لأنَّ الكتاب المقدَّس يقول لنا إنَّ مُعجِزاتٍ عظيمةً يمكن حدوثُها بواسطة إيمانٍ بحجم بزرة خردل ضئيلة. وعادةً ما تكون الشجاعة الفعليَّة للذهاب والصلاة من أجل شخصٍ ما علامةً على وجود إيمانٍ كافٍ. فأغلب الأحيان، يكون احتياجُنا لا إلى إيمانٍ، بل إلى حنان. ويبدو أنَّ التعاطُف الأصيل بين المُصلِّي والمُصلَّى لأجله غالبًا ما يُحدث الفرق. فنحن نقرأ أنَّ يسوع "تحنَّن" على جموع الناس. وقد كان الحنان لمحةً جليَّةً من ملامح كلِّ شُفاءٍ مذكورٍ في كتاب العهد الجديد. فإنَّنا لا نُصلِّي لأجل الناس كما لو كانوا "أشياء"، بل باعتبارهم "أشخاصًا" نحبُّهم. وإذا كان لدينا حنانٌ واهتمامٌ بالآخرين صادران من عند الله، فإنَّ إيماننا سينمو ويتقوَّى فيما نُصلِّي. وبالحقيقة أنَّنا إنْ أحبَبْنا الناس حبًّا أصيلًا نتمنَّى أن يحوزوا أكثر جدًّا ممَّا يَسعُنا أن نُعطيَه، ولا بدَّ أن يدفعنا ذلك إلى الصلاة.

فشعورُ الحنانِ الداخليُّ واحدٌ من أوضح المؤشِّرات من عند الربِّ أنَّ هذا الأمر أو ذاك مشروعُ صلاة لك. وفي أوقات التأمُّل قد يتحرَّك القلبُ أحيانًا،

وينشأ حافزٌ على التشفُّع، يصحبه يقينٌ بصواب الأمر وفيضٌ للروح القدس. فهذه "النَّعَم" الداخليَّة هي التخويلُ الإلهيُّ لك كي تُصلِّي من أجل الشخص المَعنيِّ أوِ الوضع المخصوص. وإذا رافق الفكرةَ إحساسٌ بالهلع أوِ الفزع، فربَّما وجب عندئذٍ أن تُنحِّيَها جانبًا. وسوف يُرشِد الله شخصًا آخر إلى الصلاة لأجل الأمر.

تلالُ الصلاةِ السَّفحيَّةُ

لا ينبغي أن تجعل الصلاة بالغة التعقيد أبدًا. ونحن مُعرَّضون للقيام بذلك حالَما ندرك أنَّ الصلاة أمرٌ يجب أن نتعلَّمه. ومن السَّهل أيضًا أن نستسلم لهذه التجربة، لأنَّنا كلَّما جعلنا الصلاة أكثر تعقيدًا، ازداد اتِّكال الناس علينا كي يتعلَّموا كيف يقومون بها. غير أنَّ المسيح علَّمنا أن نتقدَّم كأولادٍ إلى أبيهم. وتَواصُل الأولاد مع أبيهم يتَّسِم بالانفتاح والصِّدق والاتِّكال. فالسبب الذي من أجله يستجيب الله الصلاة هو أنَّ أولاده يسألونه. ثُمَّ إنَّ بين الآباء والأولاد علاقةً وثيقة تتَّسِع للجِدِّيَّة والضَّحك كليهما. وقد لاحظ مايستر إكهارت أنَّ "النَّفس لا بدَّ أن تُبرِز حقيقة ذاتها إذا ضحك لها الله وضحكَت هي له".[٨]

لقد علَّمنا المسيح أن نُصلِّي لأجل الخبز اليوميّ. هل لاحظتَ مرَّةً أنَّ الأولاد يطلبون الغداء بثقة مطلقة بأنَّه سيُعطى لهم؟ فليس عليهم أن يُخبِّئوا سندويشات اليوم مخافةَ ألَّا يتوافر لهم شيءٌ مثلها غدًا. وما دام الأمر يعنيهم، يتوافر مَدَدٌ لا ينتهي من السندويشات. إنَّ الأولاد لا يَلقَون صعوبةً أو تعقيدًا في التحدُّث إلى آبائهم، ولا يشعرون بالارتباك إذا لفتوا انتباه آبائهم إلى أبسط حاجاتهم. وعلينا ألَّا نتردَّد في تقديم أبسط الطلبات بثقةٍ إلى الآب.

كذلك يُعلِّمنا الأولاد أيضًا قيمة التخيُّل. فكما هي الحال في التأمُّل، يُشكِّل الخيال أداةً فعَّالة في عمل الصلاة. وقد نكون مُتحفِّظين حيال الصلاة

بالخيال، شاعرين بأنَّ ذلك أدنى من مستوانا قليلًا. غير أنَّ الأولاد لا يملكون تحفُّظًا كهذا؛ ولا ملكت مثل هذا التحفُّظ القدِّيسة تريزا الآفيليَّة إذ قالت: "كان هذا أُسلوبي في الصلاة. فإذ عجزتُ عن صوغ الأفكار بفهمي، لجأتُ إلى تخيُّل المسيح في داخلي... وقد قمتُ بكثير من الأمور البسيطة على هذه الشاكلة... وأعتقد أنَّ نفسي كسبت كثيرًا جدًّا بهذه الطريقة، لأنَّني بدأتُ أُمارس الصلاة دون أن أعرف ما هي".[٩] وفي رواية "القديسة جاندارك" بقلم جورج برنارد شو، تُصرُّ جاندارك على أنَّها تسمع أصواتًا آتيةً من عند الله. ويقول لها الشُّكوكيُّون إنَّ تلك الأصوات صادرةٌ من خيالها. فتُجيبُ جاندارك بكلِّ ثبات: "أنا أعرف، فبتلك الطريقة يتكلَّم الله إليَّ".

وكثيرًا ما يفتح الخيالُ البابَ للإيمان. فإذا أرانا الله زواجًا منهارًا في حالة نجاح، أو شخصًا مريضًا في حالة صحَّة، يُساعدنا ذلك على الإيمان بأنَّ الحالة المُتوخَّاة ستصير واقعًا ملموسًا. والأولاد في الحال يفهمون هذه الأُمور ويتجاوبون مع الصلاة التي يُشارك فيها الخيال. فقد دُعيتُ مرَّةً إلى بيت كي أُصلِّي لأجل طفلة مريضة مرضًا خَطِرًا. وكان أخوها ذو السنين الأربع في الغرفة، فقلتُ له إنَّني بحاجة إلى مساعدته كي أُصلِّي من أجل أُخته الطِّفلة. فسرَّه الأمرُ جدًّا، كما سرَّني أيضًا، لأنِّي أعلم أنَّ الأولاد يستطيعون في الغالب أن يصلُّوا بفعَّاليَّة غير مُعتادة. وتسلَّق حتَّى جلس إلى جانبي على المقعد. فقلت: "لنلعبْ لعبةً صغيرة. بما أنَّنا نعرف أنَّ الرَّبَّ يسوع هو دائمًا معنا، فلنتخيَّلْ أنَّه جالسٌ على الكرسيِّ مُقابلَنا. وهو ينتظرنا صابرًا حتَّى نُركِّز انتباهنا عليه. فحين نراه، نبدأ نُفكِّر في محبَّته أكثر من شدَّة مرض جولي. وحين نفعل ذلك، يضع هو يدَيه فوق أيدينا. وسنُشاهد النُّور من يسوع يتدفَّق إلى داخل أُختك الصغيرة ويجعلها صحيحة. لنُشاهدْ قوَّة يسوع الشافية تُحارِب الجراثيم الرديئة حتَّى تذهبَ كلُّها. أتوافقني؟" وبجدِّيَّة، أومأ الصغير برأسه إيجابًا. فصلَّينا معًا بهذه الطريقة الطُّفوليَّة، ثُمَّ شكرنا

الربَّ على أنَّ ما صلَّينا لأجله سيحصل فعلًا. والآن، لستُ أدري تمامًا ما جرى، ولا كيف تمَّ ذلك، غير أنَّني أعلم حقًّا أنَّ جولي كانت قد صحَّت إلى التَّمام صباحَ اليوم التالي.

ولأقُلْ كلمةَ تنبيهٍ عند هذه النقطة. إنَّنا لا نُحاول أن نستحضر في خيالنا صورةً ليست صحيحة؛ ولا نحاول أن نستغلَّ الله قائلين له ما ينبغي أن يفعله. بل بالعكس تمامًا. إذ إنَّنا نسألُ الله أن يقول لنا ما نفعله. فالله هو أساس تشفُّعنا، على حدِّ تعبير جوليانا النُّرويخيَّة، ونحن مُتوكِّلون عليه كلِّيًّا. وينبغي أن تكون صلاتنا فعلَ انعكاسٍ لمبادرة الله السابقة في القلب. فالأفكار والصُّوَر والكلمات كلُّها لا تُجدي نفعًا إلَّا إذا نشأت من الروح القدس الذي- كما تعلم- يتشفَّع فينا "بأنَّات لا يُنطَق بها" (رومية ٨: ٢٦).

إنَّ الأولاد الذين يَلقَون صعوبات في غرفة الدِّراسة غالبًا ما يتجاوبون بسهولة مع الصلاة. وقد رأى واحدٌ من أصدقائي يُعلِّم الأولاد المُعوَّقين نفسيًّا أنَّ الله يريد منه أن يُصلِّي لأجلهم. طبعًا، لم يقُل للأولاد ما الذي يفعله، بالطبع، هو فعل ذلك فحسب. ولمَّا كان الطفل يزحف تحت مكتبه واتَّخذ وضعًا جنينيًّا، كان المعلِّم يأخذ الولد بين ذراعَيه ويُصلِّي بصمتٍ طالبًا إلى المسيح القائم من الموت أن يشفيَ الأذى ويُغضَ الذات داخل الصبيّ. ولكي لا يُربِكَ المعلِّم الولد، كان يمشي في أنحاء الغُرفة مُتابعًا القيام بواجباته المعهودة وهو يُصلِّي. وبعد حين كان الولد يسترخي ويعود سريعًا إلى مقعده. وكان من شأن صديقي بعضَ الأحيان أن يسأل الصبيَّ هل يتذكَّر الشعورَ المرافق للفوز في سباقٍ ما. فإن أجاب الولد بالإيجاب، شجَّعه على أن يتصوَّر نفسه مجتازًا خطَّ النهاية فيما أصدقاؤه يُحيُّونه ويحمِّسونه ويُبدون له المحبَّة. وبتلك الطريقة كان يُتاح للولد أن يتعاون في مشروع الصلاة ويُعزِّزَ أيضًا قبولَ الذاتِ الشخصيَّ لديه. (أليسَ من دواعي السُّخرية أن يكون الناس مَعنيِّين عنايةً شديدةً بموضوع الصلاة في المدارس ولكنْ

نادرًا ما ينتهزون الفُرصة للصلاة من أجل تلامذة المدارس بطريقة كهذه، الأمر الذي ليس من قانونٍ يمنعه؟) حتَّى إذا بلغت السنة الدراسيَّة نهايتها، كان جميع الأولاد- ما عدا اثنَين- قادرينَ على العودة إلى غرفة دراسيَّة عاديَّة. أهي صُدفة؟ ربَّما ولكنْ كما لاحظ رئيسُ الأساقفة وِليَم تمبل، تحدث الصُّدَف بطريقة أكثر تواتُرًا بكثير عندما نُصلِّي.

إنَّ الله يُريد للزِّيجات أن تكون مُعافاةً وسليمة ودائمة. ولعلَّك تعرف زيجات تُعاني بلايا شديدة وتحتاج إلى مساعدة. وربَّما كان الزوج يُقيم علاقةً غراميَّة بامرأةٍ أُخرى. فاسأل الله عن كون هذا واجبَ صلاةٍ لك. وإن كان كذلك، ففكِّر في أن تُصلِّي لأجل الزواج المَعنيِّ مرَّةً في اليوم طوال ثلاثين يومًا. تصوَّر الزوج يلتقي المرأة الأُخرى فيشعر بالخيبة والصَّدمة لكونه فكَّر أصلًا في أن يتورَّط معها. وراقِب فِكرة الشأن غير الشرعيِّ بحدِّ ذاتها تصير ممقوتةً لديه. وتصوَّره داخلًا بيت الزَّوجيَّة ليرى زوجته وقد غمره إحساسُ الحُبِّ من نحوها. وتخيَّلهما يتنزَّهان معًا ماشيَين ويُغرَمان أحدُهما بالآخر كحالهما قبل سنين مضت. وشاهِدهما يتمكَّنان على نحوٍ متزايد من التصارُح والتحادُث والاهتمام المتبادَل. واطلُب إلى الله أن يبني جدارًا حجريًّا سميكًا بين الزوج والمرأة الأُخرى. وأنشِئ للزوج والزوجة بيتًا، لا من حجارة وملاط (طين البناء)، بل من محبَّة واحترام ووئام، ثُمَّ املأهُ بسلام المسيح.

ثُمَّ إنَّ خادم الكنيسة وخدمات العبادة فيها بحاجة لأنْ تَغمُرَهما الصلاة. فبولس صلَّى لأجل قومه، وطلب من المؤمنين أن يُصلُّوا لأجله. وتشارلز سپرجُن عزا نجاحه إلى صلوات كنيسته. وفرانك لَوباخ قال لسامعيه: "إنَّني حسَّاس جدًّا، وأعرف إنْ كنتُم تُصلُّون لأجلي. وإنْ خذلني واحدٌ منكم، شعرتُ بذلك. فحين تكونون مُصلِّين لأجلي، أشعر بقوَّة استثنائيَّة. وعندما يُصلِّي كلُّ شخص في جماعةٍ ما بحرارة فيما الواعظُ يخدم الكلمة، تحدث معجزة".[١٠] فشجِّعْ خدمات

العبادة بصلواتك. وانظُرِ الربَّ في مقامٍ عالٍ ومرتفع مالئًا المَقدِس بحضوره البهيّ.

وفي وسعنا أن نُصلّي من أجل الانحرافات الجنسيَّة بيقينٍ أصيل بأنَّ تغييرًا حقيقيًّا ودائمًا يمكن أن يحصل. إنَّ الجنس يُشبِه النَهر: فهو بَرَكةٌ صالحةٌ ورائعة حين يُبقَى داخل قناته الصحيحة. والنَّهر الذي يفيض خارجَ ضِفافه أمرٌ خَطِرٌ جدًّا، كالميول الجنسيَّة المُنحرِفة. فما ضِفافُ الجنس التي خلقها الله؟ رجلٌ واحد مع امرأةٍ واحدة في زواجٍ يدوم طُولَ العمر. فعند الصلاة لأجل أشخاصٍ يُعانون مشاكل جنسيَّة، من المُبهِج أن نتصوَّر نهرًا فاض خارجَ ضفافه وندعوَ الربَّ كي يردَّه إلى داخل قناته الطبيعيَّة. كذلك أولادُك أيضًا يمكن أن يتغيَّروا من جرَّاء صلواتك. فَصَلِّ لأجلهم في النَّهار وهم في أشغالهم أو مدارسهم؛ وصلِّ لأجلهم في الليل وهم نائمون. ومن الأساليب المُبهِجة أن تدخل غرفة النوم وتضع يدَيك برفق على الولد النائم. ثُمَّ اطلب إلى المسيح أن يفيض من خلال يديك شافيًا كلَّ صدمة عاطفيَّة وشعورٍ بالأذى عاناهما صغيرُك ذلك النهار. واملأْ أبناءَك بسلام الربِّ وفرحِه.

وبصفتك كاهنًا للمسيح، يمكنك أن تؤدِّيَ خدمةً عجيبة بتطويق الأولاد بذراعَيك ومُباركتِهم. فالكتاب المقدَّس يذكر أنَّ والِدين أتَوا بأولادهم إلى يسوع، لا لكي يُلاعِبهَم ولا لكي يُعلِّمهم أيضًا، بل لكي يلمسهم ويباركهم (مرقس ١٠: ١٣-١٦). وقد أعطاك الربُّ يسوع القدرة على القيام بالأمر عينه. فطوبى للولد الذي يُباركه راشدون يعرفون كيف يُبارِكون!

أمَّا "الصلوات الخاطفة" فهي فكرة ممتازة بَلوَرَها فرانك لَوباخ في كُتبه العديدة عن الصلاة. وهو قصد أن يتعلَّم كيف يعيش بحيث إنَّ "**رؤية** أيِّ شخص تعني أن نُصلِّي، **وسماعَ** أيِّ شخص- كأولئك الصغار يتحدَّثون وذلك الصبيِّ باكيًا- قد يعني أن نُصلِّي!"[١١] فإنَّ رَفْع الصلوات المباشرة والخاطفة لأجل الناس ينطوي على بهجة غامرة، يمكن أن يُعطيَ نتائجَ لافتة. وقد جرَّبتُ ذلك، طالبًا بالسِّرِّ

لفرحِ الربِّ وإدراكٍ أعمق لحضوره أن يَنشأا داخلَ كلِّ شخصٍ أُقابِلُه. وفي بعض الأحيان لا يُبدي الناس أيَّة استجابة، إنَّما في أوقاتٍ أُخرى يلتفتون ويبتسمون كما لو كانوا يُخاطَبون. وفي حافلة أو طائرة، يمكننا أن ندعوَ الربَّ يسوع لأنْ يتمشَّى في الممشى، حيث يلمس الناس في أكتافهم قائلًا لكلٍّ منهم: "أنا أُحِبُّك. مسرَّتي العُظمى أن أغفر لك وأُغدِق عليك الخيرات. لديك صفاتٌ جميلة ما زالت بَراعِم، وأنا أُفتِّحُها إن قُلتَ لي نعم. ويَسُرُّني أن أسُودَ حياتك إن سمحتَ لي". وقد ارتأى فرانك لَوباخ أنَّه لو عمد آلافٌ منَّا إلى تجريب "الصلوات الخفيَّة" على كلِّ شخصٍ نُقابِلُه، وتشارَكْنا في النتائج، لتيسَّر لنا أن نتعلَّم الكثير بشأن الصلاة لأجل الآخرين. وفي وسعنا أن نُغيِّر جوَّ أُمَّة بكامله إذا داوم الآلافُ منَّا على خَلْع عباءة صلاة حول كلِّ شخصٍ ضمنَ دائرة علاقاتنا القُربى. "فإنَّ وَحَدات الصلاة، مثلَ نقاط الماء، إذا جُمِعَت تُشكِّل مُحيطًا يَستعصي على المقاومة".[١٢]

ويجب أن نتعلَّم الصلاة ضدَّ الشرّ. فالكُتَّاب القُدامى حثُّونا على خوض الحرب الروحيَّة ضدَّ "العالَم والجسد وإبليس". وعلَينا ألَّا ننسى أبدًا أنَّ عدوَّ نفوسنا يجول مثلَ أسدٍ زائرٍ ملتمسًا من يفترسه (١بطرس٥: ٨). فنحن في الصلاة نُحارِب الرِّياسات والسلاطين الشرِّيرة. وتدعونا الضَّرورة إلى رَفْع صلوات الحماية؛ مُحيطينَ أنفُسَنا بحياة المسيح، مُحتَمين بدم المسيح، قابلين خَتمَ صليب المسيح.

لا ينبغي أبدًا أن ننتظر حتَّى نشعرَ بمَيلٍ للصلاة قبل أن نصلِّيَ لأجل الآخرين. فالصَّلاة تشبه أيَّ عملٍ آخر؛ بالرُّغم من أنَّنا قد لا نشعرُ أحيانًا بمَيلٍ إلى العمل، فإنَّنا ما إنْ نعكفُ على العمل حينًا حتَّى ينشأ لدينا ميلٌ إلى العمل. وقد لا نشعرُ بمَيلٍ إلى عزف البيانو، ولكنْ ما إنْ نعزفُ قليلًا حتَّى ينشأ لدينا ميلٌ إلى العزف. بالطَّريقة عينها، تحتاج عضلات الصَّلاة لدينا إلى أن تُلَيَّنَ قليلًا، وما إن يبدأ تدفُّق دم التشفُّع حتَّى نشعرَ بمَيلٍ فعليٍّ إلى الصَّلاة.

ولا داعيَ لأن نخشى أن يستغرق هذا العمل قسطًا كبيرًا من وقتنا، فإنَّه "لا يستغرق وقتًا محدَّدًا، بل يشغل وقتنا كلَّه".[١٣] إذ ليس الأمر صلاةً فضلًا عن العمل، بل هو صلاةٌ بالتَّزامُن مع العمل. فنحن نستبق ونكتنف ونُتبِع عملنا كلَّه بالصَّلاة، حيث تغدو الصلاة والنشاط مُقترِنَين معًا بإحكام. وهذه شهادة ثوماس كِلي: "ثمَّة سبيلٌ إلى تنظيم حياتنا العقليَّة على أكثر من صعيد في وقتٍ واحد. فعلى صعيدٍ واحد، قد نكون مُفكِّرين ومناقشين، وناظرين وحاسبين، ومُلبِّين جميعَ مطاليب شؤوننا الخارجيَّة. ولكنْ في أعمق أعماقنا، وراءَ الكواليس، وعلى صعيدٍ أشمَل، قد نكون أيضًا عاكفين على الصلاة والتعبُّد، والترنيم والسجود، وتقبُّلٍ لطيف للأنفاس الإلهيَّة".[١٤]

أمامَنا كثيرٌ جدًّا نتعلَّمه، ومدًى بعيدٌ نمضي فيه. ولا شكَّ أنَّ أشواق قلوبنا قد لخَّصها رئيس الأساقفة تايْت إذ قال: "أُريد حياةَ صلاةٍ أعظم وأعمق وأصدق".[١٥]

٤

انضباطُ الصَّوم

عظَّم بعضُهم الصَّوم الدينيَّ فوق حدود الكتاب المقدَّس والمنطق، فيما نبذه آخرون نبذًا تامًّا.

جون وسلي (John Wesley)

في حضارةٍ حديثةٍ تناثرَت على تضاريسها مزاراتٌ لقناطر الذَّهب وتشكيلةٌ من معابد البيتزا، يبدو الصَّوم ما يزال على العموم سيِّئَ السُّمعة داخل الكنيسة وخارجها على مدى سنين طويلة. وتمثيلًا، لم أتمكَّن في سياق بحثي من العثور على كتابٍ واحدٍ في موضوع الصَّوم المسيحيِّ نُشِرَ ما بين العامَين ١٨٦١ و١٩٥٤، وهي مدَّةٌ تُناهز مئة سنة. ولئن نشأ في عهدٍ أقربَ اهتمامٌ مُتجدِّدٌ بالصوم، يبقى علينا أن نقطع أشواطًا بعيدة حتَّى نُعيدَ إلى هذا الموضوعِ التوازُنَ الذي يُوليهِ إيَّاهُ الكتابُ المقدَّس.

فبماذا نُعلِّل، يا تُرى، هذا الإهمالَ شبهَ التامِّ لموضوعٍ يتواتُر ذكرُه في الأسفار المقدَّسة وما زال المسيحيُّون على مرِّ القرون يمارسونه بحماسةٍ لافتة؟

وراءَ هذا سببان. أوَّلهُما أنَّ الصَّوم كسب سمعة سيِّئة من جرَّاء التَّمادي في الممارسات التقشُّفيَّة المُفرطة إبَّان القرون الوُسطى. فمع هبوط الحقيقة الداخليَّة

في الإيمان المسيحيّ، نشأ مَيلٌ متزايد إلى التشديد على الأمر الوحيد الباقي، أي الشَّكل الخارجيّ. ومتى تَوافرَ شكلٌ خالٍ من القوَّة الروحيَّة، يتولَّى الناموسُ زمام الأمر لأنَّه يصطحب شُعورًا بالأمان والقوَّة التعويضيَّة. من هنا أُخضِعَ الصَّوم لأقسى النُّظُم وجَرَت مُمارستُه بأقصى نوعٍ من إماتة الجسد وجَلد الذَّات. والحضارةُ الحديثة قاسيةٌ في ردَّة فعلها تُجاه إفراطاتٍ من هذا النَّوع وميَّالةٌ إلى الخلط بين الإماتة والصَّوم.

أمَّا الأمر الثاني فهو أنَّ الدعاوى الدائمة التي نُلقَّنُها اليوم تُقنِعُنا بأنَّنا إنْ لم نتناول ثلاث وجباتٍ كبيرة كلَّ يوم، وبضعَ وجباتٍ سريعة بينَها، نكون على حافَة الموت جوعًا. فهذا، مقترنًا بالاعتقاد السائد أنَّ إشباعَ كلِّ شهوةٍ بشريَّة فضيلةٌ مؤكدَّة، جعل الصَّوم يبدو أمرًا مهجورًا. حتَّى إنَّ أيَّ شخصٍ يحاول جادًّا أن يصوم تنهال عليه الاعتراضات. "أرى أنَّ الصَّوم مُضرٌّ بصحَّتك". "سيَسلبُك الصَّوم قوَّتك فلا تستطيع أن تقوم بعملك". "ألَن يُفسِدَ الصَّومُ خلايا الجسم السليمة؟" وهذا كلُّه بالطَّبع هُراءٌ بهُراء مؤسَّسٌ على أفكارٍ مُسبَّقة. فبينما يستطيع الجسمُ البشريُّ أن يعيش وقتًا قصيرًا فقط بلا هواءٍ أو ماء، يمكنه أن يقضيَ أيَّامًا عديدة قبل البدء بالموت جوعًا. وبغير الاضطرار إلى التسليم بالمزاعم المُضخَّمة لدى بعض الفئات، ليس من المبالغة أن نقول إنَّ الصَّوم، إذا تمَّ على الوجه الصحيح، قد يكون ذا آثارٍ مفيدة على صعيد الصِّحَّة البَدَنيَّة.

وفي الأسفار المقدَّسة كثيرٌ جدًّا ممَّا يُقال عنِ الصَّوم، حتَّى إنَّنا نُحسِن صُنعًا إذا نظرنا من جديدٍ في هذا الانضباط القديم. ولائحة الشخصيَّات الكتابيَّة البارزة في سياق الصِّيام الفعليِّ تشتمل على: موسى المُشتَرِع، داود المَلِك، إيليَّا النبيّ، أستير المَلِكة، دانيال الرائي، حنَّة النبيَّة، بولس الرسول، يسوع المسيح الابن المُتجسِّد. وكثيرون من كبار المؤمنين بالمسيح على مرِّ التاريخ الكَنَسيِّ صاموا وشهدوا لأهمِّيَّة الصَّوم، ومِنهم: مارتن لوثر، جون كالڤن، جون نُوكس، جون

وسلي، جوناثان إدواردز، ديڤيد برايزرد، تشارلز فني، القِسِّيس هسي الصينيّ.

طبعًا، ليس الصَّوم انضباطًا مسيحيًّا على وجه الحصر. فأديان العالم الكُبرى كلُّها تُراعي مَزِيَّتَه. وقد مارس زرادشت الصَّوم، كما مارسه كونفوشيوس، وأهلُ اليوغا في الهند. كذلك صام أفلاطون وسقراط وأرسطو كلُّهم. حتَّى أبُقراط، أبو الطبِّ الحديث، آمن بالصَّوم لا شكَّ أنَّ حقيقة كون هؤلاء الأشخاص جميعًا، داخلَ الأسفار المقدَّسة وخارجها، قد نظروا إلى الصَّوم نظرةَ إجلال، لا تؤكِّد بحدِّ ذاتها أنَّه صحيح، أو مُحبَّذ على الأقلّ، ولكنَّها لا بدَّ أن تجعلنا نتمهَّل طويلًا على نحوٍ يكفي لأن نكون مستعدِّين لإعادة النَّظر في الافتراضات الشَّعبيَّة السائدة اليوم بشأن ممارسة الصِّيام.

الصَّوم في الكتاب المقدَّس

يُقصَد بالصَّوم، في الأسفار المقدَّسة كلِّها، الامتناعُ عن الطَّعام لأغراض روحيَّة. وهو يتميَّز عن "الإضراب عن الطَّعام" بهدف كَسْب النُّفوذ السياسيِّ أو لَفْت الانتباه إلى قضيَّة خَيِّرة. كما أنَّه يختلف أيضًا عن الحِميَة الغذائيَّة التي تُشدِّد على الامتناع عن أطعمة مُعيَّنة لأغراضٍ صحِّيَّة، لا روحيَّة. وبسبب علمنة المجتمع الحديث، بات "الصَّوم" (إذا حصل في الأساس) ناتجًا في العادة من حافزٍ يتمثَّل إمَّا بالغرور وإمَّا بشهوة السُّلطة. لسنا نقول هُنا إنَّ مثل هذه الأشكال من "الصِّيام" خاطئةٌ بالضرورة، ولكنَّ غرضها يختلف عن الصَّوم الموصوف في الكلمة المقدَّسة.

إنَّ طريقة الصَّوم المألوفة في الكتاب المقدَّس تشتمل على الانقطاع عن كلِّ طعام، صُلبٍ أو سائل، إنَّما ليس عن الماء. ففي الأربعين يومًا التي صام المسيح فيها، نقرأ أنَّه لم يأكل شيئًا وأنَّه في أواخر صيامه "جاع" فجرَّبه الشَّيطان بأن

يأكل، ممَّا يؤشِّر إلى أنَّ الامتناع كان عنِ الطعام، ولكنْ ليس عنِ الماء (لو٤: ٢). ومن وجهة نظرٍ طبيعيَّة، هذا هو ما يتضمَّنه الصَّوم عادةً.

وأحيانًا يُوصَف ما يمكن أن نحسبه صيامًا جزئيًّا، أي يحصل انقطاعٌ محدود عنِ الطَّعام، دونَ امتناعٍ كلِّيّ. فمع أنَّ الصَّوم العاديَّ كان من عادة النبيِّ دانيال، على ما يبدو، فقد مرَّت عليه مُدَّةُ ثلاثة أسابيع وصفها بقوله: "لم آكُل طعامًا شهيًّا، ولم يدخل فمي لحمٌ ولا خمر، ولم أدَّهن، حتَّى تمَّت ثلاثة أسابيع" (دانيال ١٠: ٣). وهو لا يُطلِعُنا على سبب هذا الإقلاع عن ممارسة صيامه المعتادة. فرُبَّما حملَته مهامُّه الحكوميَّة على استبعادها.

وفي الكتاب المقدَّس أيضًا بضعةُ أمثلةٍ على ما دُعي "الصَّوم التامَّ"، أو الانقطاع عنِ الطعام والماء كليهما. ويبدو أنَّ هذا إجراءٌ استثنائيٌّ يَدفَع إليه وضعٌ طارئٌ مُوئس. فإذ علمَتْ أستير أنَّ الإبادة تنتظرها هي وشعبَها، أوصَت مُردَخاي أن "اذهبِ اجمع جميع اليهود... وصوموا من جهتي، ولا تأكلوا ولا تشربوا، ثلاثة أيَّام ليلًا ونهارًا؛ وأنا أيضًا وجواريَّ نصوم كذلك" (أستير٤: ١٦). وقد أمضى بولس ثلاثة أيَّام صائمًا صومًا تامًّا على أثر مقابلته للمسيح الحيّ (أعمال الرُّسل٩: ٩). وبما أنَّ الجسم البشريَّ لا يستطيع أن يبقى بلا ماء أكثر بكثير من ثلاثة أيَّام، فإنَّ موسى وإيليَّا كليهما صاما صيامًا تامًّا، لا بُدَّ أن يُعَدَّ فائقًا للطبيعة، دام أربعين يومًا (تثنية٩: ٩؛ ١مل١٩: ٨). فينبغي التنبيه إلى أنَّ الصوم التامَّ هو الاستثناء، ويجب ألَّا يلجَأ إليه إلَّا إذا تلقَّى المرءُ أمرًا جليًّا به من عند الله؛ وعندئذٍ يجب ألَّا يتعدَّى ثلاثة أيَّام فحسب.

مُعظمَ الأحيان، يكون الصَّوم شأنًا خاصًّا بين الفرد والله. غير أنَّ هنالك أوقاتَ أصوامٍ جمَاعيَّة أو عامَّة بين حينٍ وآخر. والصَّوم العامُّ السنويُّ الوحيد المطلوب في شريعة موسى كان في يوم الكفَّارة (لاويِّين٢٣: ٢٧). وكان ذلك في

الروزنامة اليهوديَّة هو اليومَ الذي فيه وجب أن يكون الشَّعب في حزنٍ وذُلٍّ إبَّانَ التكفير عن خطاياهم. (ثُمَّ أُضيفتْ تدريجيًّا أيَّامُ صومٍ أُخرى حتَّى بات يوجد اليومَ أكثرُ من عشرين!) كذلك أيضًا نوديَ بأصوامٍ في أوقات الخطر الطارئ على الصعيد الجماعيِّ أو القوميّ: "اضربوا بالبوق في صِهيَون؛ قدِّسوا صومًا؛ نادوا باعتكاف؛ اجمعوا الشعب" (يوئيل ٢: ١٥و ١٦). ولمَّا تعرَّضت مملكة يهوذا للغزو، دعا الملك يهوشافاط الأُمَّة إلى الصِّيام (٢أخبار ٢٠: ١-٤). واستجابةً لوَعظ يونان، صامَتْ مدينة نينوى بكاملها... حتَّى حيواناتُها أيضًا، رغمًا عنها بالطَّبع. وقبل رحلة الرجوع إلى أُورشليم، حثَّ عزرا المسبيِّين فصامُوا وصلَّوا لأجل السلامة في أثناء السَّفَر على الطريق الذي كان عُرضةً لهجمات اللُّصوص الكثيرين (عزرا ٨: ٢١-٢٣).

ومن الممكن أن يكون الصَّوم اختبارًا رائعًا وقويًّا، شرطَ وجود شعب مُستعَدٍّ ذي فكرٍ واحد في هذه الشؤون. كما أنَّ المشاكل الخطيرة في الكنائس والجماعات الأُخرى يمكن أن تُعالَج، كما يمكن إصلاح العلاقات، من طريق الصَّلاة والصَّوم الجَماعيَّين الموحَّدَين. وحين يفهم عددٌ كافٍ من الناس فهمًا صحيحًا ما ينطوي عليه الأمر، يمكن أن تكون الدَّعوات القوميَّة إلى الصَّلاة والصَّوم ذات نتائج خيِّرة. فإنَّ ملك بريطانيا دعا إلى يوم صلاة وصوم مُقترنَين بالتَّقوى والوقار بسبب خطرِ غزوٍ مُحتمَل من قِبَل الفرنسيِّين عام ١٧٥٦. وفي السادس من شباط (فبراير) كتب جون وسلي في دفتر يوميَّاته: "كان يوم الصَّوم يومًا مجيدًا قلَّما شهدت لندن نظيرَهُ منذ زمن الإصلاح. فقد غصَّت كلُّ كنيسةٍ في المدينة بالحُضور، وارْتَسم على كُلِّ وجه وقارٌ مهيب. يقينًا أنَّ الله يسمع الصلاة، وسوف يهبُنا بعدُ طولَ سلامة". وكتب وسلي أيضًا في حاشيةٍ سُفلى: "انقلبَ التذلُّل ابتهاجًا وطنيًّا لأنَّ الغزو الذي هدَّد به الفرنسيُّون قد اندفع ومُنع".[1]

وقد نشأ على مرِّ التاريخ أيضًا ما يمكن أن يُدعى أصوامًا دوريَّة. ففي زمن

زكريًّا كانت تُقام أربعةُ أصوام دوريَّة (زك ٨: ١٩). وواضحٌ أنَّ مُباهاة الفرِّيسيِّ في المَثَل الذي ضربه السيِّد المسيح انطوت على إشارة إلى ممارسة دارجةٍ يومذاك: "أصومُ مرَّتين في الأُسبوع" (لوقا١٨: ١٢)*. وقد أوصى "التعليم الرسوليُّ" بيومَي صومٍ في الأُسبوع: الأربعاء والجُمعة. وجُعِل الصَّوم الدَّوريُّ إلزاميًّا في مجمع أورلينز الثاني في القرن السادس. وسعى جون وسلي إلى إحياء التعليم الرسوليّ، فحثَّ الميثوديِّين على الصَّوم أيَّام الأربعاء والجمعة. وقد كانت حماستُه لهذا الموضوع شديدةً بالفعل، حتَّى إنَّه رفض أن يَرسُمَ أيَّ خادمٍ ميثوديٍّ لا يصوم في هذين اليومَين.

ولطالما كان للصَّوم الدَّوريِّ أو الأُسبوعيِّ تأثيرٌ بالغ جدًّا في حياة بعضهم حتَّى سعَوا إلى العثور على وصيَّة في الكتاب المقدَّس بشأنه كي يفرضوه على جميع المؤمنين بالمسيح. إلَّا أنَّ البحث عن ذلك عَبَثيّ، إذ ليس في الكتاب المقدَّس بالحقيقة أيَّةُ قوانين توصي بالصَّوم الدَّوريّ. ولكنَّ حُرِّيَتَنا في الإنجيل لا تعني الإباحة، بل تعني أنَّ الفُرصة مُتاحة. فبما أنَّه لا توجد قوانين تُلزمنا، فلنا ملءُ الحرِّيَّة بأن نصوم في أيِّ يوم. وقد عَنَت الحرِّيَّة للرسول بولس لُجوءَهُ إلى "أصوام مرارًا كثيرة" (٢كورونثوس١١: ٢٧). فينبغي دائمًا أن نُبقيَ في أذهاننا الوصيَّةَ الرسوليَّة: "لا تُصيِّروا الحرِّيَّة فرصة للجسد" (غل٥: ١٣).

وثمَّة "انضباطٌ" اكتسب اليوم شعبيَّة معيَّنة، ومع أنَّه وثيقُ الصِّلة بالصَّوم فإنَّه مختلفٌ عنه. وهو يُدعى "الأسهار"، وقد استخدمه الرسول بولس بالارتباط مع الأمور التي عاناها (٢كورنثوس٦: ٥؛ ١١: ٢٧). والمقصودُ به الامتناع عن النَّوم في سبيل العُكوف على الصلاة أو غيرها من الواجبات الروحيَّة. ولكنْ

* درج الفرِّيسيُّون على مُمارسةٍ مُتواترةٍ للصَّوم يومَي الاثنين والخميس لأنَّ هذين كانا يومَين يُقام فيهما السُّوق، ومِن ثَمَّ يتوافر جمهور أكبر لرؤية تقواهُم والإعجاب بها.

ليس من مؤشِّرٍ إلى أنَّ لهذا الأمر علاقةً جوهريَّة بالصَّوم، وإلَّا كُنَّا مُقتصِرين على أصوامٍ قصيرةٍ جدًّا في الواقع! فبينما أمكن أن تكون "الأسهار" ذات قيمة، وربَّما دعانا الله أحيانًا إلى عدم النَّوم لأغراضٍ محدَّدة، يجب أن نحترس من إعلاء شأن الأُمور التي ليس لها إلَّا سابقةٌ يسيرةٌ جدًّا في الكتاب المقدَّس، جاعلين إيَّاها واجباتٍ رئيسيَّة. وينبغي أن يبقى تحذير بولس ماثلًا أمامنا، لأنَّنا في أيِّ بحثٍ يخصُّ الانضباطات الروحيَّة سنكتشف أُمورًا كثيرة "لها حكايةُ حكمة، بعبادةٍ نافلة وتواضُعٍ وقهرِ الجسد" (كولوسِّي٢: ٢٣) ولكنَّها عديمة النَّفع في كبح الانغماس في الأهواء الجسديَّة.

هلِ الصَّومُ وصيَّة؟

من المسائل التي يُعنى بها كثيرون عنايةً يمكن فهمُها: هل يجعل الكتاب المقدَّس الصَّوم فرضًا إلزاميًّا على جميع المسيحيِّين؟ وقد جرت عدَّة محاولات للإجابة عن هذا السؤال، أدَّت إلى استنتاجاتٍ شتَّى. ومن الدِّفاعات الأكثر إحكامًا عن الجواب بالإيجاب ما وضعه في عام ١٥٨٠ ثوماس كارترايت في كتابٍ يُعَدُّ شِبهَ كلاسيكيٍّ في الموضوع عنوانُه "**المُمارسة المقدَّسة للصيام الصحيح**".

ومع أنَّ نصوصًا كثيرة في الكتاب المقدَّس تتطرَّق إلى هذا الموضوع، فإنَّ اثنيَن منها يبرزان بأهمِّيَّتهما. أوَّلهُما تعليم السيِّد المسيح المُذهِل عنِ الصَّوم في الموعظة على الجبل. وثَمَّة عنصران يمتَّان بصِلة وثيقة إلى المسألة التي ننظر فيها. فإنَّ تعليم السيِّد المسيح بشأن الصَّوم يأتي مُباشرةً في سِياق تعليمه بشأن العطاء والصَّلاة. وكأنَّما هنالك افتراضٌ يكاد أن يكون لاواعيًا أنَّ العطاء والصلاة والصَّوم هي كلُّها جزءٌ من حياة التقوى المسيحيَّة. فلا سبب يدعونا إلى استبعاد الصَّوم من تعليم المسيح أكثر من استبعاد العطاء أوِ الصلاة منه. وثاني عُنصر هو أنَّ المسيح

قال: "ومتى صمتم.." (متّى٦: ١٦). فيبدو أنَّه يَفترِض افتراضًا أنَّ الناس سيصومون، وهو يُقدِّم توجيهًا يخصُّ كيفيَّة القيام بالأمر على النحو الصحيح. وقد قال مارتن لوثر: "لم يكن قَصْدُ المسيح أن يرفض الصَّوم أو يزدري به، بل كان قصدُه أن يعيد الصَّوم إلى نصابه".[٢]

ولكنْ إذ نقول هذا، يجب أن ندرك أنَّ كلام المسيح هنا لا يُشكِّل وصيَّة. فهو إنَّما كان يُقدِّم توجيهًا بشأن الممارسة الصحيحة لعادةٍ كانت شائعة في ذلك الزمان. ولم يقُل كلمةً واحدة عن كونها عادةً صائبة وهل وجب أن تستمرّ. وعليه، فمع أنَّ المسيح لم يقُل: "إذا صُمتم"، ولا قال: "**عليكم** أن تصوموا"، فإنَّ كلمته تعني بكلِّ بساطة "عندما تصومون".

أما تصريح المسيح الحاسمُ الثاني بشأن الصَّوم فقد جاء ردًّا على سؤال طرحه تلاميذُ يوحنَّا المعمدان. فإذ حيَّرتْهم حقيقةُ كونهم مع الفريسيِّين يصومون، أما تلاميذ المسيح فلا، سألوه عنِ السبب. وكان جواب المسيح: "هل يستطيع بنو العُرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟ ولكنْ ستأتي أيَّامٌ حين يُرفَع العريس عنهم، فحينئذٍ يصومون" (متّى٩: ١٥). ولربَّما كانت هذه أهمَّ عبارة في العهد الجديد من حيث الإجابة عنِ السؤال: أينبغي للمسيحيِّين أن يصوموا اليوم أم لا؟

بمجيء الربِّ يسوع، بزغ يومٌ جديد. فإنَّ ملكوت الله قد حلَّ بين الناس بقوَّةٍ حاضرة. وقد كان العريس وسط التلاميذ؛ فكان ذلك زمانَ تعييد، لا زمان صيام. ولكنَّ زمانًا كان عتيدًا أن يأتيَ على تلاميذ المسيح فيه يصومون، وإن لم يكُن بناموسيَّة النظام القديم.

فالتفسير الطبيعيُّ أكثر من سواه للأيَّام التي فيها سيصوم تلاميذ المسيح هو عصر الكنيسة الراهن، خصوصًا في ضوء علاقتها الوثيقة بما قاله بعد ذلك مُباشرةً عن زِقاق الخمر الجديدة المتعلِّقة بملكوت الله (متّى٩: ١٦و١٧). ويُحاجُّ

آرثر وَلِس بأنَّ المسيح يُشير إلى عصر الكنيسة الحاليِّ، وليس فقط إلى مدَّة الأيَّام الثلاثة بين موته وقيامته. ثُمَّ يختمُ مُحاجَّته قائلًا: "نحنُ مُضطرُّون إذًا لأنْ نُحيلَ أيَّام غياب المسيح إلى مرحلة هذا الدَّهر، من وقت صعوده إلى الآب حتَّى رجوعه من السماء. وواضحٌ أنَّ رُسُلَه فهموا قوله هكذا، لأنَّنا لا نقرأ أنَّهم صاموا إلَّا بعد صعوده إلى الآب (أعمال١٣: ٢و٣). فعصْرُ الكنيسة هذا هو الذي أشار إليه سيِّدُنا إذ قال: "حينئذٍ يصومون. إنَّ ذلك الزمان هو الآن!"[٣]

وليس من سبيل إلى الإفلات من قوَّة كلام المسيح في هذا النصّ. فهو قد بيَّن بوضوح أنَّه توقَّع من تلاميذه أن يصوموا بعد رفعه عنهم. ولئن لم تُقَل الكلماتُ بصيغة الأمر، فذلك أُسلوبٌ دلاليٌّ فحسْب. إذ يتَّضح من هذا النصِّ أنَّ المسيح قدَّر انضباط الصَّوم تقديرًا رفيعًا كما توقَّع أيضًا من تلاميذه أن يعمدوا إليه.

ربَّما كان من الأفضل أن نتجنَّب لفظة "الوصيَّة" أو "الفريضة" لأنَّ المسيح لم يأمر بالصَّوم على وجه التَّحديد المباشر. ولكن من الواضح جليًّا أنَّه أقرَّ مواصلة العمل بمبدإٍ يفترض أنَّ أولاد ملكوت الله سيصومون. فبالنِّسبة إلى شخصٍ يتوق إلى شركةٍ أكثرَ وثاقةً مع الله، في النَّصَّين المذكورَين من أقوال المسيح ما يجذب إلى الصَّوم.

أين همُ اليوم أُولئك الذين يتجاوبون حالًا مع دعوة المسيح؟ أَصِرْنا مُعتادين "النِّعمة الرخيصة" كثيرًا حتَّى بِتْنا نَنْفر من دعوات المسيح الأكثر تَكلفةً إلى الطاعة؟ و"النعمة الرخيصة هي النِّعمة بمعزلٍ عنِ الصليب".[٤] لماذا بات عطاءُ المال، على سبيل المثل، يُعدُّ دون جدال عنصرًا من عناصر العبادة المسيحيَّة، فيما بقي الصَّوم عُرضةً للأخذ والردّ؟ يقينًا أنَّنا نجد في الكتاب المقدَّس بيِّناتٍ مؤيِّدةً للصَّوم تُعادِل- إن لم تَفُق- ما نجده بشأن العطاء. وربَّما كان الصَّوم في المجتمعات الميسورة ينطوي على تضحيةٍ أكبرَ بكثير من تلك التي ينطوي عليها عطاءُ المال.

غاية الصَّوم

من المُصَحِّي أن نُدرِك أنَّ أوَّل كلام قاله المسيح عنِ الصَّوم يتعلَّق بمسألة الدَّافع (متَّى٦: ١٦-١٨). فأنْ نستخدم الخيرات لأجل غاياتنا الخاصَّة أمرٌ يُشكِّل كلَّ حين علامةً على التديُّن الزائف. وما أسهل أن نأخذ شيئًا مثل الصَّوم ونحاول استخدامه لحَمْل الله على القيام بما نريده! ففي بعض الأحيان يحصل تشديدٌ كثير على بركات الصَّوم وفوائده، حتَّى نُغرى بأن نعتقد أنَّنا بقليلٍ من الصَّوم نستطيع أن نجعل العالَم، بلِ الله أيضًا، رهنَ إشارتنا.

إنَّما يجب أن يتركَّز الصَّوم دائمًا أبدًا على الله. يجب أن يكون صادرًا من عند الله ومُرتَّبًا من قِبَل الله. فينبغي أن نقتديَ بحَنَّة النبيَّة إذ كانت "عابدةً بأصوام" (لوقا٢: ٣٧). وكلُّ غايةٍ أُخرى يجب أن تكون ثانويَّةً بعد الله. فعلى غِرار الفريق الرَّسوليِّ في أنطاكية، ينبغي أنَّ المؤمنين "يصومون" وهم "يخدمون الربّ" في آنٍ معًا (أعمال الرسل١٣: ٢). وقد كتب تشارلز سبرجُن: "ما تزال أوقاتُ صومنا وصلاتنا في "الخيمة" أيَّامًا رفيعةً حقًّا؛ فما كان بابُ السماءُ يومًا أوسعَ منه يومذاك، ولا كانت قلوبُنا أقرب إلى المجد المركزيِّ منها آنذاك".[٥] لقد سأل الله الشعب في أيَّام زكريَّا: "لمَّا صمتم... فهل صُمتُم صومًا لي أنا؟" (زك٧: ٥). فإن لم يكُن صومنا لله، نكون قد أخفقنا. ذلك أنَّ المنافع الصِّحِّيَّة، والنجاح في الصلاة، ونوال القوَّة، والتبصُّرات الروحيَّة، كلُّها يجب ألَّا تحلَّ أبدًا محلَّ الله بصفته مركزَ صيامنا. وقد قال جون وسلي: "لِنقُم بالصَّوم أوَّلًا للربِّ وعيونُنا شاخصةٌ إليه وحده. وليكُن قصدنا هُنا هذا، وهذا فقط: أنْ نُمجِّد أبانا السماويّ".[٦] تلك هي الطريقة الوحيدة التي نُنقَذ بها من محبَّة البركة أكثر من المُبارِك.

وما إن تترسَّخ في قلوبنا جيِّدًا الغايةُ الجوهريَّة للصَّوم، حتَّى تكونَ لنا الحرِّيَّة كي نفهم أنَّ للصوم غاياتٍ ثانويَّةً أيضًا. فإنَّ الصَّوم، أكثر من أيِّ انضباط آخر،

يكشف الأشياء التي تسيطر علينا. وهذه فائدة جليلة لتلميذ المسيح الحقيقيِّ الذي يتوق أن يتحوَّل إلى صورة الربِّ يسوع عينها. فنحن نستر ما هو في داخلنا بالطَّعام وسائر الأشياء الأُخرى، ولكنْ في الصَّوم تطفو هذه الأشياء. وإذا كانَت الكبرياء تسيطر علينا، فستنكشف في الحال تقريبًا. فقد كتب داود: "أبكيتُ بصوم نفسي" (المزمور٦٩: ١٠). وكذلك الغضب والمرارة والغَيرة والخصام والخوف- إذا كانت في داخلنا- تنكشفُ في أثناء الصَّوم. ففي بادئ الأمر، نُعلِّل الأمر عقليًّا بأنَّنا غاضبون لأنَّنا جِياع؛ ثُمَّ ندرك أنَّنا غاضبون لأنَّ إحساس الجوع يستبدُّ بنا داخلَ كِياننا. ويمكننا أن نفرح بهذه المعرفة لأنَّنا نعلم أنَّ الشفاء مُتاحٌ لنا بقوَّة المسيح.

ويُذكِّرنا الصوم بأنَّنا نحيا "بكلِّ كلمةٍ تخرج من فم الله" (متَّى٤: ٤). فليس الطَّعام يُحيينا؛ بل اللهُ يُحيينا. إذ في المسيح "يقوم الكلّ" (كو١: ١٨). ولذلك، ففي اختبارات الصَّوم لا نكون ممتنعين عن الطَّعام بقدر ما نكون مُتناولين وليمةً من كلمة الله المقدَّسة. فالصِّيام إيلام! ولمَّا أتى التلاميذ إلى المسيح بطعام، مفترضين أنَّه يكاد يموت جوعًا، صرَّح قائلًا: "أنا لي طعامٌ لآكُل لستم تعرفونه أنتم... طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمِّم عمله" (يوحنَّا٤: ٣٢، ٣٤). لم تكُن هذه مجرَّد استعارةٍ بارعة، بل كانت تعبيرًا عن حقيقة أصيلة. فإنَّ المسيح كان بالحقيقة يتغذَّى ويعيش بكلمة الله. وذلك هو سبب نصيحته بشأن الصَّوم في الأصحاح السادس من إنجيل متَّى. حيث نُوصَى بألَّا نتصرَّف تصرُّفاتِ بؤس عندما نصوم لأنَّنا بالحقيقة لسنا بائسين. إنَّنا نتغذَّى بالله، ومَثَلُنا بني إسرائيل في البرِّيَّة، فكما أُعيلوا بالمنِّ المُعجزيِّ من السماء، نُعالُ بكلمة الله.

ويساعدنا الصَّوم في المُحافظة على التوازُن في الحياة. فما أسهل أن نَدَعَ الأُمور غير الجوهريَّة تحتلُّ الأولويَّة في حياتنا. وما أسرع ما نشتهي الأشياءَ التي لا نحتاج إليها حتَّى نغدوَ مُستعبَدين لها! لقد كتب بولس: "كلُّ الأشياء تحلُّ

لي، لكنْ لا يتسلَّط عليَّ شيء" (١كورنثوس٦: ١٢). فإنَّ رغباتنا وشهواتنا البشريَّة أشبه بأنهار تنزع إلى أن تفيض خارج ضِفافها؛ والصَّوم يساعدنا على إبقائها داخل قنواتها الصحيحة. ويقول بولس أيضًا: "أقمع جسدي وأستعبده" (١كورنثوس٩: ٢٧). كذلك كتب داود: "أذللتُ بالصَّوم نفسي" (المزمور٣٥:١٣). وليس هذا تقشُّفًا مُفرَطًا فيه؛ بل هو انضباط، والانضباط يُؤتي الحرِّيَّة. وفي القرن الرابع قال أسطيريوس إنَّ الصَّوم يضمن ألَّا تجعلَ المعدةُ الجسمَ يغلي كالقِدر لإعاقة النَّفس.[٧]

هذا، وقد كتب كثيرون عن فوائد الصَّوم العديدة الأُخرى، مثل مضاعفة الفعَّاليَّة في الصلاة التشفُّعيَّة، والإرشاد في القرارات، وزيادة التركيز، وإنقاذ المأسورين، والسلامة البدنيَّة، وتلقِّي الإعلانات، وما إلى ذلك. ففي هذه القضيَّة، كما في سائر القضايا، لنا أن نتوقَّع أن يُكافئَ الله أولئك الذين يطلبونه حقًّا.

مُمارسة الصَّوم

إنَّ الرِّجال والنساء المُعاصِرين جاهلون حتَّى أبعد مدًى للنواحي العمليَّة المتعلِّقة بالصَّوم. فالراغبون في الصِّيام ينبغي أن يتعرَّفوا بهذه المعلومات الأساسيَّة.

كالحال في الانضباطات كُلِّها، يجب أن يُراعى تدرُّجٌ ما. ومن الحكمة أن نتعلَّم المشي قبل أن نُجرِّب الرَّكض. فابدأ بصيام جزئيٍّ مُدَّتُه أربع وعشرون ساعة؛ وقد تبيَّن للكثيرين أنَّ الوقت الأفضل هو من الغداء إلى الغداء. هذا يعني ألَّا تتناول وجبتَين. ومن المُمتاز أن تشرب عصير الفاكهة الطازج أثناء الصِّيام. ثُمَّ جرِّب هذا مرَّةً في الأُسبوع، على مدى بضعة أسابيع. في أوَّل الأمر ستروقك جدًّا النواحي الطبيعيَّةُ في اختبارك، ولكنَّ أهمَّ شيءٍ تضبطه

هو موقف القلبِ الداخليُّ. فظاهرًا، ستكون قائمًا بواجبات يومك المعتادة، أمَّا داخلًا، فستكون عاكفًا على الصلاة والتعبُّد والترنُّم والسُّجود. وبطريقةٍ جديدة، دَعْ كلَّ مَهمَّة من مَهامِّك اليوميَّة تكون خدمةً مقدَّسةً للربّ. فمهما كانت واجباتك دنيويَّة، فهي ستكون في نظرك أفعالًا قُدسيَّة. ونَمِّ لديكَ "تقبُّلًا لطيفًا للأنفاس الإلهيَّة".[٨] ثُمَّ أفطِر بوجبة خفيفة قوامُها الفواكهة والخُضر الطازجة، ومقدارٌ واف من الابتهاج القلبيّ.

وبعد أُسبوعَين أو ثلاثة ستكون مُهيَّأً لتجريب صومٍ عاديٍّ يدوم أربعًا وعشرين ساعة. اشربِ الماء فقط، لكن استخدِمْ مقاديرَ سليمةً منه. ويرى كثيرون أنَّ الماء المُقطَّر هو الأفضل. وإنْ أزعجكَ طعم الماء، فأضف إليه ملعقة صغيرة من عصير الليمون. وقد تشعر بشيءٍ من نوبات الجوع أو الانزعاج قبل انتهاء الوقت. فليس ذلك هو الجوع الحقيقيّ؛ إذ قد تدرَّبتْ معدتُك بمرور السِّنين على إصدار إشارات الجوع مُدلَّلًا؛ والولدُ المُدلَّلُ لا يحتاج إلى إشباع، بل يحتاج إلى إخضاع. وقد قال مارتن لوثر: "إنَّ الجسد كان ميَّالًا إلى التذمُّر على نحوٍ رهيب".[٩] فعليك ألَّا تُذعِن لهذا "التذمُّر". إنَّما تجاهَلِ الإشارات، لا بل أيضًا قُل "لولدك المدلَّل" أن يهدأ، وفي وقتٍ وجيزٍ تنقطع نوباتُ الجوع. وإلَّا فارتشِفْ كأس ماءٍ أُخرى، فتكفيَ المعدة. فينبغي لك أن تكون سيِّدَ معدتك، لا عبدها. وإن سمحتِ الواجباتُ العائليَّة بالأمر، فخصِّص للتأمُّل والصلاةِ الوقت الذي تقضيه عادةً في تناوُل الطعام.

وما من داعٍ القول إنَّ عليك أن تعمل بنصيحة المسيح في الامتناع عن لفت الانتباه إلى ما أنتَ فاعلُه. فالأشخاص الوحيدون الذين ينبغي أن يعلموا أنَّك صائم هم أُولئك الذين لا بدَّ أن يعلموا. وإنْ لَفَتَّ الانتباه إلى صيامك، فإنَّ الناس سيُعجَبون بك، وستكون تلك مُكافأتَك- كما قال المسيح. غير أنَّك تصوم لأجل مكافآتٍ أعظم وأعمق. وفي ما يلي كلماتٌ كتبها شخصٌ عكف على

الصِّيام مرَّةً واحدة في الأُسبوع على مدى سنتَين. فلاحِظ التدرُّج من مظاهر الصَّوم السطحيَّة إلى المُكافآتِ الأعمق:

"١. شعرتُ بأنِّي أنجزتُ إنجازًا عظيمًا إذ بقيتُ يومًا كاملًا بلا طعام. وهنَّأتُ نفسي على حقيقة كوني قد وجدتُ الأمر سهلًا جدًّا.
٢. بدأتُ أُدرِك أنَّ ما سلف بالكاد كان غرضَ الصَّوم. وقد ساعدني على هذا أنِّي بدأتُ أشعر بالجوع.
٣. بدأتُ أربط صيام الطَّعام بأوجُهٍ أُخرى من حياتي حيث كنتُ أكثرَ إصرارًا... فلا داعيَ لأنْ أحظى بمقعدٍ في الحافلة حتَّى أكون راضيًا، ولا لأنْ أبترد في الصيف وأستدفئ في أيَّام البرد.
٤. تفكَّرتُ أكثرَ في آلام المسيح ومُعاناة الجِياع الذين لهم أطفال جائعون.
٥. بعد مرور ستَّة أشهر على مباشرتي انضباطَ الصَّوم، بدأتُ أُدرِك لماذا اقتُرِحَت مدَّةُ سنتَين. فالاختبار يتغيَّر على الطريق. إذ الجوع في أيَّام الصوم بات شديدًا، والإغراءُ بالأكل أقوى. وأوَّلَ مرَّةٍ بتُّ أستخدم يوم الصوم لأكتشف مشيئة الله لحياتي. وبدأتُ أُفكِّر في ما يعنيه **تسليمُ** الحياة.
٦. بتُّ أعلمُ الآن أنَّ الصوم والصلاة يجب أن يقترنا معًا بإحكام. فليس من طريقة أُخرى؛ وتلك الطريقةُ لم تُدمَجْ في حياتي بعدُ".[١٠]

ثُمَّ بعدَ أن تكون قد قمتَ ببضعة أصوام بمقدارٍ من النجاح الروحيّ، انتقِلْ إلى صيام مُدَّتُه ستٌّ وثلاثون ساعة، مُفوِّتًا ثلاث وجبات. حتَّى إذا أنجزتَ ذلك، يكون قد حان الوقتُ لالتماس إرشاد الربِّ: هل يُريدُ منك أن تمضيَ في صيام أطول؟ فما بين ثلاثةِ أيَّام وسبعة مدَّةٌ زمنيَّة جيِّدة، ويُرجَّح أن يكون لها تأثيرٌ جوهريٌّ في مجرى حياتك.

ومن الحكمة أن تعرف العمليَّة التي يجتازها جسمُك في سياق صومٍ أطول.

فالأيَّام الثلاثة الأُولى هي عادةً الأصعبُ بسبب الانزعاجِ الطبيعيِّ ونوبات الجوع. ذلك أنَّ الجسم يبدأ بالتخلُّص من السُّموم التي تراكمت على مرِّ السنين من جرَّاء عادات الطعام السيِّئة، وليست تلك عمليَّةً مُريحة. وهذا هو سبب الطبقة المتراكمة التي نراها على اللسان، والنَّفَس الكريه. فلا تُزعِجْكَ أعراضٌ من هذا النَّوع؛ بل بالأحرى كُن شكورًا من أجل الصِّحَة والسلامة المتزايدتَين اللتين ستُسفِرُ عنهما. وقد ينتابك صُداعٌ هذه المرَّة، ولاسيَّما إذا كنتَ تشربُ القهوة أو الشاي بنَهَم. فهذه أعراضُ انقطاعٍ يسيرةٌ لا بدَّ أن تزول، وإن كانت مُزعجةً جدًّا إلى حين.

حتَّى إذا حلَّ اليومُ الرابع، تبدأ نوبات الجوع بالهدوء، رُغمَ اختبارِكَ مشاعرَ ضعفٍ ودوخةً من حينٍ إلى آخر. أما الدَّوخة فهي وقتيَّةٌ فحسب، وناتجةٌ من التغيُّر المُفاجئ في الوضع. فتحرَّك بمزيدٍ من البُطء، ولَن تلقى صعوبة. وقد يبلغ الضَّعف حدًّا حيث تقضي أبسطُ الأعمال جهدًا كبيرًا. فالراحة خيرُ علاج. وكثيرون يجدون هذه المرحلة أصعبَ ما في الصِّيام.

وعند حلول اليوم السادس أو السابع، ستبدأ تشعر بأنَّك أقوى وأكثر وعيًا. ثُمَّ إنَّ أوجاع الجوع ستستمرُّ بالتناقُص، حتَّى تغدو في اليوم التاسع أو العاشر مجرَّد انزعاج بسيط. فإنَّ الجسم سيكون قد تخلَّص من مُعظم السُّموم، وستشعر بأنَّك أحسنُ حالًا. كما أنَّ إحساس التركيز لديك سيزداد حدَّةً، وسيُخيَّل إليك أنَّك قادرٌ على الاستمرار صائمًا إلى ما لا نهاية. وعلى الصعيد البَدَنيِّ، هذا هو جزءُ الصوم الذي يكون الأكثرَ إمتاعًا.

ثُمَّ في أيِّ وقتٍ بين واحدٍ وعشرين يومًا وأربعين، أو أطول، تبعًا لحالة الفرد، ستعود أوجاعُ الجوع. فهذه هي أوَّل مرحلة من مراحل الوهن، حيث تؤشِّر الأوجاع إلى أنَّ الجسم قد استهلك جميع مخزوناته وبدأ يستنفد الخلايا الحيَّة. عند هذا الحدِّ يجب الإقلاعُ عنِ الصَّوم.

أما كمِّيَّة الوزن الذي يُفقَد في أثناء صوم كهذا فتختلف كثيرًا بين فرد وآخر. فإنَّ فُقدانَ كيلوغرام واحد يوميًّا في البداية، ينقص حتَّى نصف كيلوغرام يوميًّا مع تقدُّم الصَّوم، أمرٌ سَويّ. وفي أثناء الصَّوم ستشعر بالبرد على نحوٍ أيسر لأنَّ أيْضَ الجِسم (أو استِقلابَه) لا يُنتِج كمِّيَّة الحرارة المُعتادة. فإن رُوعيَ الاعتناءُ بإبقاء الجسم دافئًا، لا تكون هذه صعوبة. وينبغي أن يتَّضح لدى الجميع أنَّ هنالك أشخاصًا لا ينبغي أن يصوموا لأسباب صحِّيَّة. مرضى السُّكَّري، الأُمهات الحوامل، مرضى القلب، وغيرهم. فإن كان لديك أيُّ تساؤل بشأن أهليَّتك للصَّوم، يحسن بك أن تلتمس مشورةً طبِّيَّة.

يُغرى بعضُهم، قبل مباشرةِ صوم مُتطاول، بأن يأكلوا كثيرًا في سبيل "التخزين". غير أنَّ هذا بعيدٌ عنِ الحكمة كلَّ البُعد. فبالحقيقة، أنَّ الوجبات الأخفَّ قليلًا من المُعتاد هي الفُضلى بالنسبة إلى اليوم السابق للصَّوم، أو ربَّما اليومَين. ومن الخير أيضًا أن تعمل بنصيحة الامتناع عنِ القهوة والشاي مدَّةَ ثلاثة أيَّام قبل مباشرتك صومًا أطول. فإذا كانت آخر وجبة في المعدة من الفاكهة والخضر الطازجة، فإنَّه لا ينبغي أن تُواجِه صعوبةً تتعلَّق بالإمساك.

وينبغي وَقْفُ الصيام المُتطاول بتناول عصير الفاكهة أو الخضر، على أن تؤخذ مقاديرُ صغيرة في البداية. فتذكَّرْ أنَّ المعدة قد تقلَّصت كثيرًا وأنَّ الجهاز الهضميَّ بكامله قد دخل في ما يُشبه السُّبات. حتَّى إذا حلَّ اليوم الثاني، وجب أن تكون قادرًا على أكل الفاكهة ثُمَّ تناوُل الحليب أو اللَّبن. وتاليًا يُمكنك أن تأكل السلطات الطازجة والخُضر المطبوخة. إنَّما تجنَّب كلَّ تَتبيلات السلطة الكثيفة والدُّهون والنَّشا. كما ينبغي الاحتراسُ جدًّا من الإفراط في الأكل. وحَسَنٌ في هذا الوقت أن تُعيد النَّظر في نظامك الغذائيِّ وعادات أكلك لترى هل ينبغي أن تكون في المستقبل أكثرَ انضباطًا وسيطرةً على شهيَّتك.

ولئن كانتِ النواحي الصحِّيَّة في الصَّوم تُثير اهتمامنا، فيجبُ ألَّا ننسى أنَّ العمل الرئيسيَّ للصوم حسب الكتاب المقدَّس هو عالَم الرُّوح. فإنَّ ما يجري على الصعيد الروحيِّ هو أهمُّ بكثير ممَّا يحصل على الصعيد الجسديّ. إذ لا بدَّ أن تخوض الحربَ الروحيَّة التي ستَضطرُّك إلى استعمال جميع الأسلحة المذكورة في أفسس ٦. ومن أحرجِ الأوقات روحيًّا تلك التي نواجهُها عندَ انتهاء الصَّوم، حين يكون لدينا مَيلٌ طبيعيٌّ إلى الاسترخاء. غير أنَّني لا أُريد أن أُخلِّف انطباعًا بأنَّ كلَّ صوم هو جهادٌ روحيٌّ شديد... فأنا لم أجِدْهُ هكذا. إذ إنَّه أيضًا "... برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس" (رو١٤: ١٧).

إنَّ في وسع الصَّوم أن يُحدِث اختراقاتٍ في العالَم الروحيِّ لن تحدث أبدًا بأيَّة طريقة أُخرى. إنَّه واسطةٌ من وسائط نعمة الله وبركاته لا ينبغي أن تُهمَلَ بعد. وممَّا قاله وسلي في هذا الشأن: "لم يكُن بضوء العقل وحدَه أنَّ شعب الله قد اهتدَوا، في جميع العصور، إلى استخدام الصَّوم واسطةً؛ بل إنَّهم قد تعلَّموه من الله نفسه، بإعلاناتٍ لمشيئةٍ واضحةٍ وصريحة. والآن، مهما كانتِ الأسباب التي أنهضت القُدامى كي يعملوا بهذه الممارسة الواجبة بكلِّ حماسة وحرارة وبصورةٍ دائمة، فإنَّها أسبابٌ ما تزال ذات قوَّة مُساوِية قادرة على إنهاضنا نحن".[١١]

فالآنَ أوانُ عَمَلِ جميع الذين يسمعون صوت المسيح بإرشاداته المُتعلِّقة بالصَّوم.

٥

انضباطُ الدِّراسة

مَن درسَ البشرَ وحدَهم، حصل على جسد المعرفة دون النفس. ومَن درس الكُتبَ وحدها حصل على النفس دون الجسد. أمَّا مَن أضاف إلى ما يراه المُلاحظة، وإلى ما يقرأُه التفكير، فهو على الطَّريق الصحيح إلى المعرفة، بشرط ألَّا يُهمِل قلبه وهو يتفحَّص قلوب الآخرين.

كالِب كُولتُن (Caleb Colton)

إنَّ غاية الانضباطات الروحيَّة هي التغيير الكُلِّيُّ للشَّخص. فهي تهدف إلى إحلالِ عاداتٍ جديدة مُحيِيَة محلَّ العادات القديمة الهدَّامة. ولا يُرى هذا الغرض بصورةٍ أجلى ممَّا يُرى في انضباط الدِّراسة. فالرسول بولس يقول لنا إنَّنا نتغيَّر عن شكلنا بتجديد أذهاننا (رومية ١٢: ٢). والذِّهنُ يتجدَّد بتعريضه لتلك الأشياء التي تُغيِّره. "أخيرًا أيُّها الإخوة، كلُّ ما حقّ، كلُّ ما هو جليل، كلُّ ما هو عادل، كلُّ ما هو طاهر، كلُّ ما هو مُسِرّ، كلُّ ما صيتُه حسن، إن كانت فضيلة، وإن كان مدح، ففي هذه **افتكروا**" (فيلبِّي٤: ٨). وانضباطُ الدراسة هو الأداة الأساسيَّة التي تؤدِّي بنا إلى **التفكُّر في هذه الأُمور**. مِن هُنا وجب أن نفرح لأنَّنا لسنا متروكين لوسائلنا الخاصَّة، بل أُعطينا هذه الواسطة من وسائط نعمة الله لتغيير روحنا الداخليَّة.

إنَّما يبقى كثيرون من المؤمنين بالمسيح أسرى للمخاوف والهموم المُقلِقة فقط لأنَّهم لا يستفيدون من انضباط الدراسة. فربَّما كانوا مواظِبين على حضور اجتماعات الكنيسة، ومجتهدين في إتمام واجباتهم الدينيَّة، ومع ذلك لا يتغيَّرون. ولستُ أتحدَّث هنا فقط بشأن الذين يتقيَّدون بالممارسات الدينيَّة الشكليَّة فحسْب، بل بشأن أُولئك الذين يلتمسون بأصالة أن يعبدوا ويطيعوا يسوع المسيح ربًّا وسيِّدًا ومُعلِّمًا. فقد يُرنِّمون ترنيمًا عذبًا، ويُصلُّون في الروح القُدس، ويعيشون طائعين على حدٍّ ما يَعلمون، بل أيضًا يتلقَّون رؤًى وإعلاناتٍ إلهيَّة، ومع ذلك يبقى مَسرى حياتهم بلا تغيير. أمَّا سببُ ذلك فأنَّهم لم يَضطلِعوا قطُّ بواحدةٍ من الوسائط الأساسيَّة التي يستخدمها الله لتغييرنا، ألا وهي الدِّراسة. وقد أوضح المسيح بغير لبسٍ ولا غموض أنَّ معرفة الحقِّ تُحرِّرنا: "تعرفون الحقّ، والحقُّ يُحرِّركم" (يو٨: ٣٢). فالمشاعر الطيِّبة لن تُحرِّرنا. واختبارات الانجذاب أو النَّشوة لن تُحرِّرنا. و"التحليق عاليًا في يسوع" لن يُحرِّرنا. إذ إنَّنا بغير معرفةِ الحقِّ لن نكون أحرارًا.

وهذا المبدأ صحيحٌ بالنسبة إلى كلِّ مَسعًى بشريّ. إنَّه صحيحٌ بالنِّسبة إلى البيولوجيا والرِّياضيَّات. وصحيحٌ بالنِّسبة إلى الزِّيجات والعلاقات الإنسانيَّة الأُخرى. غير أنَّه صحيحٌ على نحوٍ خاصٍّ في ما يتعلَّق بالحياة الروحيَّة. فكثيرون يتعرقلون ويرتبكون في المسيرة الروحيَّة بجهلٍ يسيرٍ للحقّ. وأسوأُ بعدُ أنَّ كثيرين قد أُوقِعوا في أسْر العبوديَّة الأقسى من خلال التعليم الفاسد. "تطوفون البحر والبرَّ لتكسبوا دخيلًا واحدًا، ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجهنَّم أكثر منكم مُضاعفًا" (متَّى٢٣: ١٥).

فلنعكفْ إذًا على تعلُّم مُقوِّمات انضباط الدِّراسة الروحيّ، وعلى تمييز أشراكه، وعلى ممارسته بفرح، وعلى اختبار التحرير الذي يأتي به.

ما المقصود بالدِّراسة؟

الدراسةُ اختبارٌ من نوع مُعيَّن يُمكِّن فيه الذِّهن، بواسطة التنبُّه الواعي إلى الحقيقة، من التحرُّك في اتِّجاهٍ معيَّن. ولنتذكَّر أنَّ الذِّهن لا بدَّ أن يتَّخذ دائمًا نظامًا موافقًا للنِّظام الذي يركِّز عليه. هَبْ أنَّنا نُلاحِظ شجرةً أو نقرأ كتابًا. فإنَّنا نرى ذلك ونتلمَّسُه ونفهمه، ونستخلص منه النتائج. وإذ نفعل هذا، تتَّخذ عمليَّاتنا الفكريَّة نظامًا يوافق النِّظام الذي في الشجرة أو الكتاب. حتَّى إذا فعلنا ذلك بتركيز وإدراك وتكرار، تتكوَّن عندنا عاداتٌ فكريَّة مُتأصِّلة.

لقد أوصى العهدُ القديم بني إسرائيل بكتابة وصايا الشريعة على الأبواب وقوائمها، وبربطِها على معاصمهم وجباههم لتكون نُصبَ عيونهم (تثنية ١١: ١٨). وكان الغَرَض من هذه التوجيهاتِ توجيهَ الأذهان تكرارًا وبانتظام نحو أنماطِ تفكيرٍ مُعيَّنة بشأن الله والعلاقات البشريَّة. ويُفترض أن يكون للمسبحة أو "دولاب الصلاة" الغَرَضُ عينُه. ولا شكَّ أنَّ العهد الجديد استبدل بالوصايا المكتوبة على قوائم الأبواب وصايا مكتوبةً على القلب، واقتادنا إلى الربِّ يسوع، مُعلِّمنا الداخليِّ الحاضر دائمًا أبدًا.

ينبغي أن نشدِّد مرَّةً أُخرى بعدُ على أنَّ عاداتِ الفكر المُتأصِّلة التي تتكوَّن فينا **لا بُدَّ** أن توافق نظامَ الشَّيء المدروس. **فما** ندرسه يُحدِّد نوع العادات التي تتكوَّن، الأمرُ الذي من أجله يحثُّنا الرسول بولس أن نُركِّز أذهاننا على كلِّ ما هو حقٌّ وجليل وعادل وطاهر ومُسِرٌّ وحسنُ الصِّيت.

ثُمَّ إنَّ العمليَّة الجارية في الدراسة ينبغي تفريقُها عنِ التأمُّل. فالتأمُّل تعبُّديّ؛ أمَّا الدراسة فتحليليَّة. والتأمُّل يستمتع بكلمة؛ فيما الدراسة تُعلِّلها وتُحلِّلها. ومع أنَّ التأمُّل والدِّراسة كثيرًا ما يتداخلان، فهُما يُشكِّلان اختبارَين مُتمايزَين. ذلك أنَّ الدراسة توفِّر إطارًا موضوعيًّا معيَّنًا يستطيع التأمُّل ضِمنَه أن يؤدِّيَ وظيفته بنجاح.

وفي الدراسة "كتابان" ينبغي أن يُدرسا: كتابٌ لفظيٌّ وآخرُ غير لفظيّ. فالكُتب والدروس إذًا تُشكِّل فقط نصف مَيدان الدِّراسة، وربَّما أقلّ. أمَّا عالَم الطبيعة، والأهمُّ ملاحظةُ الأحداث والأفعال، فينطلق في طليعة ميادين الدراسة غير اللفظيَّة. إنَّ مهمَّة الدراسة الأساسيَّةَ هي النظر بإدراكٍ في حقيقة وضعٍ مُحدَّد، أو مقابلة معيَّنة، أو كتابٍ ما..إلخ. فقد نجتاز أزمةً كُبرى مثلًا، دون أيِّ إدراكٍ لطبيعة الوضع المأساويِّ الحقيقيَّة. ولكنْ إذا لاحظنا بدقَّةٍ ما جرى وتفكَّرنا فيه، أمكننا أن نتعلَّم الكثير.

أربع خُطوات

تشتمل الدراسة على أربع خُطوات؛ أوَّلُها التكرار. ومن شأن التكرار عادةً أن يضع الذِّهن في قناة باتِّجاه محدَّد، مؤصِّلًا بذلك العاداتِ الفِكريَّة. ربَّما نبتسم باستعلاء حيال أُسلوب التعليم القديم المتمثِّل في التَّسميع، ولكنْ يجب أن ندرك أنَّ مجرَّد التكرار، ولو بغير فهم لِما يُكرَّر، يؤثِّر فعلًا في العقل الباطن. فمن الممكن أن تُشكَّل عاداتٌ فكريَّة مُتأصِّلة بالتكرار وحده، مغيِّرةً السلوك تاليًا. لهذا السبب تُشدِّد أشكالٌ عديدة جدًّا من الروحانيَّة على تعداد أعمال الله بانتظام. وهذا أيضًا هو الأساس المنطقيُّ الجوهريُّ وراء الضَّبط النفسيِّ، حيثُ يُدرَّب الفرد على تكرار توكيداتٍ معيَّنة بانتظام (مثلًا، أنا أُحبُّ نفسي حبًّا غير مشروط). حتَّى إنَّه ليس من المُهمِّ أن يُصدِّق الشخصُ ما يُكرِّره، بل أن يُكرِّره فحسب. وهكذا يُدرَّب العقل الباطن، وسوف يتجاوب أخيرًا بتكييف السلوك بحيث يتوافق مع التوكيد. ولئن كان هذا المبدأ بالطبع معروفًا على مدى قرون، فإنَّه لم يحظَ بالتأييد العلميِّ إلَّا منذ عهدٍ قريب.

لهذا تُعدُّ قضيَّة البرمجة التلفزيونيَّة بالغة الأهمِّيَّة. فإذ تُعرَض على الشاشة

كلَّ مساءٍ في وقت الذُّروة جرائمُ قتلٍ لا تُحصى، يدرِّب التكرار وحده العقل الباطن على الأنماط الفكريَّة الهدَّامة.

أمَّا الخطوة الثانية في الدراسة فهي التركيز. فإذا كان المرء، فضلًا عن صرف الذِّهن تكرارًا إلى موضوع البحث، يركِّز على ما هو قيد الدرس، فإنَّ التعلُّم يتضاعف بصورةٍ واسعة. ذلك أنَّ التركيز يُركِّز الذِّهن. إذ إنَّه يشدِّد الانتباهَ على الموضوع قيد الدراسة. وللذِّهن البشريِّ قدرةٌ على التركيز لا تُصدَّق. فهو يتلقَّى باستمرار آلاف المُنبِّهات، يُخزَن كلٌّ منها في مخازن ذاكرته، فيما يُركِّز هو على قليلٍ منها فقط. وقدرة الدِّماغ الطبيعيَّةُ هذه تتعزَّز عندما نُركِّز انتباهَنا، بوحدةِ غَرَضٍ، على موضوع دراسةٍ مرغوب.

يعيش الغربيُّون في حضارة لا تُقدِّر التركيز حقَّه. فالالتهاء هو نظامُ يومِنا. إذ إنَّ كثيرين مثلًا يمارسون جميع أنشطة النَّهار والمساء فيما الراديو شغَّال. وبعضٌ يقرأون كتابًا ويشاهدون التلفاز في الوقت عينه. ويجد معظم الناس قضاءَ يومٍ كامل مركِّزين على شيءٍ واحد أمرًا مستحيلًا بالفعل. وكم تتناقص فعَّاليَّتُنا حقًّا بسبب تبديد طاقاتنا على هذا النَّحو!

وحين لا يقتصر أمرُنا على توجيه الذِّهن تكرارًا في اتِّجاه معيَّن، مركِّزين انتباهَنا على الموضوع، بل نفهم أيضًا ما نحنُ بصدد دراسته، فإنَّنا نبلغُ مستوًى جديدًا. ومن ثَمَّ، فإنَّ الإدراك هو ثالثُ خُطوة في انضباط الدِّراسة.

إنَّ الربَّ يسوع، كما تذكُر، يُذكِّرنا أنَّ ما يحرِّرنا ليس هو مجرَّد الحقّ، بل **معرفةُ** الحقّ (يوحنَّا ٨: ٣٢). والإدراك يُركِّز على معرفة الحقّ. فجميعُنا مررنا باختبارِ قراءةِ شيءٍ ما مرارًا وتكرارًا، وإذ بنا بعد ذلك نفهم ما يعنيه حالًا. وهذا الاختبار الذي يُتيح لنا أن نهتف "وجدتُها!" لدى فَهْمنا المُفاجئ، يدفعُنا إلى مستوى نُموٍّ وحرِّيَّة جديد. إنَّه يؤدِّي إلى التبصُّر والتمييز، كما يوفِّر الأساس لإدراك الحقيقة إدراكًا صحيحًا.

إنَّما تدعو الحاجة إلى خُطوةٍ أُخرى بعد، ألا وهي التفكُّر. فمع أنَّ الإدراك يُعرِّف ما نحن دارِسوه، فإنَّ التفكُّر يعرِّف **أهمِّيَّة** ما نحن دارِسوه. وأن نتفكَّر ونتمعَّن في أحداثِ زماننا أمرٌ يُفضي بنا إلى الحقيقة الداخليَّة لتلك الأحداث. فالتفكُّر يُوصِلُنا إلى رؤية الأُمور من منظور الله. وفي التفكُّر يتأتَّى لنا أن نفهم لا موضوعَ بحثِنا فحسْب، بل أنفُسَنا أيضًا. وغالبًا ما تكلَّم المسيح بشأن آذانٍ لا تسمع وعيون لا تبصر. فعندما نتفكَّر في معنى ما ندرسه، نصيرُ نسمعُ ونُبصِر بطريقة جديدة.

ولا بدَّ أن يتَّضح سريعًا أنَّ الدراسة تقتضي تواضُعًا. فبالحقيقة أنَّ الدراسة لا يمكن أن تحصل قبل أن نغدوَ مستعدِّين لأنْ نخضع لموضوع البحث. فينبغي أن نخضع للنظام، كما ينبغي أن نأتي إلى الدراسة تلامذةً، لا أساتذة. ولا يقتصر الأمر على كون الدراسة متوقِّفةً مباشرةً على التواضع، بل هي أيضًا مُفضيةٌ إليه. فالغرور وروح التعلُّم كِلاهما يُقصي أحدُهما الآخر.

ونحن جميعًا نعرف أشخاصًا درسوا مُقرَّرًا ما، أو نالوا شهادةً أكاديميَّة، يعرضون معلوماتهم بطريقة استفزازيَّة. فلا بدَّ أن نشعر بالأسى الشديد حيال أشخاص كهؤلاء، لأنَّهم لا يفهمون انضباط الدراسة الروحيّ. وقد حسبوا المعرفةَ تكديسَ معلومات وهم في ذلك مُخطئون. وهم يُساوون بين التشدُّق بالكلام والحكمة. فيا لها من مأساة! غير أنَّ الرسول يوحنَّا يُعرِّف الحياة الأبديَّة بوصفِها معرفة الله. "وهذه هي الحياة الأبديَّة: أن يعرفوك أنت الإلهَ الحقيقيَّ وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلتَه" (يوحنَّا ١٧ : ٣). حتَّى لمحةٌ يسيرةٌ من هذه المعرفة الاختباريَّة تكفي لأن تُعطِيَنا إحساسَ اتِّضاعٍ عميقًا.

أمَا، وقد أرسَينا الأساس، ننتقلُ الآن إلى النظر في تطبيق انضباط الدراسة بصورة عمليَّة.

دراسة الكُتب

عندما ننظر إلى الدراسة بعين الاعتبار، فإنَّنا على نحوٍ أكثرَ طَبعيَّةً نُفكِّر في الكُتب أو غيرها من المكتوبات. ومع أنَّ الكتب هي فقط نِصفُ المَيدان، كما سبق أن ذكرتُ، فهي الأهمُّ بكلِّ بَدَهيَّةٍ وجلاء.

ولكنَّ المؤسِف أنَّ كثيرين، على ما يبدو، يحسبون أنَّ دراسة كتابٍ ما هي مهمَّة سهلة. ولا شكَّ أنَّ هذا الموقف الازدرائيَّ يُفسِّر عاداتِ القراءة السقيمةَ لدى الكثيرين. فإنَّ دراسة كتابٍ ما هي مسألة مُعقَّدة، ولا سيَّما بالنِّسبة إلى المُبتدئ. وكما هي الحال بالنِّسبة إلى التَّنِس أو الطباعة، فأوَّلَ ما نتعلَّم مهاراتٍ من هذا النَّوع يبدو أنَّها تشتمل على كثير جدًّا من التفاصيل الواجبِ إتقانُها، حتَّى إنَّنا نتساءل كيف سنتمكَّن من إبقاء كلِّ شيءٍ في أذهاننا في الوقت نفسه. ولكنْ ما إن نُحرِز البراعة حتى تصير الآليَّاتُ تلقائيَّة، ونغدو قادرين أن نُركِّز على لعبة التَّنِس التي نلعبُها أو على المادَّة التي نطبعُها.

والأمر عينُه يصحُّ بالنِّسبة إلى دراسة كتابٍ من الكُتب. فالدراسة فنٌّ مُجهِد يشتمل على مَتاهة من التفاصيل. والعَقَبة الرئيسيَّة هي إقناع الناس بأنَّ عليهم أن **يتعلَّموا** الدِّراسة. فمعظم الناس يفترضون أنَّهم يعرفون كيف يدرسون لأنَّهم يعرفون كيف يقرأون الكلمات. وهذا الإدراك المحدود لطبيعة الدراسة يُفسِّر السبب الذي من أجله يكسب الكثيرون من قراءة الكُتب فوائدَ ضئيلةً جدًّا.

عندما نقرأ كتابًا، تتحكَّم بدراستنا ثلاثُ قواعد جوهريَّة، وثلاثٌ ثانويَّة*.

* في وسعكَ أن تجد دراسة تفصيليَّة في ما يتعلَّق بهذا الموضوع في كتاب "كيف تقرأ كتابًا" (How to Read a Book) للمؤلِّف مورتايمر جي. أدلر (Mortimer J. Adler) من منشورات (New York: Simon & Schuster, 1940). إنِّي مدينٌ للمؤلِّف من أجل تبصُّراته التي أضافت الكثير لانضباط الدراسة.

وقد تستدعي القواعدُ الجوهريَّة في البداية ثلاثَ قراءات منفصلة، ولكن من المُمكِن عاجلًا أو آجلًا أن تتمَّ بالتزامُن.

أمَّا القراءة الأولى فتُعنى **بفهم** الكتاب: ماذا يقول المؤلِّف؟

أمَّا القراءة الثانية فتُعنى **بتفسير** الكتاب: ماذا يعني المؤلِّف؟

وأمَّا القراءة الثالثة فتُعنى **بتقييم** الكتاب: أَمُصيبٌ المؤلِّفُ أم مُخطئ؟ ويميل معظمُنا إلى إتمام القراءة الثالثة في الحال، فيما لا يُتمُّون القراءتَين الأُولى والثانية أغلبَ الأحيان. فنحنُ نُصدِر تحليلًا نقديًّا لكتاب ما قبل أن نفهم ما يقوله. ونحكم على كتاب ما بأنَّه صوابٌ أو خطأ قبل أن نُفسِّر معناه. وكما يقول الحكيم، كاتبُ سفر الجامعة، إنَّ لكلِّ شأنٍ تحت السَّماء وقتًا، فكذلك وقتُ التحليل النقديِّ لكتابٍ من الكُتب يأتي **بعد** فهمِه الصحيح وتفسيرِه الدقيق.

غير أنَّ قواعدَ الدراسة الجوهريَّةَ ليست بحدِّ ذاتها وافية. فَلِكي نقرأَ بنجاح، نحتاجُ إلى المُساعِدات الثانويَّة المُتمثِّلة في **الاختبار والكُتب الأُخرى والنقاش المباشر**.

أمَّا الاختبار فهو الطريقة الوحيدة لتمكيننا من تفسير ما نقرأُه ومن ثَمَّ ربطه بحياتنا. ذلك أنَّنا نقرأ كتابًا عن المَاسي بعينَين مختلفتَين حين نكون قد اجتزنا نحن أنفسُنا واديَ الظِّلّ. فالاختبار الذي فُهِم وتفكَّر المرء فيه يُغني دراستنا بالمعلومات وينوِّرها.

أمَّا الكُتب الأُخرى فيمكن أن تشتمل على القواميس والتفاسير وغيرها من المكتوبات التفسيريَّة. ولكنَّ الكُتب العظيمة التي تسبق الموضوع المدروس أو تُعزِّزه هي أهمُّ بكثير. وغالبًا ما يكون للكتب قيمةٌ فقط حين تُقرأ في ضوء صِلَتِها بغيرها من المكتوبات. فإنَّ الناس مثلًا لا بدَّ أن يستصعبوا كثيرًا فهمَ سِفرَي رومية والعبرانيِّين في العهد الجديد بغير أن يترسَّخوا في أسفار العهد القديم. ويكاد يكون من المستحيل أن يقرأ الأميركيُّ **الصحائف الفدراليَّة** دون أن يكون قد قرأ

أوَّلًا موادَّ الاتِّحاد ودستور الولايات المتَّحدة. ذلك أنَّ المكتوبات العظيمة التي تتناول قضايا الحياة الأساسيَّة تتفاعل بعضُها مع بعض؛ ولا يمكن أن يُقرأ بعضُها بمعزلٍ عن بعض.

وأمَّا النِّقاش المباشر فيُقصَد به التفاعُل المعهود الذي يحصل بين الكائنات البشريَّة في سياقِ متابعةِ مُقرَّرٍ دراسيٍّ معيَّن. وكثيرًا ما أقرأ أنا وطُلَّابي من أفلاطون أو أُغسطينوس فنُحرِز فقط استيعابًا جزئيًّا لمعنى ما قرأناه أو مغزاه. ولكن حين نجتمع للنِّقاش والتباحُث، والحوار السُّقراطيّ، تبرز تبصُّراتٌ ما كانت لتحصل لولا هذا التبادل. فإذ نتفاعل مع الكاتب، ونتفاعل بعضُنا مع بعض، تُولَد أفكارٌ خلَّاقة.

إنَّما الكتاب الأوَّل والأهمُّ الذي ينبغي لنا أن ندرسه هو الكتاب المقدَّس. فإنَّ كاتب المزامير يسأل: "بِمَ يُزكِّي الشابُّ طريقه؟" ثُمَّ يُجيب: "بحفظه إيَّاه حسب كلامكَ" ويُضيفُ أيضًا: "خبَّأتُ كلامك في قلبي لكيلا أُخطئ إليك" (مز١١٩: ٩، ١١). وربَّما قصد كاتب المزامير بقوله "كلامكَ" التَّوراة، إلَّا أنَّ المسيحيِّين على مرِّ القرون قد وجدوا أنَّ ذلك صحيحٌ أيضًا بالنِّسبة إلى دراستهم لجميع الأسفار المقدَّسة. "كلُّ الكتاب هو موحًى به من الله، ونافعٌ للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البرّ، لكي يكون إنسانُ الله كاملًا، متأهِّبًا لكلِّ عمل صالح" (٢تيموثاوس٣: ١٦و ١٧). ولاحِظ أنَّ الغاية المركزيَّة ليست نقاوة التعليم (وإن كانت مُتضمَّنةً بلا شكّ)، بل هي التغيير الداخليّ. فنحنُ نُقبِل إلى الكلمة المقدَّسة لكي نتغيَّر، لا لكي نُخزِّن المعلومات.

ولكنْ ينبغي أن نفهم أنَّ بين دراسة الكتاب المقدَّس وقراءة الكتاب التعبُّديَّة فرقًا شاسعًا. ففي دراسة الكتاب يُولَى التفسيرُ أهمِّيَّةً عُليا: ماذا يعني النصُّ الكتابيّ؟ وفي قراءة الكتاب التعبُّديَّة يُولى التطبيق أهمِّيَّةً عُليا: ماذا يعني

النصُّ النسبة إليَّ؟ وما أكثر ما يندفع الناس إلى مرحلة التطبيق ويتخطَّون مرحلة التفسير: إذ يُريدون أن يعرفوا ماذا يعني النصُّ بالنسبة إليهم قبل أن يعرفوا ما يعنيه في ذاته! ثُمَّ إنَّنا أيضًا لا نطلب الانتِشاءَ الروحيَّ في الدراسة؛ حيث يمكن بالحقيقة أن يكون الانتِشاءُ عائقًا. فحين ندرس واحدًا من أسفار الكتاب المقدَّس، نكون طالبين أن يُسيطر علينا قصدُ الكاتب. إذ نعقد العزمَ على أن نسمع ما يقوله، لا ما نُريد منه أن يقول. ونطلبُ الحقَّ المُغيِّر للحياة، لا مجرَّد المشاعر الطيِّبة. ونحن مستعدُّون لأنْ ندفع الثمن المُتمثِّل في يوم عقيم وسقيم بعد يوم آخرَ مثله إلى أن يتَّضح المعنى. وهذه العمليَّة تُحدِث تغييرًا أساسيًّا كاملًا في حياتنا.

لقد وجد الرسول بطرس في الرسائل التي كتبها "أخونا الحبيب بولس" أمورًا يصفها بأنَّها "عسرة الفهم" (٢بط٣: ١٥و ١٦). فإن كان بطرس قد وجدها كذلك، فلا بدَّ أن نجدها كذلك نحن أيضًا. وستدعونا الضَّرورة إلى الاهتمام بهذه الأشياء جِدِّيًّا. فالقراءة التعبُّديَّة اليوميَّة تستحقُّ الإطراء يقينًا، ولكنَّها ليست دراسة. وأيُّ شخصٍ يهمُّه أن يتلقَّى "كلمة صغيرة من عند الله لهذا اليوم" ليس مَعنيًّا بانضباط الدراسة.

إنَّ صفَّ مدرسة الأحد العاديَّ المُخصَّص للكبار سطحيٌّ وتعبُّديٌّ جدًّا بحيثُ لا يمكن أن يُساعِد على دراسة الكتاب المقدَّس. (هناك استثناءات، وبعض الكنائس تُقدِّم دروسًا جدِّيَّة في الكتاب). ولعلَّك تسكن في مكان قريب إلى معهدِ لاهوت أو جامعة، حيث تستطيع أن تحضر الدروس مستمعًا. فإن كانت هذه حالتك فهنيئًا لك، ولا سيَّما إذا وجدتَ أُستاذًا يُزوِّدك قُدوةً في الحياة، فضلًا عنِ المعلومات. ولكنْ إذا لم تكن هذه حالتك (بل حتَّى إذا كانت)، ففي وسعك أن تقوم ببضعة أُمور للبدء بدراسة الكتاب المقدَّس.

حصلتُ على بعضٍ من أنفع اختباراتي في الدراسة عبرَ إقامة خلوةٍ روحيَّة

خاصَّة مدَّتُها يومان أو ثلاثة. ولا شكَّ أنَّك ستعترض قائلًا إنَّك بالنظر إلى جدول أعمالك لا تستطيع إيجاد وقتٍ كهذا على الأرجح. فأودُّ أن تعلم أن تخصيص الوقت لذلك ليس أسهل عليَّ ممَّا هو لأيِّ شخصٍ آخر. إذ إنَّني أُكافِح وأُناضِل في سبيل كلِّ خلوة، مُثبِتًا إيَّاها في صُلب برنامجي قبل عدَّة أسابيع من موعدها. وقد اقترحتُ هذه الفكرة على عدَّة مجموعات، فتبيَّن لي أنَّ أصحاب المِهَن ذوي البرنامج الحافل، والعُمَّال ذوي البرنامج الصارم، وربَّات البيوت ذوات البرنامج المُثقَل، وسوى هؤلاء جميعًا، يستطيعون في الواقع أن يُوجِدوا الوقت لإقامة خلوة دراسة خاصَّة. واكتشفتُ أنَّ المشكلة الأصعب ليست إيجاد الوقت، بل إقناعُ نفسي أنَّ هذا الأمر مهمٌّ جدًّا بحيث أُخصِّص له وقتًا.

يُطلعنا الكتابُ المقدَّس على أنَّ بطرس، في أعقاب إقامة طابيثا العجيبة "مكث أيَّامًا كثيرة في يافا عند سمعان، رجُلٍ دبَّاغ" (أعمال الرسل ٩: ٤٣). وقد حدث في أثناء إقامة بطرس في يافا أنَّ الروح القدس بلَّغ بطرس (وإن كان بوسائلِ إيضاح مرئيَّة) الرسالةَ الخاصَّة بتحيُّزه الحضاريِّ والعِرقيّ. فماذا كان ممكنًا أن يحدث لو أنَّ بطرس، بدلًا من المكوث في يافا، انطلق حالًا في جولة خدمة كرازيَّة يتحدَّث فيها بشأن قيامة طابيثا؟ أليس محتملًا أنَّه ما كان ليتلقَّى من الروح القدس هذا التبصُّر المُزلزِل: "بالحقِّ أنا أجد أنَّ الله لا يقبل الوجوه، بل في كلِّ أُمَّة الذي يتَّقيه ويصنع البرَّ مقبولٌ عنده" (أعمال ١٠: ٣٤و٣٥)؟ لا أحدَ يعلم! إنَّما أعلَمُ هذا: أنَّ الله يريد أمكنةَ "مكوث" شتَّى لجميعنا، حيث يُتاح له أن يُعلِّمنا بطُرقٍ خاصَّة.

في نظر الكثيرين، يُشكِّل آخِرُ الأُسبوع وقتًا جيِّدًا لاختبار كهذا. ويستطيع آخرون أن يُرتِّبوا مقدارًا من الوقت في بحر الأُسبوع. وإذا تيسَّر يومٌ واحدٌ فقط، فغالبًا ما تكون عطلة نهاية الأسبوع وقتًا مُمتازًا.

ويكاد المكان الأفضل أن يكون أيَّ موضع، ما دام بعيدًا عن المنزل. فمُغادرة البيت أو الشقَّة لا تُحرِّرنا فقط من التلفون والمسؤوليَّات البيتيَّة، بل توجِّه أذهاننا أيضًا إلى موقف تعلُّم. والفنادق الصغيرة، أو الشاليهات، تؤدِّي الغرض حسنًا. أمَّا التَّخييم فأقلُّ تحبيذًا، بما أنَّ مهامَّ الحياة تشغلنا أكثر. كما أنَّ مُعظَم مراكز الرياضة الروحيَّة توفِّر خلوات خاصَّة؛ ولبعض الأديرَة خصوصًا تاريخٌ طويل في التشجيع على الخلوات الشخصيَّة وتوفير التسهيلات اللازمة.

ولمَّا كانت الخلوات الجَماعيَّة المُنظَّمة لا تأخذ الدراسة تقريبًا على مَحمل الجدّ، فرُبَّما تُضطرُّ إلى ترتيب خلوتك بنفسك. وبسبب وجودك وحيدًا، ستُضطرُّ إلى ضَبْط نفسك واستخدام وقتك بحرصٍ فعليّ. وإذا كنتَ حديثَ عهدٍ بالأمر، فسينبغي لك ألَّا تُبالغ فيه وتستهلك ذاتك. غير أنَّك، مع تقدُّمك في الخبرة، تستطيع أن تُخصِّص ما بين عشر ساعات واثنتَي عشرة ساعة للدراسة الجدِّيَّة في اليوم الواحد.

أمَّا لماذا ينبغي أن تدرس، فذلك يتوقَّف على ما تحتاج إليه. ورُغم عدم معرفتي لحاجاتك، فأنا أعلم أنَّ واحدةً من الحاجات الماسَّة بين المؤمنين بالمسيح اليوم هي إلى مجرَّد قراءة أجزاء كبيرة من كلمة الله. فإنَّ قسمًا كبيرًا من قراءتنا للكتاب المقدَّس مُتفرِّق ومُتقطِّع. وقد عرفت طُلَّابًا درسوا مُقرَّرات خاصَّةً بالكتاب المقدَّس، ورغم ذلك فإنَّهم لم يقرأوا قطُّ- مجرَّد قراءة- السِّفر المدروس كَكُلّ. ففكِّر في أَخْذ سفر كبير من الكتاب، كالتكوين أو إرميا، واقرأه كلَّه باطِّراد، ملاحظًا تركيبَ السِّفر وحركته. ولاحظ أيضًا المواضع الصَّعبة، ثُمَّ عُد إليها لاحقًا. ودوِّن الأفكار والانطباعات. ومن الحكمة أحيانًا أن تقرن دراسة الكتاب المقدَّس بدراسة واحد من الآثار التعبُّديَّة الكلاسيكيَّة. إنَّ اختباراتِ خلوةٍ من هذا النَّوع يمكن أن تُغيِّر حياتك حقًّا.

وتتمثَّل مُقاربةٌ أُخرى لدراسة الكتاب المقدَّس بأن تأخذ سفرًا أصغر، كرسالة أفسس أو يوحنَّا الأولى مثلًا، وتقرأه كلَّه يوميًّا مُدَّةَ شهر. فمن شأن هذا، أكثر من أيِّ جهد آخر، أن يُدخِل بنية السِّفر في ذهنك. إنَّما اقرأه بغير أن تحاول إدراجه داخل أيَّة خانة مُقرَّرة. وتوقَّع أن تسمع أُمورًا جديدةً بطُرق جديدة. ودوِّن ما تحصَّلتَ عليه في دفتر يومًا بعد يوم. وفي سياق هذه الدراسات، ستُضطرُّ بوضوحٍ إلى استخدام أفضل ما في مُتناولك من مساعِداتٍ ثانويَّة.

وفضلًا عن دراسة الكتاب المقدَّس، لا تهمل دراسة بعض الآثار الكلاسيكيَّة الاختباريَّة في الأدب المسيحيّ. وأقترح عليك أن تبدأ **باعترافات** القدِّيس أُغسطينوس (The Confessions of St. Augustine). ثمَّ تَوجَّه إلى **الاقتداء بالمسيح** (The Imitation of Christ) لتوما الكمبيسيّ (Thomas a Kempis). ولا تُهمِل **ممارسة حضور الله** (The Practice of the Presence of God) للأخ لورنس (Brother Lawrence). وفي سبيل متعة إضافيَّة، اقرأ **أزهار القديس فرنسيس الصغيرة** (The Little Flowers of St. Francis)، بقلم الأخ أُغولينو (Brother Ugolino). ولعلَّك ترغب تاليًا في شيءٍ أثقل قليلًا مثل **الأفكار** (Pensées) لبلايز پاسكال (Blaise Pascal). وتمتَّع **بأحاديث المائدة** (Table Talks) لمارتن لوثر (Martin Luther)، قبل أن تخوض غِمارَ **مبادئ الدِّين المسيحيِّ** (Institutes of the Christian Religion) لجون كالڤن (John Calvin). وفكِّر في قراءة **يوميَّات جورج فوكس** (The Journal of George Fox) رائد المذكَّرات الدينيَّة، أو ربَّما **يوميَّات جون وسلي** (Journal of John Wesley) الأشهر. واقرأ بانتباهٍ كتاب وليم لاو (William Law) **دعوةٌ جِدِّيَّة إلى حياة تقيَّة وطاهرة** (A Serious Call to a Devout and Holy life)؛ فكلماته لها وقْعٌ مُعاصِر. ومن القرن العشرين، اقرأ **عهدُ تكريس** (A Testament of Devotion) لثوماس كَلِي (Thomas Kelly)؛ و**كلفة التلمذة** (The Cost of Discipleship) لدَيترتش

بونهويفر (Dietrich Bonhoeffer)؛ **والمسيحيَّة المجرَّدة*** (Mere Christianity) لسي. أس. لويس (C.S.Lewis).

وبدهيٌّ أنَّ هذه مُجرَّد عيِّنة. فقد تجاوزتُ كُلِّيًّا **إعلانات الحبِّ الإلهيِّ** (Revelations of Divine Love) لجوليانا النُّرويخيَّة (Juliana of Norwich)، ومدخلٌ **إلى حياة التقوى** (Introduction to the Devout Life) لفرنسيس دو سال (Francis De Sales)، **ويوميَّات جون وُلمان** (The Journal of John Woolman)، وكتبًا أُخرى كثيرة. ثُمَّ لا ينبغي أن ننسى مجموعة المكتوبات العظيمة بأقلام رجال ونساء من مختلف الفئات. فكثيرون من هؤلاء المُفكِّرين ذوو إدراك غير عاديٍّ في البليَّة البشريَّة: كُتَّابٌ من أمثال لاوتسي الصينيِّ (Lao-tse)، وزارادشت الفارسيِّ (Zarathustra of Persia)، وشكسبير (Shakespeare) وملتون (Milton)، وسرڤانتس (Cervantes) ودانته (Dante)، وتولستوي (Tolstoy) ودوستويفسكي (Dostoevski)، وداغ همرشولد (Dag Hammarsköjld) ابن القرن العشرين.

إنَّما لا بدَّ من كلمة تنبيهٍ هنا. لا تَندحر ولا تَخُر عزيمتُك من جرَّاء جميع الكتب التي لم تقرأها. فمن المُحتَمل ألَّا تقرأ جميع الكُتب المذكورة هنا، وأن تقرأ كُتبًا أُخرى لم تُذكَر. وقد أُدرِجت هذه المكتوباتُ كي تساعدك على رؤية الكمِّيَّة المُمتازة المُتوافِرة لنا من الأدب المسيحيِّ لأجل هدايتنا في المسيرة الروحيَّة. إنَّ كثيرين آخرين قد سلكوا السبيل عينه وتركوا مَعالمَ لافتة. فتذكَّر أنَّ مفتاح انضباط الدراسة ليس قراءة كُتب كثيرة، بلِ اختبارُ ما نقرأه فعلًا.

* كتاب المسيحيَّة المجرَّدة للكاتب الشهير سي. أس. لويس هو أحد منشورات أوفير للطباعة المتخصِّصة والنشر (الناشر).

دراسة "الكُتب" غير اللفظيَّة

نصل الآن إلى ميدان الدراسة الأقلِّ اعتبارًا، لكنْ ربَّما الأهمّ، ألا وهو ملاحظةُ حقيقةِ الأشياء والأحداث والأفعال. وأهوَنُ مكانٍ نبدأ به هو الطبيعة. فليس صعبًا أن نرى أنَّ في النظام المخلوق أُمورًا كثيرةً نتعلَّمها.

يقول لنا إشعياء: "...الجبال والآكام تُشيد أمامكم ترنُّمًا، وكلُّ شجر الحقل يُصفِّق بالأيادي" (إش٥٥: ١٢). فإنَّ صنعة يد الله يمكن أن تُكلِّمَنا وتُعلِّمَنا إنْ نحنُ أصغينا. ويخبرنا مارتن بُوربَر قصَّة الحاخام الذي كان يذهب إلى إحدى البِرَك كلَّ يومٍ عند الفجر كي يتعلَّم "الترنيمة التي تُسبِّح الضفادعُ بها الله".[١]

ونحن نبدأ دراسة الطبيعة بإبداء الاهتمام. ذلك أنَّنا نرى الزُّهور أو الطُّيور. ونُراقِبُها بانتباهٍ وبروح الصلاة. وقد وصف أندريه جيد المرَّة التي راقب فيها فراشةً صغيرة تخرج من شَرنَقتها في أثناء محاضرةٍ في غرفة الصَّف. إذ ذاك غمره العَجَب والرَّهبة والفرح إزاء هذا التحوُّل، هذه القيامة. وبحماسةٍ أرى أستاذَهُ الشَّرنقة، فأجابه بلهجةِ استهجان: "ماذا! ألا تعلم أنَّ الشَّرنقة هي غلافُ الفراشة؟ فكلُّ فراشةٍ تراها خرجت من شرنقة. إنَّ هذا طبيعيٌّ جدًّا". وكتب جيد بخيبة أمل: "بلى، وقد علمتُ بالحقيقة تاريخي **الطبيعيَّ** أيضًا، ربَّما أفضلَ من علم الأُستاذ له... ولكنْ لأنَّ ذلك كان طبيعيًّا، ألم يستطِع أن يرى أنَّه كان عجيبًا؟ بئسَهُ من مخلوق! ومنذ ذلك اليوم نفرتُ منه وعافت نفسي دروسَه".[٢] ومَن لا يكون موقفُه كذلك؟! فإنَّ أُستاذَ جيد خزَّن المعلومات فحسب؛ ولم يدرسها حقًّا. وهكذا، فإنَّ الخطوة الأُولى في دراسة الطبيعة هي الملاحظة المُتهيِّبة. إذ في وسع ورقةٍ بسيطة أن تتحدَّث بشأن النِّظام والتَّنوُّع، والتعقيد والتَّناظُر. وقد كتبت إڤلين أندرهل: "لُمَّ شتاتَ ذاتك، كما قد علَّمَتك تمارينُ الاستذكار أن تفعل. ثُمَّ مُدَّ بصرك، بفعلِ إرادةٍ مُحبَّةٍ مُميِّز، صوبَ واحدٍ من تجلِّيات الحياة العديدة المُحيطة

بك. أمَّا غَرَضُ التأمُّل، فهو قليل الأهمِّيَّة. فمن جبل الألب إلى الحشرة، أيُّ شيءٍ سيؤدِّي دوره، على أن يكون موقفك صحيحًا ".[٣]

أمَّا الخطوة الثانية فهي أن تُصادِق الأزهار والأشجار والمخلوقات الصغيرة التي تدبُّ على الأرض. وعلى غرار الدكتور الأُسطوريِّ دُولِتل، تحدَّثْ إلى الحيوانات. طبعًا، ليس في وسعك أن تُحادثَها فعلًا... أم في وسعك ذلك؟ فثمَّة يقينًا تَخاطُبٌ يتخطَّى الكلام، ويبدو أغلبَ الأحيان أنَّ الحيوانات تتجاوب مع صداقتنا وعطفنا. وأنا أعرف هذا الأمر لأنَّني جرَّبتُه، وهكذا فعل بعضُ العُلَماء المُمتازين، وقد تبيَّن لنا أنَّه صحيح. وربَّما كان ما يُروى عن القدِّيس فرنسيس من ترويضه لذئب غَبيو (Wolf of Gabbio) وكرازته للطُّيور أمرًا غير بعيد الاحتمال. إنَّما يُمكِنُنا أن نكون على يقينٍ بشأن هذا الأمر: أنَّنا لا بدَّ أن نتعلَّم من ذلك. وفي **الإخوةُ كرامازوف** (The Brothers Karamazov) ينصح دوستويفسكي بهذا "أحبِب مخلوقات الله كُلَّها، مُجمَلَها وكلَّ حبَّة تُرابٍ فيها. أحبِب كلَّ ورقة، وكلَّ شُعاعٍ من نور الله. أحبِب الحيوانات، أحبِب النباتات، أحبِب كلَّ شيء. فإنْ أحببتَ كلَّ شيء، أدركتَ السِّرَّ الإلهيَّ في الكائنات. وما إنْ تُدرِكه، حتَّى تبدأ بفهمه فهمًا أفضل كلَّ يوم ".[٤]

وهنالك بالطَّبع "كُتُب" أُخرى كثيرة، فضلًا عن الطبيعة، ينبغي لنا أن ندرسها. فإن لاحظنا العلاقات الحاصلة بين الكائنات البشريَّة، نتلقَّى ثقافةً ذات مستوًى جامعيٍّ عالٍ. لاحِظْ مثلًا كم من كلامنا يستهدف تبرير أفعالنا. فنحن نَجِدُ من شِبه المُستحيل أن نتصرَّف ونَدَع التصرُّفَ يتكلَّم عن ذاته. لا! إنَّ علينا أن نُفسِّر الفعل، ونُبرِّره، ونُثبِت مقدار صوابه. فلماذا نشعر بهذا الاضطرار إلى وضع الأُمور في نصابها؟ بسبب الكبرياء والخوف، لأنَّ سمعتنا على المِحَكّ!

ومن السَّهل خصوصًا أن نُلاحِظَ هذا الاضطرار بين البائعين والكُتَّاب

وخُدَّام الدِّين والمُعلِّمين...جميعِ أُولئك الذين يكسبون معيشتهم بإتقانِ الكلام. غير أنَّنا إذا جعلنا أنفُسنا بالتدريجِ واحدًا من مواضيع الدراسة الرئيسيَّة، فإنَّنا نُحرَّر من روح التَّعالي. فعاجلًا أو آجلًا لا بدَّ أن نغدو غير قادرين على الصلاة على غِرار الفرِّيسيّ: "اَللهمَّ، أنا أشكرك أنِّي لستُ مثلَ باقي الناس..." (لوقا١٨: ١١).

فينبغي لنا أن نصير مُتنبِّهين إلى العلاقات العاديَّة التي نَلقاها خلال يومنا: في البيت والعمل والمدرسة، حيثُ نُلاحظ الأُمور التي تُسيطِر على الناس. تذكَّرْ أنَّنا لسنا نُحاول أن ندين أيَّ شخص أو نحكم عليه؛ بل إنَّما نُحاول أن نتعلَّم. فإن لمسْنا بالفعل روحَ إدانةٍ ناشئةً داخلَ نفوسنا، نرصد ذلك ونتعلَّم.

وكما ذكرتُ آنفًا، ينبغي أن تكون نفوسُنا أحد المواضيع التي نُعنى بدراستها. فينبغي أن نتعلَّم الأشياءَ التي تُسيطِر **علينا**. إذ نرصد مشاعرنا الداخليَّة وتقلُّباتنا المزاجيَّة. ماذا يُسيطِر على أمزجتنا؟ لماذا يَروقُنا أشخاصٌ مُعيَّنون فيما لا نستسيغ آخرين؟ وماذا تُعلِّمنا هذه الأُمور عن أنفسنا؟*

وإذ نفعل هذا كُلَّه، لا نُحاولُ أن نكون عُلَماءَ نفسٍ أو اجتماعٍ من الهُواة. ولا يستحوذُ علينا أيضًا الاستبطانُ المُفرط. فنحن ندرس هذه الأُمور بروح اتِّضاع، مُحتاجينَ إلى جَرعةٍ كبيرة من النِّعمة. إنَّما يُعوزُنا أن نعمل بقَول سُقراط المأثور: "اعرف نفسك!". وبفضل الروح القدس المغبوط نتوقَّع أن يكون الربُّ يسوع هو مُعلِّمَنا الحيَّ الحاضر دائمًا أبدًا.

ونُحسن فعلًا إن درسنا الدَّساتير والحضارات والقوى التي تُشكِّلُهنَّ. كذلك ينبغي لنا أن نفكِّر في أحداث زماننا، ملاحظين أوَّلًا، بروح تمييزٍ نبيهة،

* هذه النصيحة هي للأفراد الناضجين فكريًّا وحَسَني التكيُّف. وليست للمكتئبين عقليًّا أو سواهم من الرازحين تحت أثقال الحياة. فهذه التمارين مُحبِطة جدًّا لهُم وهازمة للذات فعلًا. فإذا وجدتَ أيَّامك أسوأ من أن تُتيح لك هذا النَّوع من الدراسة، فلا تحاول القيام بها من فضلك! غير أنَّ ثمَّة رجاءً وأمرًا يمكنك أن تفعله. راجِع الفصلَين اللذين يتناولان الاعتراف والإرشاد.

أيَّةُ أشياءَ تُعلِي حضارتُنا شأنَها على أنَّها "أحداثٌ عظيمة". ولننظُر إلى قِيَم الحضارة- ليس ما يقول الناس إنَّها هي، بل ما هي بالفعل.

ولنتعلَّمْ أن نطرح أسئلة. ما الفوائد والعوائق التي يتميَّز بها مجتمعٌ تكنولوجيّ؟ ماذا فعلت صناعةُ الوجبات السريعة بعادة اجتماع العائلة لتَناوُل الطعام معًا؟ لماذا نستصعب في حضارتنا إيجادَ وقتٍ لإنشاء العلاقات؟ هل الفَردانيَّة الغربيَّة مفيدةٌ أم ضارَّة؟ ما الذي يتوافق في حضارتنا مع الإنجيل، وما الذي يتنافى معه؟ إنَّ واحدة من أهمِّ وظائف "الأنبياء" المسيحيِّين في زماننا هي القُدرة على أن يُدرِكوا عواقبَ مختلف القوى في حضارتنا وأن يُصدِروا عليها أحكامًا تُبيِّن قيمتها الحقيقيَّة.

إنَّ الدراسة تُنتِج فرحًا. وشأنُنا شأنُ أيِّ مُبتدئ، سنجدُها عملًا شاقًّا في البداية. ولكن كلَّما زادت براعتُنا، عظُمت بهجتُنا. وقد قال ألِكسَندر پوپ: "ما مِن دراسةٍ لا تستطيع أن تُبهِجنا بعد أن نعكف عليها عكوفًا قليلًا".[٥] فالدراسة تستحقُّ جيِّدًا جهدنا الأكثر جِدِّيَّة.

القسم الثاني

الانضباطات الخارجيَّة

٦

انضباطُ البساطة

عندما نكون حقًّا على هذه البساطة الداخليَّة، يكون مظهرنا بكامله أصرح وأكثر طَبَعيَّة. فهذه البساطة الحقيقيَّة تجعلنا مُتنبِّهين إلى حالة مُعيَّنة من الانفتاح واللُّطف والبراءة والابتهاج، وهي فاتنةٌ حين نراها عن كَثَب وكلَّ حين. حقًّا، ما أحبَّ هذه البساطة! مَن يُعطيني إيَّاها؟ إنَّني أتخلَّى عن كلِّ شيءٍ في سبيلها. فهي أشبهُ بلؤلؤة الإنجيل.

فرنسوا فنيلون (François Fénelon)

البساطة حرِّيَّة. والازدواجيَّة عبوديَّة. فالبساطة تأتي بالفرح والاتِّزان. فيما تأتي الازدواجيَّة بالقلق والخوف. فقد قال حكيمُ سِفر الجامعة، على حدِّ تعبيرِ ترجمةٍ تفسيريَّة: "إنَّ الله صنع الإنسان بسيطًا؛ ولكنَّ مشاكل الإنسان المعقَّدة هي منِ اختراعه هو" (جا٧: ٢٩). ولأنَّنا مُختبرون التحرُّر الذي يؤتينا إيَّاه الله من خلال البساطة، نجِدُنا مرَّةً جديدةً بعدُ نُرنِّم تلك الترنيمةَ الهزَّازة القديمة القائلة:

هيَ الهِبَةُ أن نكونَ بُسَطاء،
هيَ الهِبَةُ أن نكونَ أحرارًا.
هي الهِبَةُ أن تنزلَ إلى حيثُ ينبغي أن تكون،

وحين نجدُ أنفُسنا في المكان الصحيح تمامًا،
سيكونُ ذاك وادي الحُبِّ والابتهاج.
حين تغدو البساطةُ الصحيحةُ ملكَ أيدينا،
لا نستحي أن ننحني وننعطف.
وسيُبهِجُنا أن ندورَ وندور،
حتَّى إذا دُرنا ودُرنا، نصلُ تمامًا إلى الموقع السليم.

إنَّ انضباطَ البساطة المسيحيَّ حقيقةٌ **داخليَّة** تُنتِج نمط حياة **خارجيًّا**. وناحيَتا البساطة الداخليَّةُ والخارجيَّةُ كِلتاهما جوهريَّتان. فنحن نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أنَّنا نستطيع أن نمتلك الحقيقة الداخليَّة بغير أن يكون لها تأثيرٌ كبير في طريقة حياتنا. فأنْ نحاول ترتيب نمط حياة خارجيٍّ يتَّسم بالبساطة، بمعزلٍ عنِ الحقيقة الداخليَّة، أمرٌ يؤدِّي إلى الناموسيَّة الفتَّاكة.

تبدأ البساطة في التركيز والوحدة الداخليَّين. إنَّها تعني أن نعيش مُنطلِقين ممَّا يُسمِّيه ثوماس كَلِي "المركز الإلهيّ". وقد أصاب كيركيغارد كَبِدَ البساطة المسيحيَّة في عنوان كتابه المعبِّر: **نقاوةُ القلب أن نُريد أمرًا واحدًا** (Purity of Heart is to Will One Thing).

ومن شأن اختبارنا للحقيقة الداخليَّة أن يُحرِّرنا على الصعيد الخارجيّ. فالكلام يصير صادقًا ومستقيمًا. وشهوةُ المقام والمَنصِب تزول لأنَّنا لا نعود نرغب في المقام والمَنصِب. ونكفُّ عنِ التبذير المُتباهي لا على أساس كوننا غيرَ قادرين عليه، بل على أساس المبدأ. وتصير "بضائعُنا" في مُتناول الآخرين. وننضمُّ إلى ريتشارد إي. بايرْد في اختباره الذي سجَّله في يوميَّاته بعد قضائه بضعة أشهُر وحيدًا في منطقة القُطب الشماليِّ الجرداء: "إنَّني أتعلَّم أنَّ الإنسان يستطيع أن يحيا حياة عميقة بغير أكوام من الأشياء".[1]

إنَّما الحضارة المعاصرة تفتقر في آنٍ معًا إلى حقيقة البساطة الداخليَّة ونمط حياتها الخارجيّ. فعلينا أن نعيش في العالم الحديث، ونحن نتأثَّر بحالته المُصدَّعة والمُحطَّمة. إنَّنا عالقون في مَتاهةٍ من الارتباطات المتنافسة. فتارةً نُقرِّر قراراتِنا على أساس المنطق السليم، وتارةً أخرى بدافع الخوف ممَّا سيقولُه الآخرون فينا. وليس لنا وحدةٌ أو بؤرةٌ تُوجِّه حياتُنا بمُقتضاها.

ولأنَّنا نفتقر إلى **مركز** إلهيّ، فإنَّ احتياجنا إلى الأمان أفضى بنا إلى تعلُّقٍ جُنونيٍّ بالأشياء. فعلينا حقًّا أن نُدرِك أنَّ اشتهاء البحبوحة في المجتمع المعاصر أمرٌ هُواسِيّ- وهو هُواسيٌّ لأنَّه فقد الصِّلة بالواقع كلِّيًّا. فنحن نرغب بشدَّة في أشياءَ لا نحتاج إليها ولا نتمتَّع بها. "إنَّنا نشتري أشياءَ لا نحتاج إليها، لكي نُخلِّفَ انطباعًا حسنًا في أشخاص لا نَودُّهم".[٢] وحيث نكفُّ عن الإبطال (هَجْر الاستعمال) المُتعمَّد، يستولي علينا الإبطالُ النفسانيّ. إذ بات يُخجِلُنا أن نلبس الثياب حتَّى تبلى، أو نسوقَ السيَّارات حتَّى تتلف. فقد أقنعتنا وسائل الإعلام بأنَّ عدم مُجاراة الأزياء الدَّارجة هو عدم مُجاراةٍ للواقع. ولكنْ آنَ الأوانُ كي نصحوَ إلى حقيقة كون التشبُّه بمُجتمع مريض تعني أن نكون مرضى. فقبل أن نَعيَ كم باتت حضارتُنا غير مُتَّزنة في هذا الأمر، لن نتمكَّن من التصدِّي لروح حُبِّ المال في داخلنا، ولن نرغبَ في البساطة المسيحيَّة.

وهذا الهُواسُ يتخلَّل حتَّى أفكارنا الأُسطوريَّة. إذ إنَّ البَطَل العصريَّ هو الفتى الفقير الذي بكلِّ عزمٍ يصير غنيًّا، وليس الفتى الغنيَّ الذي بملء إرادته يصير فقيرًا. (ونحن بعدُ نستصعب أن تتمكَّن فتاةٌ من القيام بذلك أيضًا!) فالاشتهاءُ ندعوه طموحًا. والادِّخار ندعوه حكمة. والجشع ندعوه مُثابرة.

أضِف أنَّه من المُهِمِّ أن نُدرِك أنَّ الحضارة المُضادَّة العصريَّة ليست تحسينًا إلى مدًى بعيد جدًّا. فهي تغييرٌ سطحيٌّ في نمط الحياة بغير التصدِّي جِدِّيًّا

للمشكلات الجذريَّة التي يُعانيها مجتمعٌ مُستهلك. ولأنَّ هذه الحضارة المُضادَّة قد افتقرت دائمًا إلى مركز إيجابيٍّ فهي انحطَّت حتمًا حتَّى باتت من التَّوافه. ويقول آرثر غيش: "قسمٌ كبير من الحضارة المُضادَّة هو مرآة تنعكس عليها أسوأُ الملامح التي اتَّسم بها المجتمع القديمُ المريض. فليست الثورةُ هي المُخدِّرات المبذولة، ولا الجنسَ الطليق، ولا الإجهاضَ حين الطَّلَب...إنَّ الإثارة الجنسيَّة المُدَّعى زورًا أنَّها تَحرُّر، وعناصرَ الماسوشيَّة السادية*، والدِّعايات المُتمَحورةَ حول الجنس في كثيرٍ من المطبوعات الهابطة، هي كلُّها جزءٌ من انحراف النظام القديم وتعبيرٌ عن الموت."[٣]

إنَّنا بحاجةٍ لأنْ نكون جسورين لنُحدِّد طُرقَ عيشٍ واضحةَ المعالم وأكثرَ إنسانيَّة. فينبغي لنا أن نسلك سبيلًا مُغايرًا للهُواسِ العصريِّ الذي يُعرِّف الناس بمقدار ما يمكنهم أن يُنتجوه أو يكسبوه. وينبغي أن نُجرِّب خياراتٍ جريئةً جديدة بدل النِّظام الحاليِّ المُميت. فليس انضباطُ البساطة المسيحيُّ حُلمًا مفقودًا، بل رؤيا ما تزال تتكرَّر عبر التاريخ. ومن الممكن أن تُستردَّ هذه الرؤيا اليوم، بل يجب أن تُستَرَدّ.

الكتاب المقدَّس والبساطة

قبل أن نحاول صياغةَ نظرةٍ مسيحيَّة إلى البساطة، من الضَّروريِّ أن ندحض المفهوم السائد القائل بأنَّ الكتاب المقدَّس غامضٌ بشأن القضايا الاقتصاديَّة. فغالبًا ما يسود شعورٌ أنَّ ردَّة فعلنا حيالَ الغنى هي مسألةٌ فرديَّة. إذ يُقال إنَّ تعليم

* ممارسات جنسيَّة تتَّسم بالعنف وإحداث الألم وتلقِّيه. إذ يتمتَّع أحد أطراف العلاقة الجنسيَّة (الساديّ) بتلك العلاقة إنْ هو آلم الشخص الآخر (الماسوشيّ)، والذي بدَوْره يتمتَّع بالعلاقة الجنسيَّة نتيجة تلقِّيه الألم (الناشر).

الكتاب المقدَّس في هذا المجال هو مسألة تفسيرٍ خاصّ. ومن ثَمَّ نُحاوِل أن نعتقد أنَّ المسيح لم يتطرَّق إلى مسائلَ اقتصاديَّةٍ عمليَّة.

ولكنْ ما من قراءةٍ جِدِّيَّةٍ للأسفار المقدَّسة يُمكِن أن تُقيم الدليل على رأيٍ كهذا. فإنَّ وصايا الكتاب المقدَّس التي تَنهى عن استغلال الفُقراء وتكديس الثروة واضحةٌ وصريحة. والكتاب يتحدَّى تقريبًا كلَّ قيمةٍ اقتصاديَّة في المجتمع المعاصر. فالعهد القديم مثلًا يعرض استثناءً للمفهوم الشائع القائل بالحقِّ المُطلق في الملكيَّة الخاصَّة. إذ يقول الكتاب إنَّ الأرض ملكٌ لله، ولذلك لا يمكن أن تُمتلك امتلاكًا دائمًا (لاويِّين٢٥: ٢٣). وقد اشترطت شريعةُ سنة اليوبيل في التَّوراة أن تُرَدَّ جميع الأراضي إلى مالكيها الأصليِّين. وبالحقيقة أنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِن أنَّ الثَّروة نفسها ملكٌ لله، وقد كان أحد أغراض سنة اليوبيل توفير إعادة توزيع دوريَّة للثروات. فإنَّ نظرةً ثوريَّة كهذه في الاقتصاد تتحدَّى تقريبًا كلَّ مُعتقَد ومُمارَسة مُعاصِرَين. ولو حفظ بنو إسرائيل سنة اليوبيل بأمانة، لوجَّهوا ضربةً قاضية إلى المشكلة الدَّهريَّة المُتمثِّلة في صيرورة الأغنياء أكثرَ غنًى والفُقراء أكثرَ فقرًا.

يتصدَّى الكتاب المقدَّس بطريقة حاسمة لروح العبوديَّة الداخليَّة التي يأتي بها التعلُّق الوثنيُّ بالغِنى. إذ ينصحنا كاتب المَزامير قائلًا: "إن زاد الغنى فلا تضعوا عليه قلبًا" (مز٦٢: ١٠). والوصيَّة العاشرة تُحذِّر من الاشتهاء، أي شهوة الامتلاك الداخليَّة المؤدِّية إلى السَّرقة والظُّلم. وقد أدرك الحكيم أنَّ "مَن يتَّكل على غناه يسقط" (أمثال١١: ٢٨).

ثُمَّ إنَّ المسيح شنَّ حربًا على مادِّيَّة زمانه. (ولي أن أرتئي أنَّه يشنُّ حربًا على مادِّيَّة زماننا أيضًا). فاللَّفظ الأراميُّ الدالُّ على المال هو "مامون"، وقد شجبه السيِّد المسيح إذ حسبهُ إلهًا مُنافِسًا: "لا يقدر خادم أن يخدم سيِّدَين؛ لأنَّه إمَّا

أن يبغض الواحد ويحبَّ الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال (أصلًا مامون)" (لوقا١٦: ١٣). وكثيرًا ما تطرَّق المسيح بلا غموض إلى شؤونٍ اقتصاديَّة. فهو يقول: "طوباكم أيُّها المساكين (الفقراء)، لأنَّ لكم ملكوت الله"، وأيضًا: "ويلٌ لكم أيُّها الأغنياء، لأنَّكم قد نلتم عزاءكم" (لوقا٦: ٢٠، ٢٤). ويُصوِّر على نحوٍ مُعبِّرٍ صعوبةَ دخول الغنيِّ إلى ملكوت الله بأنَّها مثلُ مرور جمل من ثقب إبرة. لا شكَّ أنَّ كلَّ شيءٍ ممكن عند الله، ولكنَّ المسيح عبَّر عن الصعوبة بطريقةٍ واضحة؛ إذ رأى القبضة الشديدة التي يمكن أن تكون للغنى على المرء. وهو قد علم أنَّه "حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا"، الأمرُ الذي بسببه على وجه الدِّقَّة أوصى أتْباعه أنْ "لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض" (متَّى٦: ١٩،٢١). إنَّه لا يقول إنَّ القلب ينبغي- أو لا ينبغي- أن يكونَ حيثُ الكنزُ موجود، بل يعلن الحقيقة الجليَّة أنَّهُ حيثما تجد الكنز **فلا بُدَّ** أن تجد القلب أيضًا.

وقد حثَّ السيِّد المسيح الشابَّ الغنيَّ لا على أن يكونَ له موقفُ عدم تعلُّقٍ داخليٍّ بأملاكه فقط، بل بالتخلِّي فعلًا عن أملاكه إنْ هو أراد ملكوت الله (متَّى١٩: ١٦-٢٢). وقال أيضًا: "انظروا وتحفَّظوا من الطمع؛ فإنَّه متى كان لأحدٍ كثيرٌ فليست حياته من أمواله" (لوقا١٢: ١٥). وأشار على مَن جاؤوه مُلتمسين الله أنْ "بيعوا ما لكم، وأعطوا صدقة. اعملوا لكم أكياسًا لا تفنى، وكنزًا لا ينفد في السماوات..." (لوقا١٢: ٣٣). وضربَ مَثَلَ المُزارِع الغنيِّ الذي تركَّزت حياتُه على التكويم والتخزين- وبينما قد ندعوه نحن ذكيًّا، دعاه هو غبيًّا (لوقا١٢: ١٦-٢١). وصرَّح بأنَّنا إن أردنا ملكوت الله حقًّا فعلينا- مثلَ التاجر الذي يبحث عن لآلئ فاخرة- أن نكون مستعدِّين للتخلِّي عن كلِّ ما نملكه في سبيل الحصول عليه (متَّى١٣: ٤٥و٤٦). وهو يدعو كلَّ مَن أراد اتِّباعه إلى حياةِ فَرَحٍ تتَّسم بعدم الاهتمام بالممتلكات دونَ هَمٍّ أو غمّ. "كلُّ من

سألكَ فأعطه؛ ومن أخذ الذي لك فلا تُطالِبه" (لوقا٦: ٣٠).

إنَّ الربَّ يسوع يتناول المسألة الأقتصاديَّة أكثر من أيِّ شأنٍ اجتماعيٍّ آخر. فإن كان ربُّنا، في مجتمع بسيط نسبيًّا، قد ألقى تشديدًا قويًّا كهذا على أخطار الغنى الروحيَّة، فكم بالأولى ينبغي لنا نحن الذين نعيش في حضارةٍ ذاتِ رخاء أن نأخذ المسألة الاقتصاديَّة على مَحمِل الجِدّ.

كذلك تُبدي الرسائلُ قلقًا مُماثلًا. فالرسول بولس يقول: "وأمَّا الذين يُريدون أن يكونوا أغنياء، فيسقطون في تجربةٍ وفخٍّ وشهواتٍ كثيرة غبيَّة ومضرَّة تُغرِّق الناس في العطب والهلاك" (١تي٦: ٩). وعلى كلِّ أُسقف أن يكون غير "مُحِبٍّ للمال" (١تي٣: ٣). كما ينبغي أن يكون الشمامسة غير "طامعين بالرِّبح القبيح" (١تي٣: ٨). كذلك ينصح كاتب رسالة العبرانيِّين قائلًا: "لتكُن سيرتكم خاليةً من محبَّة المال؛ كونوا مُكتفين بما عندكم، لأنَّه قال: لا أُهملك ولا أتركك!" (عب١٣: ٥). ويعزو يعقوب علَّة القتل والحروب إلى شهوة الامتلاك: "تشتهون ولستم تمتلكون، تقتلون، وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا، تُخاصِمون وتحاربون" (يع٤: ١و٢). ويدعو بولس الطَّمع عبادة أوثان، موصيًا بتأديبٍ صارم بحقِّ أيِّ مُذنبٍ بالجشَع (أفسس٥: ٥؛ ١كورنثوس٥: ١١). وهو يذكر الطَّمع بجانب الزِّنى والسَّرقة، مُصرِّحًا بأنَّ أُولئك الذين يعيشون في رذائلَ من هذا النَّوع لن يَرِثوا ملكوت الله. ويُشير بولس على الأغنياء بألَّا يتَّكلوا على غِناهم غير المضمون، بل على الله، وبأن يُشرِكوا الآخرين بسخاءٍ في ما يملكون (١تيموثاوس٦: ١٧- ١٩).

أمَا، وقد قلتُ هذا كلَّه، ينبغي أن أُضيفَ أيضًا أنَّ الله يقصد أن تكون لنا مواردُ ماديَّة وافية. فهنالك اليومَ بؤسٌ ناتجٌ من مجرَّد الافتقار إلى الموارد، كما أنَّ هنالك بؤسًا حين يحاول الناس أن يجعلوا من الموارد حياةً لهم. فالفقرُ الاضطراريُّ

شرّ، ولا بدَّ أن يُشجَب. كذلك لا يتغاضى الكتاب المقدَّس عن التقشُّف المُتَّصف بالتطرُّف. فالكلمة المقدَّسة تُعلن دائمًا وبقوَّة أنَّ الخليقة جيِّدة وينبغي التمتُّع بها. والتقشُّف يُقيم فارقًا لا يُقرُّه الكتاب المقدَّس بين عالَم روحيٍّ صالح وعالَم مادِّيٍّ طالح، ومن ثَمَّ يجد الخلاصَ في إعارة مجال الوجود الطبيعيِّ أقلَّ اهتمام مُمكن.

إنَّما التقشُّف والبساطة يَتنافيان تمامًا. ويجب ألَّا تَحجب وجوهُ التشابُه السطحيَّة العَرَضيَّة في ممارسة الأمرَين الاختلافَ الجوهريَّ بينهما. فالتقشُّف ينبذ الممتلكات. أمَّا البساطة فتضع الممتلكات في منظورها الصحيح. والتقشُّف لا يجد مكانًا لأرضٍ "تفيض لبنًا وعسلًا". أمَّا البساطة فتبتهج بهذا الإمداد السخيِّ من يد الله. والتقشُّف يَلقى القناعة فقط في حال القِلَّة. أمَّا البساطة فتَلقى القناعة في حالَي القِلَّة والوفرة (فيلبِّي٤: ١٢).

إنَّ البساطة هي الشيءُ الوحيد الذي يُعيد توجيه حياتنا على نحوٍ كافٍ بحيث يتسنَّى لنا أن نتمتَّع بالممتلكات تمتُّعًا أصيلًا بغير أن تُدمِّرَنا. فمن دون البساطة إمَّا أن نُذعن لروح "مامون" السائدة في هذا العالَم الحاضر الشرِّير، وإمَّا أن نتردَّى في تقشُّفٍ ناموسيٍّ مُنافٍ للمسيحيَّة. "لأنَّ الربَّ إلهك آتٍ بك إلى أرضٍ جيِّدة... أرضٍ... لا يعوزك فيها شيء" (تثنية٨: ٧-٩). كذلك أيضًا تكثر التنبيهاتُ إلى خطر الإمدادات التي لا تُبقي في المنظور الصَّحيح. "لئلَّا تقولَ في قلبك: قُوَّتي وقدرة يدي اصطنعتْ لي هذه الثروة" (تث٨: ١٧).

فانضباطُ البساطة المسيحيُّ يوفِّر لنا المنظور المطلوب. ذلك أنَّ البساطة تُحرِّرنا كي نقبل إمدادات الله كعطيَّة ليست ملكًا لنا نحتفظ به، إنَّما يمكننا أن نُشرك الآخرين فيها بكلِّ حرِّيَّة وسخاء. وما إن نُدرك أنَّ الكتاب المقدَّس يشجب المادِّيَّ والمُتقشِّف كليهما بقوَّةٍ مُتوازية، حتَّى نغدوَ مُهيَّئين كي نُولِيَ اهتمامَنا ناحيةَ صياغةِ مفهومٍ مسيحيٍّ للبساطة.

مكانٌ نقف عليه

صرَّح أرخميدس مرَّةً فقال: "أعطِني مكانًا أقف عليه، فأنقُل الأرض". ونقطةُ مركزيَّة كهذه مُهِمَّةٌ في كلِّ انضباط، إلَّا أنَّها ذاتُ أهمِّيَّة بالغة بالنِّسبة إلى البساطة. فمن بين الانضباطات كلِّها، البساطةُ هي الأكثر منظوريَّةً، ومن ثَمَّ الأكثرُ عرضةً للفساد. ومعظم المؤمنين بالمسيح لم يُصارِعوا قطُّ صراعًا جدِّيًّا مسألةَ البساطة، مُتجاهلين بكلِّ راحة أقوالَ المسيح الكثيرة في الموضوع. أمَّا السبب فبسيط: أنَّ هذا الانضباط يتحدَّى مُباشرةً اهتماماتِنا المُوطَّدةَ بنمط حياة يتَّسم بالبحبوحة والرَّخاء. ولكنَّ أُولئك الذين يأخذون تعليم الكتاب المقدَّس بشأن البساطة على مَحمِل الجدِّ تُواجِهُهم تجاربُ قويَّة بالسُّقوط في فخِّ الناموسيَّة. ففي سياق محاولتنا الجدِّيَّة للتعبير عن تعليم السيِّد المسيح في الشأن الاقتصاديِّ بطريقةٍ عمليَّةٍ ملموسة، يسهل أن نحسب خطأً تعبيرَنا الخاصَّ عن هذا التعليم بما يشبه التعليم نفسه. ذلك أنَّنا نلبس هذا الزيَّ، أو نشتري ذلك المنزل، ثُمَّ نُشيد بخِياراتنا على أنَّها الحياةُ البسيطة. وهذا الخطر يُضفي أهمِّيَّةً خاصَّةً على إيجاد نقطة مركزيَّة للبساطة وتحديدها بوضوحٍ على طريقة أرخميدس..

إنَّ لنا نقطةً مركزيَّة ممتازة في كلمات المسيح إذ قال: "لذلك أقولُ لكُمْ: لا تهتمُّوا لحياتكم بما تأكلُونَ وبما تَشرَبونَ. ولا لأجسادكم بما تلبسُون. أليست الحياةُ أفضلَ من الطَّعام والجسدُ أفضلَ من اللِّباس؟ انظروا إلى طيورِ السَّماء: إنَّها لا تزرعُ ولا تحصدُ ولا تجمعُ إلى مخازِن وأبُوكم السَّماويُّ يقوتُها. ألستُم أنتم بالحريِّ أفضل منها؟ ومن منكم إذا اهْتمَّ يقدِرُ أن يزيد على قامته ذراعًا واحدةً؟ ولِماذا تهتمُّون باللباس؟ تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو: لا تتعبُ ولا تغزل، ولكنْ أقول لكم إنَّه ولا سليمان في كلِّ مجده كان يلبس كواحدةٍ منها. فإنْ كان عشبُ الحقْلِ الَّذي يوجدُ اليوم ويطرَحُ غدًا في التَّنور يُلبسه الله هكذا أفلَيسَ بالحريِّ جدًّا يُلبسكُمْ أنتُمْ يا قليلي الإيمان؟ فلا تهتمُّوا قائلين: ماذا نأكُل أو ماذا نشرَبُ

أو ماذا نلبسُ؛ فإنَّ هذه كُلَّها تطلبُها الأُمَمُ، لأنَّ أباكُمُ السَّماويَّ يعلم أنَّكم تحتاجون إلى هذه كُلِّها. **لكنِ اطْلبوا أوَّلًا ملكوت الله وبرَّه وهذه كُلُّها تُزادُ لكمُ** فلا تهتمُّوا للغد، لأنَّ الغد يهتمُّ بما لنفسه يكفي اليوم شرُّهُ (متَّى٦: ٢٥-٣٣).

فالنُّقطة المركزيَّة لانضباط البساطة هو أن نطلب **أوَّلًا** ملكوت الله وبرَّه، ومن ثَمَّ يأتي كلُّ ما هو ضروريٌّ في منزلته الصحيحة. ومن المستحيل أن نُبالِغَ مهما شدَّدْنا على أهمِّيَّة تبصُّر يسوع بشأن هذه النُّقطة. فكلُّ شيءٍ يتوقَّف على إبقاء الأمر الأوَّل "أوَّلًا". ويجب ألَّا يسبق أيُّ شيءٍ ملكوت الله، بما في ذلك الرغبةُ في نمط حياة بسيط.

إنَّ البساطة ذاتَها تصيرُ عبادة أوثان إذا تقدَّمت على طلب الملكوت. وفي تعليقٍ نافذ البصيرة لا سيَّما على هذا المقطع الكتابيِّ، ينظر سورين كيركيغارد في نوع الجهد الذي ينبغي أن يُبذَل في سبيل نِشْدان ملكوت الله. أينبغي للمرء أن يتَّخذ وظيفةً مناسبة لكي يُخلِّف تأثيرًا خيِّرًا؟ كان جواب كيركيغارد: "لا، بل ينبغي لنا **أوَّلًا** أن نطلب ملكوت الله". أفينبغي لنا إذًا أن نتصدَّق بجميع أموالنا لإطعام الفقراء؟ مرَّةً أُخرى كان الجواب: "لا، بل ينبغي لنا أوَّلًا أن نطلب ملكوت الله". حسنًا، ربَّما علينا إذًا أن ننطلق ونكرز للعالم بهذا الحقّ: أنَّ على الناس أن يطلبوا أوَّلًا ملكوت الله؟ ومرَّة أُخرى، كان الجواب نفيًا مُدوِّيًا: "لا، بل ينبغي لنا أوَّلًا أن نطلب ملكوت الله". ثُمَّ خَلُص كيركغارد إلى القول: "إذًا، بمعنًى مُعيَّن، لا يتعلَّق الأمر بأيِّ شيءٍ يجب أن أعمله. نعم، بكلِّ يقين وبمعنًى محدَّد، عليَّ ألَّا أعمل شيئًا، أن أصير لاشيئًا أمام الله، أن أتعلَّم البقاء صامتًا. وفي هذا الصَّمت تكمن البداية، ألا وهي أن أطلب **أوَّلًا** ملكوت الله".[٤]

فالتَّركيز على الملكوت يُنتِج الحقيقة الداخليَّة؛ وبغير الحقيقة الداخليَّة ننحطُّ إلى التَّوافه الناموسيَّة. وما من شيءٍ آخر يمكن أن يكون مركزيًّا. فأن نرغب في الخروج

من السِّباق المسعور لا يمكن أن يكون أمرًا مركزيًّا. وإعادة توزيع ثروة العالم لا يمكن أن تكون مركزيَّة. والاهتمام بالبيئة السليمة لا يمكن أن يكون مركزيًّا. أمَّا أنْ نطلب **أوَّلًا** ملكوت الله، وبرّه على الصَّعيدَين الشخصيِّ والاجتماعيِّ كِلَيهما، فهو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يكون مركزيًّا في انضباط البساطة الروحيّ.

والشخص الذي لا يطلب الملكوت أوَّلًا لا يطلبه أبدًا. فمهما كانت جميعُ الاهتمامات الأُخرى مُهِمَّة، فإنَّها لحظةَ تغدو مركز مجهوداتنا تصير عبادةَ أوثان. ولا بُدَّ لتركيزنا عليها من أن يُشدَّنا إلى التصريح بأنَّ نشاطنا ذاك هو بساطةٌ مسيحيَّة. وبالحقيقة أنَّه حين يُوضَع ملكوتُ الله في المرتبة الأولى فعلًا، فإنَّ الهمومَ البيئيَّة والاهتمامَ بالفُقراء وتوزيعَ الثروات بالإنصاف، وأُمورًا أُخرى كثيرة، ستحظى بالانتباه الواجب لها.

وكما أوضح الربُّ يسوع في نصِّنا الأساسيِّ آنف الذِّكْر، فإن التحرُّر من القلق والهمِّ هو إحدى البيِّنات الداخليَّة على طلب ملكوت الله أوَّلًا. فواقع البساطة الداخليُّ يتضمَّن حياةَ عدم اهتمام بالمُمتلكات مقرونٍ بالفرح. هذه الحرِّيَّة لا يعرفها الطمَّاعُ ولا البخيل. وليست لها علاقةٌ أبدًا بوفرة المُمتلكات أو بالافتقار إليها. إنَّها روحُ اتِّكال وثقةٍ داخليَّةٌ. ومُجرَّدُ كون المرء يعيش فعلًا بغير الأشياء ليس ضمانةً بأنَّه يعيش في البساطة. فقد علَّمنا بولس أنَّ "محبَّة المال أصلٌ لكلِّ الشُّرور"، وقد تبيَّن لي أنَّ أُولئك الذين يملكون أقلَّ مقدارٍ منه غالبًا ما يحبُّونه أكثرَ الكُلّ. ومن الممكن أن يكون شخصٌ ما مُنتهِجًا نمطَ حياةٍ خارجيًّا مُتَّسمًا بالبساطة، ومع ذلك يغمره الهمُّ والقلق. وبصورةٍ معكوسة، لا يؤتي الغنى أيضًا تحرُّرًا من القلق والهمّ. وقد كتب كيركيغارد: "يأتي الغنى والوفرة مُتنكِّرَين بِنِفاقٍ بثياب حُملان، مُتظاهِرَين بأنَّهما يوفِّران أمانًا وضمانًا من الهموم والغموم، ومن ثَمَّ يُصبِحان محطَّ القلق. وهما يضمنان الإنسان من الهموم على وجه التقريب كما يضمن الذِّئب الذي يُكلَّف رعايةَ الغنم سلامتها... من الذئب".[٥]

إنَّ التحرُّر من الهمِّ والغمِّ يتميَّز بثلاثة مواقف داخليَّة. فإن كان ما عندنا نتقبَّلُه كهديَّة؛ وإن كان ما عندنا يتعهَّده الله بعنايته؛ وإن كان ما عندنا متوافرًا للآخرين، فحينئذٍ نحوزُ التحرُّر من الهموم. هذه هي حقيقةُ البساطة الداخليَّةُ. ولكنْ إن كان ما عندنا نَحسبُه أمرًا نلناه نحن، وإن كان ما عندنا نحسبُ أنَّنا يجب أن نتمسَّك به، وإن كان ما عندنا غير متوافر للآخرين، فحينئذٍ نعيشُ في الهمِّ والغمّ. وأشخاصٌ من هذا النَّوع لن يعرفوا البساطة أبدًا، بصرف النظر عمَّا يعانونه ظاهريًّا من معاناتٍ قد يُجيزون أنفسهم فيها لكي "يحيَوا الحياةَ البسيطة".

فقبولُ ما عندنَا حاسبين إيَّاه هديَّةً من عند الله هو موقفُ البساطة الداخليُّ الأوَّل. ذلك أنَّنا نشتغل ولكنَّنا نعلم أنَّ شغلنا ليس هو ما يُعطينا ما عندنا. فنحن نعيش بالنعمة، حتَّى في ما يتعلَّق "بالخُبز اليوميّ". ونحن نتوكَّل على الله من أجل أبسط عناصر الحياة: الهواء والماء والشمس. فما نملكه ليس نتيجة تعبنا، بل عناية الله الكريمة بنعمته. وحين نُغرى بأن نحسب ما نملكه نتيجةً لمجهوداتنا الشخصيَّة، يقتضي الأمر قِلَّةً ضئيلة أو حادثًا صغيرًا كي يتبيَّن لنا مرَّةً أخرى إلى أيِّ مدًى نحنُ عِيالٌ على الله في كلِّ أمر.

وإدراكُنا أنَّ الاعتناء بما عندنا هو شأنُ الله، لا شأنُنا نحن، هو موقفُ البساطة الداخليُّ الثاني. فإنَّ الله قادرٌ على حماية ما نملكه. وفي وسعنا أن نثق به. أيعني هذا أنَّه لا ينبغي لنا أبدًا أن نُخرِج المفاتيح من السيَّارة أو أن نُقفلَ باب بيتنا؟ طبعًا لا. ولكنَّنا نعلم أنَّ قفلَ الباب ليس هو ما يحمي البيت. فاتِّخاذُ الاحتياطات المعتادة أمرٌ تقضي به الفِطرةُ السليمة؛ ولكنْ إذا اعتقدنا أنَّ الاحتياط بحدِّ ذاته يحمينا نحن وممتلكاتنا، فإنَّ القلق يُنغِّصُنا. وبصراحة، ليس ثمَّة أيُّ احتياط يحول دون السَّرقة. ومن البديهيِّ أنَّ هذه الشؤون لا تقتصر على الممتلكات، بل تشمل أيضًا أمورًا مثل سُمعَتِنا ووظيفتنا. فالبساطة تعني حرِّيَّة التوكُّل على الله بخصوص هذه الأُمور (وجميعِ الأُمور).

وجعْلُ مُمتلكاتنا كلَّها متوافرة للآخرين يُشكِّل موقفَ البساطةِ الداخليَّ الثالث. فإنْ كانت ممتلكاتنا غير متوافرة لأهلنا، في حين أنَّ هذا الأمر صحيحٌ وجيِّد على نحوٍ جليّ، فإنَّها إذ ذاك تكون بضائعَ مسروقة. أمَّا سببُ استصعابِنا فكرةً كهذه إلى أبعد حدٍّ فهو خوفنا بشأن المستقبل. فنحن نتشبَّث بمُمتلكاتنا بدلًا من إشراك الآخرين فيها لأنَّنا قَلِقون من جهة الغد. ولكن إن كنَّا نؤمن حقًّا بأنَّ الله هو مَن يقول السيِّد المسيحُ إنَّه هو، فلا داعيَ عندئذٍ لأنْ نكون خائفين. فحين نغدو ناظرينَ إلى الله بصفته الخالقَ القادر على كلِّ شيء وأيضًا أبانا المُحبّ، نستطيع أن نُشرك الآخرين في ما نملكه لأنَّنا نعلم أنَّه هو يعتني بنا. وإن كان أحدٌ في ضيق، نكونُ أحرارًا لأنْ نمدَّ إليه يدَ العون. وهنا أيضًا، لا بدَّ للفطرة السليمة السويَّة من أن ترسم حدود مشاركتنا وتُنقِذنا من التهوُّر.

فعندما نكون طالبين أوَّلًا ملكوت الله، تتميَّزُ حياتُنا بهذه المواقف الثلاثة. وإذ نحسبها معًا، تُحدِّد لنا ما عناه المسيح بقوله "لا تهتمُّوا". فهي تُشكِّل الحقيقة الداخليَّة للبساطة المسيحيَّة. ولنا أن نكون على يقين بأنَّنا حين نعيش بهذه الطريقة تكون لنا أيضًا الأُمورُ "هذه كلُّها" الضَّروريَّةُ للاستمرار في الحياة البشريَّة على نحوٍ وافٍ.

التعبير الخارجيُّ عنِ البساطة

أنْ نَصِفَ البساطة فقط بأن نعدَّها حقيقة داخليَّة هو كقولنا إنَّ شيئًا ما زائفًا. فالحقيقة الداخليَّة لا تكون حقيقةً بغير أن يكون تعبيرٌ خارجيٌّ عنها. إذ إنَّ اختبارَنا روحَ البساطة المُحرِّرة **لا بدَّ** أن يؤثِّر في طريقة حياتنا. وكما نبهَّتُ آنفًا، فإنَّ كلَّ محاولة لإضفاء تطبيقٍ محدَّد على البساطة تعرِّضنا لخطر التردِّي في الناموسيَّة الشكليَّة. ولكنَّ هذه مُخاطَرةٌ يجب أن نخوضها، لأنَّ رفْضَنا مناقشةَ

التفاصيل يُقصي الانضباط إلى الجانب النظريّ. ثُمَّ إنَّ كَتَبَةَ الوحي خاضوا هذه المخاطرة دائمًا.* وعليه فإنَّني أهتدي بِهَديهم، وأقترحُ عشرة مبادئ ضابطة للتعبير الخارجيِّ عنِ البساطة. ولا ينبغي أبدًا أن يُنظَر إلى هذه المبادئ على أنَّها قوانين، بل مجرَّد مُحاولةٍ لتجسيد معنى البساطة بالنسبة إلى زماننا الحاليّ.

أوَّلًا، اشترِ الأشياء من أجل نفعها، لا من أجل وضعها. فالسيَّارات ينبغي أن تُشترى من أجل استعمالها، لا لأجل استعراضها. فكِّرْ في ركوبِ درَّاجة! وعند دراسة وضع شقَّةٍ أو بيت، ينبغي التفكير في مُلاءمته للإقامة فيه، لا في مدى حيازته إعجابَ الآخرين. ولا تكُن لديك مساحةُ عيشٍ أوسعُ من المعقول. وبعد، فمَن ذاك الذي يحتاج إلى سبعة غرف لشخصَين فقط؟

ثُمَّ فكِّر في ثيابك. فمعظم الناس لا يحتاجون إلى مزيدٍ من الملابس. وهم يشترون المزيد ليس بسبب احتياجهم إلى ثياب، بل لأنَّهم يريدون مجاراة الأزياء الدارجة. دعكَ من الأزياء! اشترِ فقط ما تحتاج إليه. وارتدِ ثيابك حتَّى تَبلى. كُفَّ عن محاولة إثارة إعجاب الناس بثيابك، وأثِّر فيهم بحياتك. وإن كان الأمر عمليًّا بالنسبة إلى وضعك، فتعلَّمْ بهجة تخييط الملابس. وإكرامًا لله (أنا أعني حرفيًّا ما أقول)، اقتنِ ثيابًا عمليَّة، لا تزيينيَّة. وقد كتب جون وسلي: "أمَّا بخصوص الثياب، فأنا أشتري أكثرها دوامًا وبقاءً، وأبسطَها عمومًا، حسْبَما أستطيع. ولا أشتري من الأثاث إلَّا ما هو ضروريٌّ ورخيص الثمن".[٦]

ثانيًا، تخلَّ عن أيِّ شيء يُنشئ لديك تعلُّقًا أو إدمانًا. وتعلَّم التمييز بين الحاجة النفسيَّة الحقيقيَّة- كالبيئة البهيجة مثلًا- والإدمان. فامتنِعْ أو قلِّلْ منِ

* أمرٌ مُحزِن أن ندرك أنَّ محاولة أسفار الوحي تطبيقَ مبدإ البساطة على حضاراتٍ بعينها قد عمَّمتها الأجيال المتعاقبة وحوَّلتْها إلى قوانين تقتل النَّفس. فانظر مثلًا القوانين التي تحظر على المؤمنات ضفرَ شعرهنَّ أو لبس خواتم لأنَّ بطرس قال لنساء زمانه: "لا تكُن زينتكنَّ الزينَة الخارجيَّة، من ضفر الشعر، والتحلِّي بالذهب، ولبس الثياب" (١بط٣: ٣).

استعمال المشروبات غير المغذِّية والمُنشئة للإدمان: كالكحول والقهوة والشاي والكُولا، وما إليها. وقد باتَتِ الشوكولاتة إدمانًا مُقلقًا لدى كثيرين. وإن كنتَ قد صرت مدمنًا للتلفاز، فبِع جهازك بأيِّ ثمن أو تخلَّص منه. وأيُّ شيءٍ ذي صلة بوسائل الإعلام تجدُ أنَّك غير قادر على الاستغناء عنه، تخلَّص منه: الراديو والستيريو وأشرطة الڤيديو والصُّحف والمجلَّات والكُتب. وإنِ استبدَّ المالُ بقلبك، فوزِّع شيئًا منه لتنعمَ براحة داخليَّة. إنَّ البساطة حُرِّيَّة، لا عبوديَّة. فارفض أن تكون عبدًا لأيِّ شيءٍ ما عدا الله.

وتذكَّر أنَّ أيَّ إدمان، من حيثُ طبيعته ذاتها، هو شيءٌ خارجَ نطاق سيطرتك. فقراراتُ الإرادة وحدها غيرُ نافعة في قهر إدمانٍ حقيقيّ. إذ لا يسعك أن تعقد العزم على التخلُّص منه ببساطة. ولكنَّ في وسعك أن تُقرِّر فَتْح هذا الرُّكن من حياتك لنعمة الله الغافرة وقدرته الشافية. وفي وسعك أن تُقرِّر السَّماح للأصدقاء المُحبِّين، العارفين بطُرق الصلاة، أن يقفوا إلى جانبك. وفي وسعك أن تُقرِّر العيشَ ببساطةٍ كلَّ يومٍ بمُفردِه متوكِّلًا بهدوء على تدخُّل الله.

كيف تُميِّز الإدمان؟ بكلِّ بساطة، ارصُدِ التصرُّفاتِ الاضطراريَّةَ غير المنضبطة. فإنَّ طالبًا صديقًا أخبرني عن صباحٍ يوم ذهب فيه لإحضار صحيفته فلم يجدها. إذ ذاك استولى عليه الذُّعر، متسائلًا كيف سيُتاح له أن يبدأ نهاره بغير الصحيفة. ثُمَّ لمح صحيفةً صباحيَّة في فِناءِ جارِه، فبدأ يُخطِّط كيف يمكنه أن يتسلَّل ويسرقها. وفي الحال أدرك أنَّه يتعامل مع إدمانٍ حقيقيّ. فاندفع إلى الداخل، وخابر مكتب الصحيفة طالبًا إلغاء اشتراكه فيها. وإذ كانت موظَّفة الاستقبال، على ما بدا، تملأُ استئمارةً، سألته بلطف: "لماذا تقوم بإلغاء اشتراكك في الصحيفة؟" فأجاب توًّا: "لأنِّي مُدمِن!" وبغير تردُّد، عادت موظَّفة الاستقبال تسأله: "أتودُّ إلغاء اشتراكك كلِّه، أم تُريد الإبقاء على طبعة يوم الأحد؟" فكان ردَّه الحاسم: "لا، لقد استغنيتُ عنِ الصحيفة تمامًا!" والآن، من البَدَهيِّ ألَّا يكون الجميع مُضطرِّين إلى إلغاء

اشتراكهم في الصحيفة، ولكنَّ هذا كان تصرُّفًا مُهمًّا بالنسبة إلى ذلك الشابّ.

ثالثًا، اكتسب عادةَ إعطاء الأشياء. فإذا تبيَّن لك أنَّك آخِذٌ في التعلُّق بأحد مُمتلكاتك، ففكِّر في إعطائه لشخصٍ يحتاج إليه. وما زلتُ أذكر عيدَ الميلاد الذي قرَّرتُ فيه أن أُعطيَ شيئًا كان يعني لي الكثير، بدلًا من شراء شيءٍ أو مُجرَّد صُنعه. وقد كان دافعي أنانيًّا، إذ أردتُ أن أختبر التحرُّر الناجم عن هذا الفعل البسيط المتمثِّل بالفقر الطوعيّ. وكانت هذه العطيَّة درَّاجة ذات عشر سرعات. وبينما أنا مُنطلِقٌ إلى بيت الشخص المقصود لإعطائه الهديَّة، أذكرُ أنَّني كنتُ أُرنِّم بمعنًى جديدٍ قرارَ ترنيمة تعبُّديَّة يقول: "مجَّانًا مجَّانًا أخذتُم، مجَّانًا مجَّانًا أعطوا!" ولمَّا كان ابني ناثان في السادسة من عمره، سمع عن زميلٍ له كان بحاجة إلى سلَّة طعام، فسألني هل يستطيع أن يُعطيَه سلَّة طعامه الخاصَّة. هلِّلويا!

تخلَّص من التخزين! إنَّ أكوام الأشياء التي نحتاج إليها تُعقِّد الحياة. فيجب أن تُصنَّف وتُخزَن ويُنفَض غُبارُها، ثُمَّ تُصنَّف وتُخزَن مرارًا حتَّى الغَثَيان! وفي وسع معظمنا أن يتخلَّصوا من نصف ممتلكاتهم بغير تضحية جِدِّيَّة. فإننا نُحسِن صنعًا إذا عملنا بنصيحة ثُورو* (Thoreau): "بسِّط، بَسِّط!"

رابعًا، ارفُض أن تُذعِنَ لدعايات مُروِّجي الأدوات العصريَّة. فالأجهزة الموفِّرة للوقت لا تكاد تُوفِّر الوقتَ أبدًا. وحذارِ الوعد: "إنَّ هذا الجهاز سيَرِدُّ ثمنه في ستَّة أشهر". فمُعظم الأدوات مصنوعةٌ لتتعطَّل وتبلى، وبذلك تُعقِّد حياتنا بدلَ أن تُعزِّزَها. وهذه المشكلة بليَّة في صناعة الألعاب. فالأولاد لا يحتاجون إلى تسليةٍ من دُمًى تبكي وتأكل، وتبول وتتعرَّق وتبصق. إذ قد تكون دُميةُ خِرَقٍ عتيقةٌ أكثر إبهاجًا وبقاءً. وغالبًا ما يستمتع الأولاد باللَّعِب بالقُدور والمقالي القديمة

* هو هنري ديفيد ثورو، كاتب مقالاتٍ وشاعرٌ وفيلسوف أمريكيّ، عاش في المدَّة ما بين ١٨١٧ و١٨٦٢ (الناشر).

أكثر من أحدَث مجموعة من اللُّعَب الفضائيَّة. ففتِّش عن ألعابٍ تكون تثقيفيَّةً ومتينة. واصنع بيدَيك بعضًا منها.

إنَّ الأدوات العصريَّة تُشكِّل في العادة استنزافًا لا داعيَ له لموارد الطاقة في العالم. فالولايات المتَّحدة تضمُّ أقلَّ من ٦٪ من سكَّان العالم، ولكنَّها تَستنفِد أكثر من ٣٣٪ من الطاقة المتوافرة في العالم. ومُكيِّفات الهواء في الولايات المتَّحدة وحدها تستهلك من الطاقة الكمِّيَّةَ نفسها التي تستهلكها بلاد الصين كلُّه*.[٧] إنَّما المسؤوليَّة البيئيَّة وحدها ينبغي أن تمنعنا من شراء أغلبيَّة الأدوات المُنتَجة اليوم.

ويحاول وكلاء الدعاية أن يقنعونا بأنَّه لسبب كون الطراز الأحدث لهذا أو ذاك يتميَّز بلمحةٍ جديدة (قد تكون مجرَّد حلية!)، يجب أن نبيع الشيءَ القديم ونشتريَ الجديد. فماكينات الخياطة لها درزات جديدة، والسيَّارات لها تصميمات جديدة، والستيريوهات لها أزرار جديدة. ومن الضَّروريِّ أن نتفحَّص بدقَّةٍ هذا النَّوعَ من المزاعم الإعلانيَّة. فغالبًا ما تُغرينا الملامح "الجديدة" بشراء ما لا تحتاج إليه. وربَّما كان ذلك البرَّاد البسيط سيخدمنا جيِّدًا إلى مدًى بعيد ما دمنا على قيد الحياة، رُغم خلوِّه من مُكوِّن الثلج الأوتوماتيِّ وافتقاره إلى المنظر الخارجيِّ الفاخر.

خامسًا، تعلَّم أن تتمتَّع بالأشياء دون أن تمتلكها. فامتلاكُ الأشياء هاجسٌ استحواذيٌّ في الحضارة العصريَّة. فإن امتلكْنا الشيء، نشعر أنَّنا نستطيع أن نُسيطِر عليه؛ وإن استطعنا السيطرة عليه، نشعر بأنَّه سيؤتينا مزيدًا من السُّرور. إنَّما هذه الفكرة وهم؛ إذ في الحياة أشياءُ كثيرة يمكن التمتُّع بها دون امتلاكها أو السيطرة عليها. فشارِك في الأشياء. تمتَّع بالشاطئ دون أن تشعر بأنَّك مُضطرٌّ إلى شراء قطعة منه. وتمتَّع بالمكتبات والمُتنزَّهات العامَّة.

* هذه الإحصائيَّات مستندةٌ إلى دراسةٍ أُجريَت عام ١٩٧٧، واقتضى التنويه لأنَّ إحصائيَّات استهلاك الطاقة قد تغيَّرَت كثيرًا مذ ذاك (الناشر).

سادسًا، اكتسِب تقديرًا أعمق للخليقة. اقترِب من الأرض. سِر على قدميك كلَّما استطعت. أصغِ إلى الطيور. استمتع بديباجة الأوراق والأعشاب. اشتمَّ الأزهار. انعَم بروعة الألوان الغنيَّة في كلِّ مكان. فالبساطة تعني أن تكتشف من جديد أنَّ "للربِّ الأرض وملؤها" (المزمور٢٤: ١).

سابعًا، انظر بتشكيك سليم إلى كلِّ عرضٍ شعارُه "اشترِ الآن، وادفَع لاحقًا". فهذا فخّ، وهو إنَّما يزيد عبوديَّتك شدَّةً. إذ إنَّ أسفار العهدَين القديم والجديد كليهما تشجب الرِّبا لأسبابٍ صالحة. ("الرِّبا" في الكتاب المقدَّس لا يُستعمَل بالمعنى الحديث الذي يُضفى عليه أحيانًا ليدلَّ على الرِّبا الفاحش، بل يُشير إلى أيِّ نوعٍ من الفائدة على الإطلاق). فقد حُسِب فرْضُ فائدةٍ استغلالًا غير أخويٍّ لبؤسِ شخصٍ آخر، ومن ثَمَّ إنكارًا للمشاركة. وقد ندَّد المسيح بالرِّبا كإحدى علامات الحياة القديمة، وحضَّ تلاميذه أنْ "أحسِنوا وأقرضوا، وأنتم لا ترجون شيئًا" (لوقا٦: ٣٥).

لا ينبغي لكمات الوحي هذه أن تُرفَّع إلى نوعٍ ما من الوصايا الشاملة التي يتعيَّن أن يعمل بها المنتمون إلى مختلف الحضارات في كلِّ زمان. ولكن لا ينبغي أيضًا أن تُعدَّ غيرَ ذاتِ صلةٍ بالمجتمع الحديث قطعيًّا. فوراء وصايا الكتاب المقدَّس هذه قرونٌ من الحكمة المتراكمة (وربَّما شيءٌ من الاختبارات المرَّة!). ومن المؤكَّد أنَّ التعقُّل، فضلًا عنِ البساطة، يقتضي أن نتوخَّى أقصى الحَذَر قبل تركيب دَينٍ على رؤوسنا.

ثامنًا، أطِع توجيهات المسيح بخصوص الكلام الصريح الصحيح. "ليكنْ كلامكم: نعم نعم، لا لا؛ وما زاد على ذلك فهو من الشِّرِّير" (متَّى٥: ٣٧). فإن قبلتَ القيام بمَهمَّةٍ ما، فقُم بها. وتجنَّبِ التملُّق ونصفَ الحقيقة. وليكُنِ الصِّدقُ والاستقامة من مزايا كلامك المميَّزة. وارفُضِ الأقوال المُوهِمَة

والتخمينات الغامضة التي تهدف إلى إضفاء الإبهام وإثارة الإعجاب بدلًا من الإفهام والإعلام.

إنَّ الكلام الواضح صعبٌ لأنَّنا نادرًا ما نعيش انطلاقًا من **المركز** الإلهيِّ، ونادرًا ما نستجيب للتلقينات السماويَّة وحدَها. فغالبًا ما يحدِّدُ قولَنا "نعم" أو "لا" خوفُنا ممَّا قد يفتكره الآخرون، أو كثيرٌ جدًّا من الدَّوافع الأُخرى، بدلًا من إطاعتنا للحوافز الإلهيَّة. ثُمَّ إذا سنحت فرصةٌ أكثر جاذبيَّة، نعكس قرارنا بسرعة. ولكنْ إذا نَبَعَ كلامُنا من إطاعتنا للمركز الإلهيِّ، فلن نجد داعيًا لتغيير قولنا "نعم" إلى "لا" وقولنا "لا" إلى "نعم". وسنكون عائشين في بساطة الكلام لأنَّه سيكون لكلماتنا **مصدرٌ** واحد. وقد قال سورين كيركيغارد: "إذا كنتَ مطيعًا لله طاعةً مُطلقة، فلا يكون فيك غموضٌ عندئذٍ... بل تكونُ أنتَ البساطةَ مجرَّدةً أمام الله... ويتوافر أمرٌ واحدٌ لا تستطيع أن تأخذَه على حينِ غِرَّة جميعُ مَكايِد الشيطان وكلُّ أشراك التجربة، ألا وهو البساطة".[٨]

تاسعًا، ارفُض أيَّ شيءٍ من شأنه أن يؤدِّيَ إلى ظُلم الآخرين. وربَّما لم يُجسِّد أحدٌ هذا المبدأ على نحوٍ أكمل ممَّا جسَّده الخيَّاط الصاحبيُّ جون وُلمان. فإنَّ **يوميَّاته** الشهيرة زاخرةٌ بالإشارات اللطيفة إلى توقه لأن يعيش بطريقة تُجنِّبه ظُلم الآخرين. "هنا أُرشِدْتُ إلى تساؤلٍ حثيث ومُضنٍ لأرى هل تباعدتُ عن كلِّ ما يميل إلى إثارة الحروب أو له علاقةٌ بها... لقد كان قلبي مَعنيًّا في الصميم بأن أكون في المستقبل مُتمسِّكًا بالحقِّ النقيِّ بشأن كلِّ شيء تمسُّكًا دائمًا ثابتًا، وبأن أعيش وأسلك في الصراحة والبساطة اللتَين يتَّسم بهما تابعُ المسيح المُخلِصُ... وهُنا بدا التنعُّم والاشتهاء- مع ما يُواكِبُهما من مظالمَ وشرورٍ كثيرة- مُحزِنَين لي جدًّا".[٩] إنَّ هذه واحدةٌ من قضايا الحياة الأكثر صعوبة وحسَّاسيَّةً والتي لا بدَّ لنا من أن نواجهها. فهل يرتشف الأميركيُّون قهوتهم ويأكلون موزهم على حساب استغلال فلاَّحي أميركا اللاتينيَّة؟ وفي عالَمٍ محدود الموارد، هل تعني شهوةُ

الغنى لدينا الفقرَ للآخرين؟ وهل ينبغي أن نشتريَ مُنتَجاتٍ قد صُنِعَت بإجبار العمَّال على الكدِّ والكدح في المصانع؟ أوَننعمُ في الشركة أو المصنع بعلاقاتٍ تراتُبيَّة (خاضعةٍ لهيكلٍ تنظيميّ) تُبقي الآخرين في منزلةٍ دُونٍ خاضعةٍ لنا؟ وهل نَطغى على أولادنا أو زوجاتنا لأنَّنا نشعر بأنَّ بعض الأعمال أدنى من أن نتولَّاها نحن؟

وغالبًا ما يَصطَبِغ ظُلمنا بالتمييز العُنصريِّ أو القوميِّ أو ذاك المبنيِّ على الجنس. فما زال لون البَشَرة يؤثِّر في مركز المرء في الشركة. وما زال جنسُ المتقدِّم إلى وظيفةٍ ما يؤثِّر في الراتب الذي يُعطاه. وما زال أصلُ الشخص القوميُّ يؤثِّر في طريقة النظر إليه. عسى أن يُعطِيَنا الله اليوم أنبياء- مثل جون وُلمان- يَردُّوننا عن "اشتهاء الغنى" حتَّى نتمكَّن من "تحطيم نير الظُّلم"![10]

عاشرًا، تجنَّب أيَّ شيء يُلهيك عن طلب ملكوت الله أوَّلًا. إذ من السَّهل أن تفقد التركيز في سياق طلبك للأشياء المشروعة، بل الخيِّرة أيضًا. فإنَّ المهنة والمنصب والمقام والعائلة والأصدقاء والأمان- هذه كلَّها وكثيرًا غيرها- يمكن أن تغدوَ بسرعةٍ فائقة بؤرةَ التركيز. ويُحذِّر جورج فوكس قائلًا: "يتهدَّدكم خطرٌ وتجربةٌ بأن تستوليَ أشغالُكم على عقولكم وتُلبِّدَها، بحيث لا تكادون تقدرون على القيام بأيِّ شيءٍ في نطاق خدمة الله. آنذاك تغوص عقولكم في الأشياء، بدلَ أن تمرَّ بها مرورَ الكرام... ثُمَّ إذا الْتَقاكمُ الربُّ الإله وأوقفكم، في البحر أو البَرّ، وأخذ منكم بضائعكم ورسومَ سَفَرِكم، حتَّى لا تُرهَقَ عقولكم، فإنَّ العقل المُرهَق عندئذٍ لا بُدَّ أن يضطرب ويُذعرَ، لكون قدرة الله نَفِدت منه".[11]

أرجو أن يُعطيَكم الله- ويُعطيَني- الشجاعة والحكمة والقوَّة دائمًا كي نُعليَ شأن ملكوت الله بوضعه في المرتبة الأولى في حياتنا. وأن نفعل هكذا هو أن نعيش في البساطة.

٧

انضباطُ العُزلة

سكِّن نفسك في إطار العُزلة، تلتقِ الربَّ في نفسك.

تريزا الأَفيليَّة (Teresa of Ávila)

إنَّ المسيح يدعونا من الوَحدة إلى العُزلة. والخوفُ من تَرْك المرء وحده يصعق الناس. فرُبَّ فتاة جديدة في الحيِّ تقول لأُمِّها باكيةً: "لا أحدَ يلعب معي أبدًا". ورُبَّ شابٍّ في السنة الجامعيَّة الأُولى يحنُّ إلى أيَّام المدرسة الثانويَّة حينَ كان قطبَ الجاذبيَّة: "أنا الآن نَكرة". ومُديرة أعمالٍ تجلس مكتئبةً في مكتبها، قويَّةً لكنْ وحيدة. وعجوزٍ تستلقي في دارِ عَجَزةٍ بانتظارِ أن تمضي إلى "البيت".

وخوفُنا من أن نُترَك وحدَنا يدفعنا إلى حيث الضَّوضاء والجُموع. فنُحافظ على سَيلٍ دائم من الكلمات حتَّى لو كانت تافهة. ونشتري راديوهات تُربَط في معاصمنا، أو تُركَّز فوق آذاننا، حتَّى إذا لم يكن بقربنا أحد لا يُحكم علينا بالصَّمت على الأقلّ. وقد أحسن تي. أس. إليُوت تحليل الحضارة الغربيَّة إذ كتب: "أين سيُوجَد العالَم، أين ستتردَّدُ أصداء الكلمة؟ ليس هنا، حيثُ لا صمتٌ كافٍ!"[1]

ولكنَّ الوَحدة أوِ الثرثرة ليسَتا الخِيارَين الوحيدَين أمامنا. ففي وسعنا أن

نتعهَّد عُزلةً وصمتًا داخليَّين يُحرِّراننا من الوَحدة والخوف. ذلك أنَّ الوَحدة فراغٌ داخليّ؛ أمَّا العُزلة فشِبَعٌ داخليّ.

والعُزلةُ حالةٌ ذهنيَّة وقلبيَّة أكثر من أن تكون مكانيَّة. فثمَّة عُزلة قلبيَّة يمكن الحفاظ عليها كلَّ حين. وليس لحُضور الجموع أو لغيابها كثيرٌ من العلاقة بهذه اليقظة الداخليَّة. فمن الممكن أن يكون المرء ناسكًا في الصحراء ولا يختبر العُزلة أبدًا. أمَّا إذا كانت لنا عُزلةٌ داخليَّة، فلا نخشى البقاء وحدنا، لأنَّنا نعلم أنَّنا لسنا وحيدين. ولا نخشى أيضًا أن نوجَد مع الآخرين، لأنَّهم لا يسيطرون علينا. ففي خِضمِّ الضجيج والتشويش، نستقرُّ في صمتٍ داخليٍّ عميق. وسواءٌ أبمفردنا كُنَّا أم بين الناس، نحمل معنا دائمًا مَقدسًا قلبيًّا قابلًا للحَمْل والنَّقل.

هذا، وإنَّ للعزلة الداخليَّة تجلِّياتُها الخارجيَّة. إذ تتوافر حرِّيَّة كون المرء وحدَه، لا ليكون بمنأًى من الناس، بل ليسمع **الهمس** الإلهيَّ بطريقة أفضل. فإنَّ المسيح عاش في "عُزلة قلبيَّة" داخليَّة. وقد اختبر أيضًا العُزلة الخارجيَّة تكرارًا. فقد استهلَّ خدمته بقضائه أربعين يومًا وحيدًا في البرِّيَّة (متَّى٤: ١-١١). وقبل اختياره للاثني عشر، قضى الليل كُلَّه وحيدًا في التِّلال البرِّيَّة (لوقا٦: ١٢). ولمَّا بلغه نعيُ يوحنَّا المعمدان "انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفردًا" (متَّى١٤: ١٣). وبعد الإشباع المُعجزيِّ للخمسة الآلاف، "صعد إلى الجبل منفردًا..." (متَّى١٤: ٢٣). وفي أعقاب ليلٍ طويل حافل بالعمل "في الصبح باكرًا جدًّا قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء..." (مرقس١: ٣٥). ولمَّا رجع الاثنا عشر من إرساليَّة شفاء وتبشير، وجَّههم يسوع قائلًا: "تعالَوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء" (مرقس٦: ٣١). وعلى أثر شفاءِ أبرص، "كان يعتزل في البراري ويُصلِّي" (لوقا٥: ١٦). وبصحبة ثلاثة من تلاميذه، طلب صمتَ جبلٍ منفردٍ ليكون مسرحًا للتجلِّي (متَّى١٧: ١-٩). وعند استعداده لعمله الأسمى والأقدس، التمس عُزلةَ بُستانِ جَثسَيماني (متَّى٢٦: ٣٦-٤٦). ولئن كان في

وسعي أن أستمرَّ، فربَّما هذا كافٍ لتبيين كون المسيح قد طلب الأماكن المعزولة كممارسة منتظمة لديه. وكذلك ينبغي أن تكون الحال بالنسبة إلينا أيضًا.

في كتابٍ بقلم دَيترتش بونهويفر (Dietrich Bonhoeffer) عنوانُه "الحياة معًا" (Life together)، عَنْونَ الكاتبُ أحدَ فصوله "اليوم معًا" والفصل التالي " اليوم وحدَه". وكِلا هذين جوهريٌّ في سبيل النجاح الروحيّ. وقد كتب بونهويفر: "ليحذَرْ مَن لا يقدر أن يبقى وحده من المُخالَطة.. وليحذَرْ مَن ليس في المُخالطة من البقاء وحده... فكِلا الأمرَين بحدِّ ذاته ينطوي على أشراك وأخطار. فمَن أراد الشَّركة دون العُزلة، غاص في عُقم الكلام والمشاعر؛ ومَن طلب العُزلة دون الشَّركة، هلك في هُوَّة الغرور والافتتان بالذات واليأس".[٢]

لذلك يجب أن نلتمس هدوء العُزلة المُجدِّد للنشاط إذا شئنا أن نوجَدَ مع الآخرين وجودًا غنيَّ المعنى. وعلينا أن نطلب الشَّركة مع الآخرين والمسؤوليَّة تُجاههم إذا شئنا أن نكون وحدنا بأمان. فيجب علينا أن نتعهَّد العُزلة والشَّركة كِلتَيهما إذا كان لنا أن نعيش طائعين.

العُزلة والصَّمت

لا عُزلةَ بلا صمت. ومع أنَّ الصمت أحيانًا يشتمل على غياب الكلام، فهو دائمًا يشتمل على فِعل الإصغاء. فإنَّ مجرَّد الامتناع عن التكلُّم، بغير قلبٍ مُصغٍ إلى الله، ليس صمتًا. "إنَّ يومًا تغمره الضَّوضاء والأصوات يمكن أن يكون يومَ صمت، إذا باتت الأصوات بالنِّسبة إلينا هي صدى حضور الله، وإذا كانت الأصواتُ لدينا رسائلَ الله ومناشداته. فعندما نتكلَّم من أنفُسنا ونكون ممتلئين بأنفُسنا، فإنَّنا نُخلِّف الصَّمت وراءنا. أمَّا عندما نُعيد كلمات الله الحميمة التي خلَّفها في داخلنا، يبقى صمتُنا سليمًا".[٣]

فعلينا أن ندرك الترابُط بين العُزلة الداخليَّة والصَّمت الداخليّ، لكونهما لا ينفصلان. وجميعُ الأشخاص الثِّقاتِ في ما يتعلَّق بحياة الداخل يتكلَّمون عن كِلا الأمرَين في آنٍ معًا. فإنَّ كتاب "الاقتداء بالمسيح"، وقد ظلَّ رائعةَ الأدب التعبُّديِّ الصامدةَ على مدى خمس مئة سنة، يضمُّ قسمًا عنوانُه "في إيثار العُزلة والصَّمت". ودَيترتش بونهويفر يجعل كِلا الأمرَين كُلًّا مُتكاملًا في "الحياةُ معًا"، كما يفعل مثلَه ثوماس مِرتُن (Thomas Merton) في كتابه "أفكارٌ في العُزلة" (Thoughts in Solitude). وبالحقيقة أنِّي ترددتُ حينًا مُحاولًا أن أُقرِّر هل أُعَنونُ الفصل الحاليَّ **انضباط العزلة** أو **انضباط الصَّمت**، ما دام الأمران مُترابِطَين ترابُطًا وثيقًا جدًّا في الأدب التعبُّديِّ الرفيع. فلا بُدَّ لنا إذًا من أن نُدرِكَ ونختبر قوَّة الصَّمت المُغيِّرة، إذا كان لنا أن نعرف العزلة.

يقول مَثَلٌ قديم: "جميعُ الذين يفتحون أفواهَهُم يُطبِقونَ عيونهم!" والغَرَض من الصَّمت والعزلة هو أن نتمكَّن من أن نرى ونسمع. فالضَّبط، لا سكونُ الضَّوضاء، هو مفتاح الصَّمت. وقد رأى يعقوب بجلاء أنَّ الشَّخص القادر على ضبط لسانه كامل (يع٣: ١-١٢). وفي إطار انضباط الصَّمت والعُزلة نتعلَّم متى نتكلَّم ومتى نُمسِك عن الكلام. إنَّما الشَّخص الذي ينظر إلى الانضباطات على أنَّها قوانينُ صارمة سيُحوِّل الصَّمت دائمًا إلى أمر سخيف: "لَن أتكلَّم طوال الأربعين يومًا التالية!" وهذه دائمًا تجربةٌ قاسية على أيِّ تلميذ يُريد أن يعيش في ظلِّ الصَّمت والعُزلة. فكما قال توما الكمبيسي: "أنْ نصمت كلِّيًّا أهونُ من أن نتكلَّم باعتدال".[٤]

وقد قال حكيمُ سفر الجامعة: "للسُّكوت وقت، وللتكلُّم وقت" (جا٣:٧). فالضَّبطُ هو المفتاح.

وفي تشبيه يعقوب اللسانَ باللِّجام والدَّفَّة ما يُوحي لنا أنَّ اللسان يَهدي كما

يضبط. فاللِّسان يَهدي طريقنا بوجوه كثيرة. فإنْ كذبنا كَذبة، نُضطرُّ لأنْ نكذب كَذبات أُخرى لتغطية الكَذبة الأُولى. وسرعانَ ما نُضطرُّ إلى التصرُّف بطريقة معيَّنة لكي نُضفي على الكَذبة لمسةً من الصدق. فلا عجبَ في أن يصرِّح قائلًا: "اللسان نار!" (يع٣:٦).

إنَّ الشخص المنضبطَ هو شخصٌ يستطيع أن يَفعل ما ينبغي أن يُفعَل حينَ ينبغي أن يُفعل. فالسِّمة التي يتَّسم بها فريقٌ يُحرز البطولة في كرة السلَّة هي أنَّه يستطيع أن يُسجِّل النِّقاط عندما تدعو الحاجة إليها. ففي وسع معظمنا إدخالُ الكُرة داخل الطَّوق آخرَ الأمر، ولكنَّنا لا نستطيع أن نفعل ذلك حين تدعو إليه الحاجة. على هذا المنوال، يستطيع الشَّخصُ العائش في ظلِّ انضباط الصَّمت أن يقول ما ينبغي أن يُقال حين ينبغي أن يُقال. "تُفَّاحٌ من ذهب في مَصوغ من فضَّة: كلمةٌ مقولة في محلِّها" (أمثال٢٥: ١١). فإنْ صَمتْنا حين ينبغي أن نتكلَّم، لا نكون عائشين في إطار انضباط الصَّمت. وإن تكلَّمنا حين ينبغي أن نصمت، نُخطئ إصابة الهدف أيضًا.

ذبيحة الجُهَّال

نقرأ في سفر الجامعة: "الاستماع أقرب من تقديم ذبيحة الجهَّال" (جا٥: ١). وذبيحة الجُهَّال هي خطابٌ دينيٌّ يحفز عليه دافعٌ بشريّ. إذ يضيف الجامعة: "لا تستعجلْ فمك، ولا يُسرعْ قلبُك إلى نطق كلام قدَّام الله؛ لأنَّ الله في السماوات وأنت على الأرض، فلذلك لتكن كلماتك قليلةً" (جا٥: ٢).

لمَّا اصطحب المسيحُ بطرسَ ويعقوب ويوحنَّا إلى الجبل، وتجلَّى أمامهم، ظهر موسى وإيليَّا وأجريا حديثًا مع الربِّ يسوع. ويمضي النصُّ اليونانيُّ ليقول: "فقال بطرس مُجيبًا... إن شئتَ نصنع هنا ثلاث مَظالّ..." (متَّى١٧: ٤). وهذا يُعدُّ

غايةً في التعبير. فإنَّ أحدًا لم يكُن يتكلَّم إلى بُطرس أصلًا. وهو بذلك كان يُقدِّم ذبيحة الجُهَّال.

وقد تضمَّنت **يوميَّات** جون وُلمان قصَّةً مؤثِّرة ولطيفة عن تعلُّم السَّيطرة على اللسان. ولمَّا كانت كلمات وُلمان نابضةً بالحياة كثيرًا، فالأفضل أن تُقتبَس كاملةً:

"ذهبتُ إلى الاجتماعات بحالة ذهنيَّة مُروِّعة، وجاهدتُ كي أتعرَّف داخليًّا بلُغة **الراعي** الصالح. وذاتَ يوم، إذ كنتُ تحتَ تأثير روحيٍّ قويّ، وقفتُ وقلتُ بضعَ كلمات في أحد الاجتماعات. ولكنْ لمَّا لم أبقَ قريبًا جدًّا من الكوَّة السماويَّة قلتُ أكثر ممَّا كان مطلوبًا منِّي. وإذ أدركتُ الخطأ الذي ارتكبتُه على وجه السُّرعة، عانيتُ ذهنيًّا بضعةَ أسابيع، دونَ أيِّ نورٍ أو عزاء، حتَّى إنَّني لم أستطِع أن أجد مسرَّةً في أيِّ شيء. لقد تذكَّرتُ الله واضطربتُ، وفي أعماق ضيقي أشفقَ عليَّ وأرسلَ **المُعزِّي**. ثُمَّ لمستُ الغفرانُ لمعصيتي، فبات ذهني هادئًا وساكنًا، وكنتُ شكورًا حقًّا لفاديَّ الكريم من أجل مراحمه. وبعد هذا بنحو ستَّة أسابيع، إذ أحسَسْتُ تدفُّقَ ينبوع المحبَّة الإلهيَّة، واهتمامًا بأن أتكلَّم، قلتُ كلماتٍ قليلةً في أحد الاجتماعات، حيث غمرني السلام. ولمَّا تذلَّلتُ وتأدَّبتُ هكذا عند قاعدة الصليب، أصبح إدراكي أكثر قوَّةً لتمييز الروح الطاهر الذي يَرِفُّ على القلب داخليًّا، والذي علَّمني أن أنتظر صامتًا عدَّة أسابيع معًا بعض الأحيان، حتَّى أشعرَ بتلك اليقظة التي تُهيِّئ المخلوق لأنْ يقف كأنَّه بوقٌ من خلاله يُكلِّم الربُّ قطيعه".[٥]

يا له من وصف لعمليَّة التعلُّم التي يجتازها المرءُ في انضباط الصَّمت! وقد كان ذا أهمِّيَّةٍ خاصَّة تزايُدُ قدرة وُلمان من جرَّاء هذا الاختبار على "تمييز الروح الطاهر الذي يرفُّ على القلب".

ومن الأسباب التي من أجلها لا نكادُ نُطيقُ البقاءَ صامتين أنَّ ذلك يجعلنا

نشعر بأنَّنا عاجزون جدًّا. فنحن معتادون كثيرًا أن نعتمد على الكلام كي نُدير الآخرين ونتحكَّم فيهم. وإن بقينا صامتين، فمن يتولَّى زمام السيطرة؟ إنَّ الله سيتولَّى الأمر، ولكنَّنا لن ندعه يُمسِك بالزمام ما لم نتوكَّل عليه. فالصَّمت مرتبطٌ بالتوكُّل ارتباطًا وثيقًا.

إنَّ اللسان هو سلاحنا الأقوى في الاستغلال. إذ يتدفَّقُ منَّا سَيلٌ مسعور من الكلمات لأنَّنا خاضعون لعمليَّة دائمة في تكييف صورتنا العلنيَّة. ونحن نخشى خشيةً شديدة ما نحسب أنَّ الآخرين يَرَونه فينا، بحيث نتكلَّم لكي نُقوِّم فهمهم لنا. فإن كنتُ قد فعلتُ أمرًا خاطئًا (أو حتَّى أمرًا صائبًا أعتقد أنَّك قد تُسيءُ فهمه) ثُمَّ تبيَّن لي أنَّك علمتَ به، أُغرى كثيرًا بأن أُساعِدَك على فهم تصرُّفي. والصمتُ واحدٌ من أعمق انضباطات **الروح** لمُجرَّد كونه يضع ما يشبه اللجام، وهو ما يحولُ دون كلِّ تبريرٍ لِذاتنا.

ومن ثِمار الصمت حُرِّيَّةُ السَّماح لله بأن يكون هو مَن يُبرِّرنا. فلا داعيَ لأن نضعَ الآخرين على السِّكَّة الصحيحة ونُصلحَ حالهم. وهناك قصَّة تُحكى عن راهبٍ من القرون الوسطى اتُّهِم ظُلمًا بارتكاب إساءات معيَّنة. فذاتَ يوم نظر من نافذته فرأى كلبًا يُعَضعِضُ ويُمزِّق خِرقةً كانت قد عُلِّقت كي تجفّ. وبينما هو يراقب ذلك، كلَّمه الربُّ قائلًا: "ذلك هو ما يحصل لسُمعتك. ولكنْ إن توكَّلتَ عليَّ، فسأتولَّى أمر الاعتناء بك- بسُمعتك وبكلِّ شيء". فربَّما كان الصمت، أكثر من أيِّ شيء آخر، يُوصِلُنا إلى الوثوق بأنَّ الله يستطيع أن يعتني بنا- "بسُمعتِنا وبكلِّ شيء".

غالبًا ما تكلَّم جورج فُوكس عن "روح العبوديَّة" وكيف يُودِعُ العالم هذه الروح ويُعزِّزها. وقد قَرَن فوكس تكرارًا روح العبوديَّة بروح الخضوع الذليل للكائنات البشريَّة الأُخرى. وقد تكلَّم في **يوميَّاته** عن "تحرير الناس من البَشَر"،

بإبعادهم عن روح العبوديَّة للنواميس، تلك التي تُشيعُها كائناتٌ بشريَّة أُخرى. والصَّمتُ طريقةٌ تؤدِّي بنا إلى هذا التحرير.

إنَّ اللسانَ ميزانُ حرارة؛ فهو يُعطينا درجة حرارتنا الروحيَّة. وهو أيضًا مُنظِّمُ حرارة؛ إذ يُنظِّم حرارتنا الروحيَّة. فضبط اللسان يمكن أن يعنيَ كلَّ شيء. تُرى، هل تحرَّرْنا بحيثُ نستطيع أن نصون ألسنتنا؟ لقد كتب بونهويفر: "إنَّ الصَّمت الحقيقيَّ، السُّكونَ الحقيقيَّ، صونَ المرءِ لسانَهُ حقًّا، يأتي فقط كحصيلة رصينة للسُّكونِ الروحيّ".[٦] ويُقال إنَّ القدِّيس دومينيك زار القدِّيس فرنسيس مرَّةً، وفي أثناء لقائهما لم يتفوَّه أيٌّ منهما بكلمة واحدة. فحين نتعلَّم أن نكون صامتين حقًّا، حينئذٍ فقط نتمكَّن من أن نتكلَّم بالكلمة التي ينبغي أن تُقال حينَ ينبغي أن تُقال.

وقد كتبَت كاثرين دي هايك دُوهرتي: "كلُّ ما فيَّ صامت... إنَّني غائصةٌ في سكون الله".[٧] فإنَّما في العزلة نصل إلى حيث نختبر "سكون الله"، وهكذا ننال السُّكونَ الداخليَّ الذي تتوق إليه قلوبنا توقًا شديدًا.

ليلُ النفس المُظلِم

أن نأخذ انضباط العُزلة على مَحمل الجِدِّ يعني أنَّنا عند نقطة أو أكثر من النِّقاط في مسيرتنا سندخل ما يصفه القدِّيس يوحنَّا الصليبيُّ (St. John of the Cross) بوضوح بأنَّه "ليل النفس المُظلِم". والليلُ المظلم الذي يدعونا إليه ليس شيئًا سيِّئًا أو هدَّامًا، بل هو على العكس اختبارٌ ينبغي الترحيب به كثيرًا كما قد يُرحِّب المريض بعمليَّة جراحيَّة تَعِدُ بالصِّحَّة والسلامة. وليس الغَرَض من الظلام أن يُعاقِبَنا أو يُعذِّبنا. إنَّما أن يحرِّرنا. فهو موعدٌ إلهيّ، فرصةٌ ممتازة للاقتراب إلى **المركز الإلهيِّ** عن كثب. ويدعوه القدِّيس يوحنَّا الصليبيُّ "نعمة خالصة"، ثُمَّ يُضيف:

أيُّها الليلُ الهادئ!
يا ليلًا أحبَّ من الفجر!
أيُّها الليلُ الذي قد وحَّد
بين **المُحِبِّ** ومحبوبه،
مُغيِّرًا صورة المحبوب في المُحِبّ.[٨]

علامَ يشتمل ليلُ النفس المُظلِم؟ قد يستولي علينا شعورٌ بالجفاف والوَحدة، بل بالضَّياع أيضًا. ونُجرِّد من أيِّ اعتماد مفرط على الحياة العاطفيَّة. والفكرة التي كثيرًا ما تُسمَع اليوم والتي تقول إنَّ اختباراتٍ كهذه ينبغي تجنُّبها، وإنَّ علينا دائمًا أن نعيش في سلام وسكينة وفرح واغتباط وحسب، فكرةٌ تنمُّ عن حقيقة كون كثيرٍ من الاختبارات المعاصرة رغوةً سطحيَّة. فإنَّ طريق الليل المظلم واحد من الطُّرق التي يُوصِلُنا بها الله إلى حالٍ من السكوت والسُّكون، حتَّى يُتاحَ له أن يُجريَ في النَّفس تغييرًا داخليًّا عجيبًا.

وكيف يُعبَّرُ عن هذا الليل المظلم في الحياة اليوميَّة؟ عندما نسعى إلى العزلة جِدِّيًّا، يحصل عادةً دفقٌ من النجاح الأوَّليّ، ثُمَّ فتورٌ لا بدَّ منه، تُصاحِبُه رغبةٌ في التخلِّي عن المسعى بجُملته. إذ ذاك تُفارِقُنا المشاعر ويسود إحساسٌ أنَّنا لا نشقُّ طريقنا إلى الله. ويصف الصليبيُّ ذلك هكذا: "إنَّ ظلام النفس المذكور هنا يجعل القابليَّات الحسِّيَّةَ والروحيَّة تغطُّ في النوم. إنَّه يُقيِّد الخيال ويُعيقه عن القيام بأيِّ عملٍ منطقيٍّ صالح. إنَّه يُوقِف الذاكرة، فيُصبح الفكر مُلبَّدًا وعاجزًا عن فهم أيِّ شيء، ومن ثَمَّ يجعل الإرادة أيضًا خاملة ومُوثَقة، وجميعَ مَلَكاتِ المرء خاوية وعقيمة. وفوقَ هذا كُلِّه تُخيِّم غمامةٌ كثيفة وثقيلةُ الوطأة تُعذِّب النفس وتُبقيها مُنكفئةً عن الله".[٩]

يستعمل الصليبيُّ مرَّتين في قصيدته "أُنشودة الروح" (Canciones del

Alma) العبارة "ها قد سكن بيتي كلُّه الآن".[١٠] وفي هذا الشَّطر المعبِّر يُشير إلى أهمِّيَّة السماح لجميع الإحساسات الطبيعيَّة والعاطفيَّة والنفسيَّة، بل الروحيَّة أيضًا، بأن تُسكَّن. فكلُّ ارتباكٍ للجسم والعقل والروح يجب أن يُدخَل في نوعٍ من النشاط المُعلَّق، قبل أن يتيسَّر لعمل الله العميق هذا أن يحصل في النفس. والأمر أشبه بعمليَّة جراحيَّة، حيث يجب أن يسري مفعول المُخدِّر قبل أن تُجرى الجراحة. فهنالك يسود الصَّمت والسَّلام والسكونُ داخل النفس. وفي أثناء وقتٍ كهذا تُخفق قراءةُ الكتاب المقدَّس والمواعظُ والنقاشُ المنطقيُّ كلُّها في تحريكنا أو التأثير فينا.

وحين يُدخِلُنا الله بمحبَّته في ليل نفسٍ مُظلم، تَمثُل دائمًا تجرِبةٌ تُغرينا بالسَّعي إلى الانعتاق منه، ولَوم كلِّ شخصٍ وكلِّ شيء من أجل بلادتنا الداخليَّة. فالواعظ غايةٌ في الملل. وترنيم التسابيح ضعيفٌ جدًّا. وخدمة العبادة بالغةُ الجفاف. وقد نُباشِر التفتيش عن كنيسة أخرى، أو عن اختبارٍ جديد يؤتينا "موجات سرور روحيَّة". إنَّما هذه غلطةٌ فادحة. فعليك أن تُميِّز الليل المظلم على حقيقته، شاكرًا الله لأنَّه بمحبَّته يُبعِدك عن كلِّ ارتباك حتَّى يتسنَّى لك أن تراه بجلاء. وبدلَ أن تغتاظ وتُقاتِل، عليك أن تهدأ وتنتظر.

لستُ أُشير هنا إلى تبلُّد الحسِّ حيال الأُمور الروحيَّة، ذاك الذي يحصل نتيجةً للخطيَّة أو عدم الطاعة، بل أتكلَّم عنِ الشخص الذي يطلب الله باجتهاد ولا يُضمِر في قلبه أيَّة خطيَّة معروفة.

مَن منكم خائف الربّ،
سامعٌ لصوت عبدِه؟
مَن الذي يسلك في الظُّلمات
ولا نور له؟

فليتَّكل على اسم الربّ،
ويستند إلى إلهه! (إشعياء٥٠: ١٠).

إنَّ بيت القصيد في هذه الآية الكتابيَّة هو أنَّه يُحتمَل كثيرًا أن يخاف المرءُ الربَّ ويُطيعه ويتوكَّل عليه، ومع ذلك "يسلك في الظُّلمات ولا نور له". فنحن نعيش طائعين، ولكنَّنا دخلنا في ليل نفس مظلم.

ويُشير القدِّيس يوحنَّا الصليبيُّ إلى أنَّه في أثناء هذا الاختبار تحصل حمايةٌ كريمة من الرذائل وتقدُّمٌ عجيب في أمور ملكوت الله. "مَن كان في أوقات الظلام هذه، فسيرى بوضوح بأيِّ مقدارٍ ضئيل تكون القابليَّات والمَلَكات مرتبكةً بأُمور باطلةٍ ومؤذية، وكم هو بمأمنٍ من الغرور أو الزَّهْو، ومن الكبرياء والاستِجراء ومن فرحٍ فارغٍ وباطل، ومن شرور أُخرى كثيرة. فبالسَّير في الظلام، تتقدَّم النفس تقدُّمًا سريعًا، لأنَّها بذلك تكتسب الفضائل".[١١]

ماذا ينبغي أن نفعل في وقتِ ظلمة داخليَّة كهذه؟ علينا أوَّلًا ألَّا نأخذ بنصيحة الأصدقاء الحَسَني النيَّات بأن نُفلِت منه. فهم لا يعُون ما هو جارٍ. وعصرُنا يجهل تمامًا أُمورًا كهذه، بحيثُ أُشير عليك بألَّا تتحدَّث بشأن هذه الأُمور مُجرَّد حديث. ومن بابٍ أَولى، لا تُحاوِلْ أن تُفسِّر أو تُبرِّر لأيَّة أسباب قد تكون "مُعتكِرَ المزاج". إنَّ الله هو مُبرِّرُك؛ فضع قضيَّتك في يده. وإن كان في وسعك فعلًا أن تنكفئ إلى "موضع خلاء" مُدَّةً من الزَّمن، فقُم بذلك. أمَّا إن كان لا، فواصِلِ القيام بمهامِّك اليوميَّة. ولكنْ سواءٌ أَفي البرِّيَّة كنتَ أم في البيت، لُذْ في قلبك بصمتٍ داخليٍّ عميقٍ مُصغٍ، واعتصِم هناك بالسُّكون ريثما ينتهي عمل العُزلة.

ربَّما كان يوحنَّا الصليبيُّ آخِذًا بأيدينا إلى مياهٍ أعمقَ ممَّا يَعنينا أن نخوضها. فيقينًا أنَّه يتكلَّم بشأن مجالٍ لا يراه معظمُنا إلَّا "في مرآة، في لُغز". إنَّما لا داعيَ لأنْ نلوم أنفُسَنا على تقاعُسِنا عن تسلُّق قِمَم النفس هذه التي تكسوها الثلوج.

فخيرٌ لنا أن نُقارِبَ أُمورًا كهذه باحتراس. ولكنْ ربَّما أثار الصليبيُّ في داخلنا اشتياقًا إلى اختباراتٍ أسمى وأعمق، مهما كان انجذابُنا ضئيلًا. فالأمرُ أشبهُ بفتح أبواب حياتنا ببطء شديد إلى هذه الرِّحاب. ذلك هو كلُّ ما يطلبه الله وكلُّ ما يبتغيه.

وختامًا لرحلتنا في غياهب ليل النَّفس المظلم، لنتأمَّل الكلمات القويَّة التالية التي قالها رائدُنا الروحيُّ القدِّيس يوحنَّا الصليبيّ: "إذَا أيَّتها النفس الروحيَّة، متى رأيتِ قابليَّاتكِ تغور في الظلام، وميولَكِ تجفُّ وتُقيَّد، ومَلَكَاتك تعجز عن أداء أيَّة مُمارسة داخليَّة، فلا تتضايقي؛ بل فكِّري في هذا كلِّه على أنَّه نعمة، ما دام الله مُحرِّرًا إيَّاكِ من ذاتكِ وآخِذًا منكِ نشاطَكِ".[١٢]

خطوات الدخول في العزلة

إنَّ الانضباطات الروحيَّة هي أُمور نقوم بها. وينبغي ألَّا تزوغَ أبصارُنا أبدًا عن هذه الحقيقة. فإنَّ التحدُّثَ بوَرَعٍ بشأن "عزلة القلب" أمرٌ حسن، ولكنْ إن كانت هذه لا تشقُّ طريقَها بصورةٍ ما إلى داخل دائرة اختبارِنا، نكون عندئذ قد أخطأنا الهدف في ما يتعلَّق بالانضباطات. فنحن إنَّما نتعامل مع أفعال، لا مُجرَّد أوضاع ذهنيَّة. إذ لا يكفي أن نقول: "حسنًا، إنَّني بكلِّ تأكيد حائزٌ العزلةَ والصَّمتَ الداخليَّين، فليس هنالك أيُّ شيء ينبغي أن أفعله". فإنَّ جميع الذين دخلوا أغوار الصَّمت الحيِّ قد قاموا بأُمورٍ معيَّنة، ورتَّبوا حياتهم بطريقةٍ خاصَّة تُتيح لهم أن يتقبَّلوا هذا السلام "الذي يفوق كلَّ عقل". فإنْ كان لنا أن ننجح، يجب أن نتخطَّى ما هو نظريٌّ إلى داخل أوضاع الحياة.

ما الخطوات أو بعضها التي بها ندخلُ العُزلة؟ أوَّلُ أمرٍ يمكننا أن نقوم به هو أن نستفيد من "العُزلات الصغيرة" التي يحفل بها يومُنا. فكِّر في عُزلة تلك اللحظات الصباحيَّة الباكرة في السرير قبل استيقاظ العائلة. وفكِّر في عُزلةِ فنجانِ

قهوةٍ في الصباح مُباشرة قبل عمل نهارك. وهنالك عُزلةُ ازدحام السيَّارات واحدةً لواحدة عندما تغصُّ الطُّرقات بما عليها في ساعات الزِّحام. ويمكن انتهازُ لُحَيظات من الراحة والانتعاش حين ندورُ حولَ مُنعَطف فنرى زهرةً أو شجرة. وبدلًا من صلاة الشُّكر الجهريَّة قبلَ تناولِ الطَّعام معًا، فكِّر في دعوة الجميع إلى المُشاركة في لُحَيظات صمت جماعيّ. وبينما كنتُ ذاتَ مرَّة أقود سيَّارة تغصُّ بالكبار والصِّغار المُثرثرين، بادرتُهم قائلًا: "لنلعبْ لعبةً كي نرى هل نستطيع جميعًا أن نظلَّ صامتين تمامًا حتَّى نصل إلى المطار" (على بُعد خمس دقائق). وقد فعل ذلك فعلَه، وكان أمرًا مباركًا. فالتمِسْ فرحًا ومعنًى جديدَين في الوقت القصير الذي تُمضيه ماشيًا من محطَّة القطار أو الباص إلى بيتك. وتسلَّل خارجًا قُبيلَ أن تخلِد إلى النوم، واستمتع باللَّيل الساكن.

هذه النُّتَف القليلة من الوقت غالبًا ما تضيع هباءً عندنا. ويا له من أمرٍ يُرثى له! إنَّما ينبغي أن تُفتدى ويمكن حدوث ذلك. فهي أوقاتٌ للسكينة الداخليَّة، لإعادة توجيه حياتنا كما بإبرة بُوصلة. وهي لُحَيظات تُساعِدنا على أن نكون حاضرين حضورًا أصيلًا حيث نحن.

ثُمَّ ماذا يمكن أن نفعل بعد؟ يمكننا أن نجد أو نُوجِد "مكان اختلاء" مُخصَّصًا للصَّمت والعُزلة. إنَّ البيوت تُبنَى دائمًا. فلماذا لا نُصرُّ على أن يُلحَظ في خريطة البناء مُختلًى داخليٌّ صغير، يستطيع أيُّ فردٍ من العائلة أن يقصده ليكون وحيدًا وصامتًا؟ وماذا يحول دون ذلك؟ أَهو المال؟ ألا تُبنى غُرَفُ ألعابٍ وجلوس ونوم مُتقَنةٌ، وتُحسَب مُستحقَّة كلفتَها؟ ومَن كان يملك منزلًا، ففي وسعه أن يُفكِّر في عزل رُكن صغير من المرأب أو الفِناء. أمَّا ساكنو الشِّقَق، ففي وسعهم أن يكونوا مُبتكِرين ويجدوا طُرقًا أُخرى لتيسير العُزلة. وأنا أعرف عائلةً لديها كُرسيٌّ خاصٌّ، متى جلس عليه أحدُ أفراد العائلة كان لسان حاله: "أرجو ألَّا تُزعِجوني، إذ أُريد أن أختليَ بنفسي".

ولنُوجدْ أماكنَ خارج البيت: رُكنًا في مُتنزَّه، أو مُختلًى في مبنى كنيسة يبقى مفتوحًا، أو حتَّى غُرفةَ تخزينٍ في مكانٍ ما. فإنَّ مركزَ رياضة روحيَّة على مقربة منَّا بنى حُجرةً جميلة تَتَّسع لشخص واحد لأجل التأمُّل والعُزلة الفرديَّين، وسمَّاه "المكان الهادئ". وفي أميركا، تُنفق الكنائس ملايين الدولارات على الأبنية. فلماذا لا يُبنى مكانٌ يستطيع الفردُ أن يقصد إليه ليبقى وحده بضعة أيَّام؟ إنَّ كاثرين دي هايك دوهرتي كانت رائدةً في إنشاء "پوستينيات" (پوستينيا كلمة روسيَّة معناها "صحراء") في أميركا الشماليَّة. وهذه أماكن مُصمَّمة تحديدًا لأجل العزلة والصَّمت.*

في الفصل الذي تطرَّقنا فيه إلى موضوع الدراسة، تأمَّلنا في أهمِّيَّة ملاحظة أنفسنا لكي نرى كم يغلب أن يكون كلامُنا محاولةً مسعورة لتفسير أفعالنا وتبريرها. وبعد أن تبيَّن لنا ذلك في أنفُسنا، لنُجرِّب أن نقوم بأعمالٍ دون أيِّ كلام تفسيريٍّ مهما كان نوعه. إذ ذاك نتنبَّه إلى شعورنا بالخوف من أن يُسيءَ الناسُ سبب قيامنا بما قُمنا به، ونلتمسُ أن نسمح لله بأن يكون هو مُبرِّرَنا.

فلنضبطْ أنفسنا بحيثُ تكون كلماتنا قليلةً وحافلةً بالمعنى. ولنَصِرْ معروفين بأنَّنا أشخاصٌ نملك ما نقوله حين نتكلَّم. ولنُحافظ على الكلام الصريح: أنْ نعمل ما نقول إنَّنا سنعمله. "أن لا تَنذُرَ خيرٌ من أن تَنذُرَ ولا تفي" (جامعة٥: ٥). فحين يكون لِسانُنا تحت سُلطاننا، تصحُّ فينا كلمات بونهويفر: "كثيرٌ ممَّا هو غيرُ ضروريٍّ يبقى غيرَ مَقول. أمَّا الأمر الجوهريُّ والنافع فيمكن أن يُقال بكلماتٍ قليلة".[١٣]

ثُمَّ اخْطُ خُطوةً أُخرى بعدُ: حاولْ أن تقضيَ يومًا كاملًا بلا كلام على الإطلاق.

* توصَف قصَّةُ تطوير هذه الأماكن في كتاب كاثرين دي هايك دوهرتي بعنوان: "پوستينيا: الروحانيَّة المسيحيَّة الشرقيَّة للإنسان الغربيّ" *(Poustinia: Christian Spirituality of the East for Western Man)* من منشورات دار نوتردم (Notre Dame, IN: Ave Maria Press, 1974).

لا تفعل ذلك كأنَّه قانون، بل على سبيل التجريب. ولاحظ تكرارًا شعورَك بالعجز واعتمادَك المُفرطَ على الكلام لأجل التواصُل. وحاول أن تهتديَ إلى طُرق للتفاهُم مع الآخرين لا تعتمدُ على الكلام. استمتع بيومك ذاك، وتلذَّذ به... وتعلَّمْ منه.

وأربعَ مرَّاتٍ في السَّنة، اعتزِلْ مدَّة ثلاث ساعات أو أربع بقَصدِ أن تعيدُ توجيهَ أهدافِ حياتك. ومن السَّهل أن تفعل هذا ذاتَ مساء. تأخَّرْ في مكتبك، أو قُم بذلك في منزلك، أو انتحِ رُكنًا هادئًا في مكتبة عامَّة. قوِّمْ مُجدَّدًا أهدافك وغاياتك في الحياة. ماذا تُريده مُنجَزًا بعد سنةٍ من الآن؟ وبعدَ عشرِ سنوات؟ إنَّنا ميَّالون إلى المغالاة في تقدير ما يمكن أن ننجزَه في سنةٍ واحدة ونَبخسَ تقدير ما يمكن أن ننجزه في عشر سنين. فانصُب أهدافًا واقعيَّة، إنَّما كن مستعدًّا لأنْ تحلُم وتتقدَّم. (هذا الكتاب كان حُلمًا في فكري على مدى سنوات قبل صيرورته واقعًا). وفي هدوء هذه السُّوَيعات، أصغِ إلى دويِّ سُكونِ الله. ثُمَّ دوِّن في مُفكِّرةٍ ما يأتيك.

ولا داعيَ لأنْ تكون إعادة التوجيه ونصب الأهداف عملًا باردًا وحَذِرًا، كما يفترض بعضُهم. فالأهداف تُكتشَف اكتشافًا، ولا تُصنَع صُنعًا. ويسرُّ الله أن يُرينا خياراتٍ جديدةً مُشوِّقة في ما يتعلَّق بالمستقبل. فربَّما حين ندخُلُ في صَمتٍ مُصغٍ يبرزُ الانطباع المُبهِج بأنْ نتعلَّم الحياكة أو صُنْع الخَزَف. أيبدو هذا هدفًا دُنيويًّا وغيرَ روحيٍّ إلى حدٍّ بعيد جدًّا؟ إنَّ الله مَعنيٌّ حتمًا بشؤونٍ من هذا النَّوع. أفأنتَ معنيٌّ أيضًا؟ ولعلَّك ترغب في أن تتعلَّم وتختبر المزيد بشأنِ المواهب الروحيَّة المتعلِّقة بالمعجزات والشِّفاءات والألسنة. أو لعلَّك تفعل ما فعله واحدٌ من أصدقائي: قضاء أوقات طويلة في اختبار موهبة الخدمات، متعلِّمًا أن يكون خادمًا. أو لعلَّك تودُّ هذه السنةَ المُقبلة أن تُطالعَ مكتوباتِ سي. أس. لويس أو إلتُن تروبلُد كُلَّها. أو لعلَّك بعد خمسِ سنينَ منَ الآن ترغب أن تكون مؤهَّلًا للعَمل بين الأولاد المُعوَّقين. أيبدو اختيارُ هذه الأهداف أشبه

بمُناورة تجاريَّة لبيع سلعةٍ ما؟ بالطَّبع لا. فهو مجرَّد تحديد اتِّجاه لحياتك. ذلك أنَّك ستذهب إلى مكانٍ ما، فكم يكون أفضلَ بكثيرٍ أن تحوزَ اتِّجاهًا تَحدَّد بالتواصُل مع **المركز** الإلهيِّ.

في إطار انضباط الدراسة، استكشفنا فكرة إقامة خلوات دراسيَّة تدوم يومَين أو ثلاثة. فإنَّ اختباراتٍ من هذا النَّوع تتعزَّز حين تمتزج بغوصٍ داخليٍّ في سكون الله. وعلى غرار الربِّ يسوع، علينا أن نعتزل بعيدًا عنِ الناس، حتَّى نكونَ حاضرين حقًّا ونحنُ مع الناس. فاقضِ خلوة، مرَّةً واحدة في السَّنة، وليس في فكرك غَرَضٌ آخر سوى العُزلة.

إنَّ حصيلة العُزلة هي تَضاعُفُ الإحساسِ والتعاطُفِ مع الآخرين. إذ تأتينا حُرِّيَّةٌ جديدة لنكون بين الناس ومعهم. ويحصل تنبُّهٌ جديد إلى احتياجاتهم، وتجاوُبٌ جديد مع أوجاعهم. وقد علَّق ثوماس مِرتُن قائلًا: "إنَّما في العُزلة العميقة وجدتُ اللُّطف الذي يمكنني به أن أُحبَّ إخوتي حقًّا. وكلَّما زادت عُزلتي، زادت محبَّتي لهم. إنَّ العُزلة والصَّمت يُعلِّماننني أن أُحِبَّ إخوتي بالنَّظر إلى مَن هُم، لا بالنَّظر إلى ما يقولون".[١٤]

ألا تشعر بشوقٍ وتوقٍ إلى الغوْص في سُكونِ الله وخلوته؟ ألا تشتاقُ إلى المزيد؟ ألا يتوق كلُّ نَفَسٍ من أنفاسك إلى مُثول أعمق وأكمل في حضرته؟ هو انضباطُ العزلة ما سيفتح الباب. فمرحبًا بك لأنْ تدخل و"تُصغيَ إلى كلام الله في صمته العجيب المهيب، اللطيفِ المُحِبّ، الغامرِ الكلّ".[١٥]

٨

انضباطُ الخضوع

المؤمنُ بالسيِّد المسيح سيِّدٌ حُرٌّ تمامًا على الجميع، غيرُ خاضعٍ لأحد. والمؤمن بالسيِّد المسيح هو خادمٌ مُطيعٌ للجميع، خاضِعٌ للجميع.

مارتن لوثر (Martin Luther)

ليس بين الانضباطات الرُّوحيَّة كلِّها واحدٌ أُسيءَ استعمالُه أكثرَ من انضباط الخضوع. فإنَّ لدى صنف البشر مقدرةً فائقة على أخذ العقيدة الفُضلى وتحويلها إلى أسوإ الغايات. ولا شيء يمكن أن يستعبد الناس مثل الدِّين، وليس في الدِّين شيءٌ عمل على استغلال الناس وتدميرهم أكثر ممَّا عمله تعليمٌ ناقصٌ عنِ الخضوع. لذلك يجب أن نشقَّ طريقنا عبرَ هذا الانضباط بحَذَر وتمييز شديدَين، لكي نضمن أن نكون خُدَّامًا للحياة، لا للموت.

إنَّ لكلِّ انضباطٍ حرِّيَّتَهُ المُوافقةَ له. فإنْ كنتُ قد درستُ فنَّ الخطابة، فأنا حُرٌّ في إلقاء كلمة مؤثِّرة حين تقتضي المُناسَبة ذلك. وقد كان ديموستين حُرًّا في أن يكون خطيبًا، فقط لأنَّه اجتاز انضباط التكلُّم بصوتٍ أعلى من هدير البحر وفي فمه حَصًى. فالمقصود من الانضباطات هو الحرِّيَّة. وهدفنا هو الحرِّيَّة، لا الانضباط ذاته. فلحظةَ نجعل الانضباط بؤرة تركيزنا الأساسيَّة، نحوِّله قانونًا ناموسيًّا ونخسر الحُرِّيَّة الموافِقة له.

لقد كانتِ الانضباطاتُ من أجل غرض إحرازِ خيرٍ أسمى. فلا قيمة لها البتَّة في ذاتها ومن ذاتها. إنَّما لها قيمةٌ فقط بوصفها وسيلةً لوضعنا أمام الله لكي نُتيحَ له أن يؤتيَنا التحرُّر الذي نطلبه. فالتحرُّر هو الغاية؛ أمَّا الانضباطات فهي الوسيلة **ليس** غير. إنَّها ليست الجواب؛ بل هي توجِّهُنا إلى **الجواب**. وعلينا أن نفهم محدوديَّة الانضباطات هذه إن شئنا أن نتجنَّب العبوديَّة. فلا ينبغي لنا أن نفهم هذه الحقيقة فقط، بل أن نؤكِّدها لأنفسنا أيضًا مرارًا وتكرارًا: أنَّ تجربة تركيزنا على الانضباطات بحدِّ ذاتها تجربةٌ قويَّة جدًّا. فلنُركِّزْ إلى الأبد على المسيح، ولْننظرْ إلى الانضباطات الروحيَّة حاسبين أنَّها سبيلٌ لاجتذابنا أقربَ فأقربَ إلى قلبه الحنون.

الحُرِّيَّة خضوع

قلتُ إنَّ لكلِّ انضباطٍ حرِّيَّتَهُ الموافقةَ له. فأيَّة حُرِّيَّة تتوافق مع الخضوع؟ إنَّها القُدرة على طرْح الحمل الرهيب المُتمثِّل بالاضطرار دائمًا إلى سلوك سبيلنا الذاتيّ. فإنَّ الهاجسَ المُستبدَّ المُطالبَ بأن تجريَ الأُمورُ بالطريقة التي نُريد لها أن تجريَ بها هو إحدى العبوديَّات الكُبرى في المجتمع البشريِّ اليوم. إذ يقضي الناسُ أسابيعَ وشهورًا، بل سنينَ أيضًا، في قلق دائم لأنَّ أمرًا يسيرًا لم يَجرِ كما أرادوا. فهُم يَضطرِمون ويَضطربون، ويُصيبُهم الذُّعرُ والسُّعر من أجل ذلك. ويتصرَّفون كما لو كانت حياتهم كلُّها تتعلَّق بذلك الأمر. حتَّى إنَّهم يُبتلَون بقَرحةٍ من جرَّاء ذلك.

ففي انضباط الخضوع، نُحرَّر حتَّى نُرخيَ الأمر، حتَّى ننساه. وأقولُها بصراحة إنَّ مُعظمَ الأشياء في الحياة ليست على وجه التقريب بالأهمِّيَّة التي نتصوَّرها عليها. فإنَّ حياتنا لن تبلغَ نهايتَها إذا لم يحصل هذا أو ذاك.

وإن راقبتَ هذه الأمور، فسترى مثلًا أنَّ جميع النزاعات والانشقاقات في

الكنائس تقعُ لأنَّ الناس لا يملكون حُرِّيَّة الإذعان بعضهم لبعض. فنحن نُصِرُّ على أنَّ قضيَّةً جوهريَّة هي على المحكّ؛ إنَّنا نُقاتِل من أجل مبدإٍ مقدَّس. لربَّما كانت الحال على هذا المنوال، ولكنَّها في العادة لا تكون. فغالبًا ما لا نحتمل أن نُذعن، فقط لأنَّ ذلك يعني أنَّ الأُمور لن تجريَ على طريقتنا. إنَّما بالخضوع وحدَه نُمكَّن من أنْ نُوصِلَ هذه الرُّوح إلى حيثُ لا تعود تُسيطِر علينا. والخُضوع وحدَه يحرِّرنا بما فيه الكفاية لتمكيننا من التمييز بين القضايا الأصيلة والإرادة الذاتيَّة المُعاندة.

ولو تيسَّر لنا فقط أن نُدرِكَ أنَّ مُعظَم الأُمور في الحياة ليست قضايا جوهريَّة، لاستطعنا عندئذٍ أن ننظر إليها نظرة تهوينيَّة. فإنَّنا نكتشف أنَّها ليست "مسألة مُهمَّة". وكثيرًا ما نقول: "حسنًا، لا يَعنيني الأمر"، حين يكونُ ما نقصده حقًّا (وما نُبلِّغُه للآخرين) أنَّ الأمر يَعنينا عنايةً بالغة. إنَّما هُنا بالضبط يقعُ الصَّمتُ في موقعه جيِّدًا بين سائر الانضباطات. وعادةً ما تكون الطريقة الفُضلى لتدبير معظم شؤون الخُضوع ألَّا نقول شيئًا. فالحاجة تدعو إلى روح نعمةٍ كُلِّيِّ الشمول، يتخطَّى أيَّ نوعٍ من الأقوال أو الأفعال، يُحرِّرنا ويُحرِّر الآخرين.

إنَّ تعليم الكتاب المقدَّس عن الخُضوع يتركَّز جوهريًّا على الرُّوح التي ننظر بها إلى الآخرين. فالأسفار المقدَّسة لا تُحاول أن تعرض لنا سلسلةً من العلاقات الهَرَميَّة، بل أن تُبلِّغنا موقفًا داخليًّا يتَّسم بالخضوع المتبادل. فقد دعا بطرسُ مثلًا العبيدَ في زمانه إلى العيْش خاضعين لسادتهم (١بط٢: ١٨). وتبدو النصيحة غير ضروريَّة إلى أن ندرك أنَّه يمكن تمامًا أن يكون الخُدَّام مُطيعين لسادتهم بغير أن يعيشوا روحَ خُضوعٍ لهم. فظاهريًّا، يمكننا أن نفعل ما يطلبُه الناس، فيما نحنُ باطنيًّا مُتمرِّدون عليهم. وهذا الاهتمام بروح احترام للآخرين يتخلَّل كتابَ العهد الجديد كلَّه. فإنَّ العهد القديم نهانا عن القتل. ولكنَّ المسيح شدَّد على أنَّ القضيَّة الحقيقيَّة هي روح القتل الداخليَّة التي ننظر بها إلى الآخرين. وفي مسألة

الخُضوع، يصحُّ الأمرُ عينُه؛ إذ إنَّ القضيَّة الحقيقيَّة هي روح الاحترام والاعتبار التي لنا بعضنا نحو بعض.

وفي الخضوع نكون آخِرَ الأمر أحرارًا لتقدير الآخرين. فأحلامُهم ومشاريعُهم تصير ذات أهمِّيَّة في نظرنا. وقد دخلْنا رحابَ حُرِّيَّة جديدة عجيبة مجيدة- حُرِّيَّة التنازُل عن حقوقنا الخاصَّة لأجل خير الغير. وأوَّل مرَّة يتيسَّر لنا أن نحبَّ الناس بلا قيد ولا شرط. لقد تخلَّينا عن حقِّ المُطالبة بأن يُبادِلونا المحبَّة. ولا نشعر بعدُ بأنَّه ينبغي أن نُعامَلَ بطريقة مُعيَّنة. إنَّنا نبتهج بنجاحات الآخرين، ونشعر بأسًى أصيل في حال إخفاقهم. ويترك لدينا أثرًا مزعجًا إذا أخفقت مشاريعُنا ونجحت مشاريعُهم. إذ يتبيَّن لنا أنَّ خِدمة قريبنا أفضل بكثير من سير الأُمور على طريقتنا. أتعرف التحرُّر الناتج من تخلِّيك عن حقوقك؟ إنَّه يعني تحرُّرك من الغضب والمرارة المُحرقَين اللذَين تشعر بهما حين لا يتصرَّف أحدُهم تُجاهك بالطريقة التي تعتقد أنَّه ينبغي أن يتصرَّف بها. إنَّه يعني أن تتمكَّن أخيرًا من كسر ذلك القانون التجاريِّ الخبيث القائل: "حُكَّ لي ظهري، أحُكَّ لك ظهرك؛ أدمِ لي أنفي، أُدمِ لك أنفَك!" إنَّه يعني تحرُّرك لإطاعة وصيَّة المسيح أنْ "أحِبوُّا أعدائكم... وصلُّوا لأجل الذين يسيئُون إليكم ويطردونكم" (متَّى٥: ٤٤). إنَّه يعني أن تفهم، أوَّلَ مرَّة، كيف يمكنك التنازُل عن حقِّ المُعامَلة بالمِثل: "مَن لطمك على خدِّك الأيمن، فحوِّل له الآخر أيضًا" (متَّى٥: ٣٩).

وسيلةُ اختِبار

لعلَّك لاحظتَ أنِّي ما أزال أُقارِبُ مسألة الخضوع من الباب الخلفيّ. فقد بدأتُ بتبيين ما يفعلُه لنا قبل تعريف ماهيَّته. وهذا فعلتُه عن قصد. فإنَّ معظمنا قد تعرَّضوا لصورة مشوَّهة جدًّا من الخضوع الكتابيِّ بحيثُ إنَّهم إمَّا تقبَّلوا الصُّورة

المشوَّهة وإمَّا رفضوا الانضباط بجُملته. أمَّا القيام بالأمر السابق فيؤدِّي إلى كُرهِ الذات؛ وأمَّا القيام بالأمر اللاحق فيؤدِّي إلى تمجيد الذات. فقبل أن نعْلَق على قرنَي هذا المأزق المُزدوِج، فلننظرْ في خِيارٍ ثالث.

إنَّ محَكَّ الفهم الكتابيِّ للخضُوع هو تصريحُ المسيحِ المذهل: "مَن أراد أن يأتيَ ورائي، فلينكرْ نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مرقس٨: ٣٤). فعلى نحوٍ غريزيٍّ تقريبًا، نحن ننفر من هذا الكلام. إذ إنَّنا نستريح إلى تعابيرَ مثل "إرضاء الذات" و"تحقيق الذات" أكثرَ منَّا إلى فكرة "إنكار الذات". (بالحقيقة أنَّ تعليم المسيح عن إنكار الذات هو الأمر الوحيد الذي يؤتي إرضاءً وتحقيقًا للذات أصيلَين). فإنكارُ الذات يُكوِّن في أذهاننا كلَّ نوعٍ من صُوَر التذلُّل وكُره الذات. ونتصوَّر أنَّه يعني على نحوٍ شبهِ يقينيٍّ رفضَ فردانيِّتنا، ويُحتمَل أن يؤدِّي إلى أشكالٍ شتَّى من إماتة الذات.

ولكنَّ المسيح، على العكس، يدعونا إلى إنكار الذات دونَ كُرهِ الذات. فإنكار الذات لا يعدو كونَهُ طريقةً لبلوغ الإدراك أنَّنا لسنا مُضطرِّين إلى أن نسلك سبيلنا الذاتيّ. ذلك أنَّ سعادتنا غير متوقِّفة على نوالنا ما نُريد.

إنَّ نكران الذات لا يعني فقدانَ هُوِيَّتِنا كما يفترض بعضُهم. فبغير هُويَّتِنا لا يُمكِنُنا حتَّى الخضوعُ بعضنا لبعض. أَفَقدَ المسيحُ هُويَّتَه لمَّا ثبَّت وجهه نحو الجُلجثة؟ أم هل فقدَ بطرس هُويَّته لمَّا استجاب لأمر المسيح أنِ "اتبعْني" (يوحنَّا ١٢: ١٩)؟ وهل فقدَ بولس هُويَّتَهُ لمَّا عَهِدَ بنفسه إلى ذاك الذي قال: "سأُريه كم ينبغي أن يتألَّم من أجل اسمي" (أعمال٩: ١٧)؟ طبعًا لا. ونحن نعلم أنَّ العكس هو الصحيح. فهُم جميعًا وجدوا هُويَّتَهم في فعلِ إنكار الذات.

وليس إنكار الذات وازدراءُ الذات أمرًا واحدًا بعينه. فازدراء الذات يزعم أنْ ليس لنا قيمة، وأنَّه حتَّى لو كانت لنا قيمة فينبغي أن ننبذها. وإنكارُ الذات

يُصرِّح بأنَّنا ذوو قيمة غير محدودة، ويُبيِّنَ لنا كيف نُحقِّقها. كذلك يُنكِرُ ازدراءُ الذات صلاحَ الخليقة؛ في حين يؤكِّد إنكارُ الذات أنَّ الخليقة صالحةٌ حقًّا. وقد جعل الربُّ يسوع القدرة على محبَّة أنفسُنا شرطًا أساسيًّا لمدِّ أيدينا إلى الآخرين (مت٢٢: ٣٩). فمحبَّة الذات ونُكران الذات ليسا مُتضارِبَين. وقد أوضح المسيح بجلاءٍ تامٍّ غير مرَّة أنَّ السبيل الوحيد المأمون لمحبَّة أنفُسنا هو إنكار الذات. "مَن وجد حياته يُضيعها؛ ومَن أضاع حياته من أجلي يجدها" (متَّى١٠: ٣٩).

ثُمَّ ينبغي أن نُشدِّد على أنَّ إنكار الذات يعني حرِّيَّة الإفساح للآخرين في المجال. كما يعني أيضًا تقديم مصالح الآخرين على مصالحنا. بهذه الطريقة يُعتِقنا إنكارُ الذات من رثاء الذات. فحين نعيش خارجَ نطاق إنكارِ الذات، نُطالِب بأن تجري الأُمور على طريقتنا. وحين لا تجري، ننكفئُ إلى رثاء الذات: "كم أنا مِسكين!" خارجيًّا، يمكن أن نخضع، ولكنَّنا نفعل ذلك بروح استشهاد. وروحُ رثاءِ الذات أو الاستِشهادِ هذه هي علامةٌ أكيدة على أنَّ انضباط الخضوع قد اعتَراه الوهن. لهذا السبب كان إنكارُ الذات أساسَ الخضوع؛ فهو يُنقِذنا من الانغماسِ الذاتيّ.

كثيرًا ما يستصعِبُ الرجال والنِّساء المعاصرون قراءة أربابَ التأمُّلِ والتعبُّدِ الكبارَ لأنَّ أولئك الأرباب يستخدمون لُغةَ إنكار الذات استخدامًا غايةً في الغزارة. ويصعب علينا أن نتقبَّل كلام توما الكمبيسيّ: "أن لا يكونَ لنا رأيٌ في ذواتنا؛ وأن نُفكِّرَ دائمًا في الآخرين أفكارًا حسنةً ورفيعة الشأن، هما حكمةٌ وكمال عظيمان".[1] إنَّنا نُجاهِدُ للإصغاء إلى كلمات المسيح: "مَن أراد أن يأتيَ ورائي، فلينكرْ نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مرقس٨: ٣٤). والصعوبةُ عندنا عائدةٌ بالدرجة الأُولى إلى حقيقة كوننا قد أخفقنا في إدراك تعليم المسيح أنَّ الطريق إلى إشباع الذات تمرُّ عبرَ إنكار الذات. فأن نُنقِذ الحياة هو أن نفقدها؛ وأن نفقدها لأجل المسيح هو أن نُنقِذها (مر٨: ٣٥). وقد رسَّخ جورج ماثيسون في

الترنيم الكنسيِّ هذه المُفارَقة العجيبة في الإشباع من خلال إنكار الذَّات:

اجعلني يا ربُّ أسيرًا،
أكُن إذ ذاك حُرًّا؛
أرغمني على تسليم سيفي،
أصِرْ إذ ذاك ظافرًا.
إنِّي أغوصُ في مخاوفِ الحياة
حين أقِفُ وحيدًا؛
فقيِّدني بين ذراعَيك،
يَصِر ساعِدي إذ ذاك قويًّا.[٢]

عسى أن يكون الجوُّ قد صحا كفايةً بحيثُ يُتاح لنا أن ننظر إلى إنكار الذات بوصفه التحرير الحقيقيّ! فلا بُدَّ من أن نقتنع بهذا، ما دام إنكارُ الذات- كما أسلفنا- هو مِحَكَّ الاختبار لانضباط الخُضوع.

الخضوعُ الثوريُّ كما علَّمه المسيح*

تَمَثَّلَ تعليمُ المسيح الاجتماعيُّ الأكثرُ راديكاليَّةً في مناقضته الكُلِّيَّة لمفهوم العظمة المعاصر. فالقيادة تكمن في صيرورة المرء خادمًا للجميع، والقُوَّة تُكتَشف في الخضوع. وأسمى رمزٍ لهذه الخادميَّة الراديكاليَّة هو الصليب. ذلك أنَّ المسيح "وضع نفسه وأطاع حتَّى الموت، موتَ الصليب" (فيلبِّي٢: ٨). إنَّما ألقِ بالك إلى هذا الأمر: أنَّ المسيح لم يمُت فقط "موتَ صليب" بل عاش أيضًا "حياة صليب". فإنَّ طريق

* أنا مدينٌ لجون هُوارد يُودَر (John Howard Yoder) بهذا التعبير وبحفنة من الأفكار المُدرَجة تحته. فإنَّ كتابه "سياسة المسيح" (The Politics of Jesus) يشتمل على فصلٍ ممتاز عنِ الخضوع الثَّوريّ.

الصليب، طريقَ خادمٍ مُتألِّم، كانت جوهريَّة بالنسبَّة إلى خدمة المسيح. إذ إنَّه عاش حياة الصليب في الخُضوع لجميع الكائنات البشريَّة. فهو كان خادمَ الجميع. وقد رفض صراحةً مُعطيَي المقام والسُّلطان الحضاريَّين لمَّا قال: "لا تُدعَوا سَيِّدي... ولا تُدعَوا مُعلِّمين"(متَّى٢٣: ٨-١٠). وقد زعزع عوائدَ أيَّامه لمَّا عاش حياة الصليب بأخذ النِّساء على مَحمل الجدّ، وبالاستعداد لمُقابلة الأولاد. وهو عاش حياة الصليب لمَّا أخذ منشفة وغسل أرجُل تلاميذه. وبينما كان قادرًا بكلِّ سهولة على استدعاء جيشٍ من الملائكة لنجدته، اختار بالأحرى موتَ الصليب في الجُلجُثة. فإنَّ حياة المسيح كانت حياة الصليب المُتَّسمةَ بالخضوع والخدمة. كما أنَّ موته كان موت الصليب المُتَّسِمَ بالانتصار من خلال الآلام.

ومن المستحيل أن نُبالغ مهما شدَّدنا على الطابَع الثوريِّ الذي ميَّز حياة المسيح وتعليمه في هذا الموضوع. فإنَّه أطاح كلَّ مُطالَبة بالمقام المُمتاز والمكانة الرفيعة، ودعا إلى الوجود نظامَ قيادةٍ جديدًا بجُملته. إنَّ حياة الصليب التي عاشها المسيح قوَّضت جميع النُّظُم الاجتماعيَّة المؤسَّسة على السُّلطان ومصلحة الذات.*

وكما سبق أن أشرتُ، فإنَّ المسيح دعا أتباعَه إلى العيْش حياة الصليب. "مَن أراد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مرقس٨: ٣٤). وقد قال لتلاميذه صراحةً: "إذا أراد أحدٌ أن يكون أوَّلًا، فيكونُ آخرَ الكلِّ وخادمًا للجميع" (مرقس٩: ٣٥). ولمَّا خلَّد مبدأ حياة الصليب بغسله أرجُلَ التلاميذ،

* لقد أخفقَت الكنيسة اليوم أن تفهم- أو إذا فهمتْ أن تُطيع- مضامينَ حياة الصليب في ما يتعلَّق بالمجتمع البشريّ. ويستكشف غي هيرشبرغر (Guy Hershberger) بجسارةٍ بعضَ هذه المضامين في كتابه "طريقُ الصليب في العلاقات البشريَّة" (The Way of the Cross in Human Relations). فهو يبحث كيف ينبغي أن يؤثِّر طريق الخادميَّة في شؤونٍ مثل الحرب والرأسماليَّة، والاتِّحادات التجاريَّة والنقابات العُمَّاليَّة، والماديَّة وعلاقات أرباب العمل بالعمَّال، والعلاقات العرقيَّة وغير ذلك. وأنا مدينٌ لهيرشبرغر بالتعبير "حياة الصليب".

أضاف: "أعطيتُكم مثالًا حتَّى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا" (يوحنَّا ١٣: ١٥). فحياةُ الصليب هي حياة الخضوع العَمديّ. وحياةُ الصليب هي حياةُ الخادميَّةِ المقبولة طوعًا.

الخُضوع الثوريُّ كما عُلِّم في الرسائل

إنَّ قُدوة المسيح ودعوتَه لانتهاج طريق الصليب في جميع العلاقات البشريَّة تُشكِّلان الأساس لتعليم الرسائل في موضوع الخضوع. فالرسول بولس يؤسِّس وصيَّته للكنيسة بأن يكون أفرادها حاسبين بعضُهم بعضًا "أفضل من أنفسهم" على خضوع الربِّ يسوع وإنكاره لذاته في سبيل خلاصنا، إذ "أخلى نفسه آخِذًا صورة عبد" (فيلبِّي٢: ٤-٧). والرسول بطرس، في سياق توصياته بشأن الخضوع، يتوجَّه مُباشرةً إلى مثال المسيح كسببٍ يدعو إلى الخضوع. "لأنَّكم لهذا دُعيتم فإنَّ المسيح أيضًا تألَّم لأجلنا، تاركًا لنا مثالًا، لكي تتَّبعوا خطواته... إذ شُتم لم يكُن يشتم عِوَضًا، وإذ تألَّم لم يكن يُهدِّد، بل كان يُسلِّم لمن يقضي بعدل" (١بط٢: ٢١-٢٣). وفي استهلال "**الهاوشتافِل الأفسُسيَّة**" (Ephesian Haustafel)* نقرأ: "كونوا **خاضعين بعضكم لبعض** بدافع مهابَتِكم للمسيح" (أفسُس٥: ٢١). فإنَّ دعوة المؤمنين بالمسيح لأن يعيشوا حياة الصليب مُتأصِّلةٌ في حياة الصليب التي عاشها الربُّ يسوع نفسُه.

وما يزال انضباطُ الخضوع يلقى مقدارًا رهيبًا من سوء التصوُّر وسوء الاستخدام بسبب الإخفاق في رؤية هذا الإطار الأوسع. فالخضوع وضعيَّةٌ

* الهاوشتافِل لفظٌ نحته مارتن لوثر، ومعناه الحرفيُّ "مائدة البيت". ومن ثَمَّ فهو يعني جدولًا من آداب السلوك لأهل البيت المؤمنين بالمسيح. وقد بات الهوشتافِل يُعَدُّ شكلًا أدبيًّا مخصوصًا يمكن وِجدانُه في أف٥: ٢١-٦: ٩، وكو٣: ١٨-٤: ١، وتي٢: ٤-١٠، و١بط٢: ١٨-٣: ٧.

إلزاميَّة لجميع المؤمنين بالمسيح: الرجال كما النساء، الآباء كما الأولاد، السادة كما العبيد. ونحن نوصَى بأن نعيش حياةَ خُضوع لأنَّ الربَّ يسوع عاش حياةَ خُضوع، وليس لأنَّنا نشغل في الحياة مكانًا مخصوصًا أو وضعًا مُعيَّنًا. فإنكارُ الذات وضعيَّةٌ تليق بجميع الذين يتبعون الربَّ المصلوب. وفي كلِّ موضع من الهاوشتافِل، يتمثَّل السبب الواحد الوحيد للخُضوع في مِثال المسيح.[٧]

وتبدو علَّةُ الخضوع الفريدةُ هذه مُذهلةً حين نُقارنها بمكتوبات القرن الأوَّل الأُخرى. فإنَّ هذه تتضمَّن إشاراتٍ متواترةً إلى الخُضوع لأنَّه هكذا خَلقت الآلهةُ الأشياء: إنَّه وضعُ المرء في الحياة. ولكنَّ أيًّا من كَتَبة العهد الجديد يُعلِّل الخُضوع بهذا الأساس. فالتعليم ثوريّ. إذ إنَّ الكُتَّاب تجاهلوا كلِّيًّا العوائد المُعاصرة المتعلِّقة بمفهوم "الرئيس والمرؤوس"، ودعَوا الجميع لأن يحسبوا بعضُهم بعضًا "أفضل من أنفُسِهم" (فيلبِّي٢: ٣).

إنَّ الرسائل تدعو أوَّلًا إلى الخضوع أُولئك الذين كانوا أصلًا، بحُكم الحضارة السائدة آنذاك، في موقع المرؤوسيَّة: "أيَّتها النساء، اخضعنَ لرجالكنَّ... أيُّها الأولاد، أطيعوا والدَيكم... أيُّها العبيد، أطيعوا في كلِّ شيء سادتكم حسب الجسد..." (كولوسِّي٣: ١٨-٢٢). إنَّما الأمر الثوريُّ بشأن هذا التعليم هو أنَّ هؤلاء الناسَ الذين لم توفِّر لهم حضارةُ القرن الأوَّل أيَّ اختيارٍ على الإطلاق، يُخاطَبون بصفتهم كائناتٍ أدبيَّةً حُرَّة. فقد ألقى الرسول بولس مسؤوليَّةً أدبيَّة شخصيَّة على أُولئك الذين لم يكُن لهم مقامٌ شرعيٌّ أو أدبيٌّ في حضارتهم. إنَّه جعل مَن كانوا محرومين اتِّخاذَ القرارات صانعي قرارات.

وربَّما حيَّرَنا أنَّ بولس دعاهم إلى الطاعة بما أنَّهم كانوا مرؤوسين أصلًا بحُكم مكانتهم في حضارة القرن الأوَّل. ولكنَّ السبب الوجيه الوحيد لوصيَّة كهذه هو حقيقةُ كونهم بفضل رسالة الإنجيل قد باتوا ينظرون إلى أنفسهم على أنَّهم أحرارٌ

من موقع التابعيَّة في المجتمع. فإنَّ الإنجيل قد تحدَّى كلَّ مواطنيَّة من الدرجة الثانية، وهم عَلِموا ذلك. وقد حثَّهم بولس على الخضوع الطوعيِّ ليس لأنَّ موقعهم في الحياة كان ذاك، بل لأنَّ "هذا مَرْضيٌّ في الرب" (كولوسِّي٣: ١٨).

وهذه السِّمَة في توجيه التعليم الأدبيِّ إلى المرؤوسين حسب الحضارة هي أيضًا نقيضٌ راديكاليٌّ للأدب السائد يومذاك. فإنَّ الرِّواقيِّين مثلًا خاطبوا فقط مَن كان في أعلى النظام الاجتماعيّ، مُشجِّعين إيَّاه على تأدية عمل حسن في المقام الرئاسيِّ الذي يعدُّه مكانتَه أصلًا. غير أنَّ الرسول بولس تكلَّم أوَّلًا إلى الأشخاص الذين قالت حضارتُه بأنَّهم لا ينبغي أن يُخاطَبوا مُجرَّد مُخاطَبة، ودعاهم إلى حياة الصليب التي عاشها المسيح.

ثُمَّ إنَّ الرسائل الْتفتَت إلى الشَّريك المُهيمِن حضاريًّا في العلاقة، ودَعته أيضًا إلى حياة صليبِ المسيح. فإذا الأمرُ بالطاعة عكسيّ: "أيُّها الرجال، أحبُّوا نساءكم... أيُّها الآباء، لا تغيظوا أولادكم... أيُّها السادة، قدِّموا للعبيد العدلَ والمُساواة..." (كولوسِّي٣: ١٩-٤: ١). ورُبَّ مُعترِضٍ- على نحوٍ شبهِ يقينيّ- بأنَّ الوصيَّة المُوجَّهة إلى الشريك المُهيمِن لا تستخدم لغة الخُضوع. إنَّما يفوتنا أن ندرك كم تطلَّبت تلك الوصايا من الخضوع من جانب الشريك المُهيمِن في إطاره الحضاريّ. فإنَّ إطاعةَ زوجٍ أو أبٍ أو سيِّد في القرن الأوَّل لوصيَّة بولس من شأنها أن تُحدِث فرقًا جوهريًّا في سلوكه. إذ لم تدعُ الحاجةُ زوجةً أو ولدًا أو عبدًا في القرن الأوَّل إلى أن يُغيِّرَ مثقالَ ذَرَّة واحدة للعمل بوصيَّة بولس. وإنْ كان لهذا التعليم شوكةٌ فإنَّها أصابَت الشريكَ المُهيمِن.[٣]

ولا بدَّ لنا أيضًا من أن نُدرِكَ أنَّ هذه الأوامر للأزواج والآباء والسادة تُشكِّل صورةً أُخرى من إنكار الذات. فهي ليست سوى مجموعةٍ أُخرى من الكلمات للتعبير عن الحقِّ ذاته: أنَّ في وسعنا أن نتحرَّر من الاضطرار إلى تسيير

الأُمور على طريقتنا. فإن أحبَّ الزوج زوجته، فلا بدَّ أن يعيش آخذًا في الحسبان احتياجاتها. وسيكون مستعدًّا لأن يستسلم لها كما سيكون حرًّا كي يحسبها أهمَّ من احتياجاته وسيكون قادرًا على حسبان أولاده أهمَّ من احتياجاته أيضًا.

ولعلَّنا نَلقى أكملَ إيضاح للخضوع الثوريِّ في رسالة بولس الوجيزة إلى فليمون. فإنَّ أُنسيمُس، عبدَ فليمون الهارب، صار مسيحيًّا. وكان على وشك الرجوع طوعيًّا إلى فليمون كجُزءٍ ممَّا عناه له كونُه تلميذًا للمسيح. فحثَّ بولس فليمون على الترحيب بأُنسيمُس "لا كعبدٍ في ما بعد، بل أفضل من عبد: أخًا محبوبًا..." (فليمون١٦). وقد علَّق يُودَر جون بالقول: "إنَّ هذا يوازي توجيهَ بولس لفليمون، بذلك النَّوع من الإرشاد غير الإلزاميِّ اللائق بأخٍ مسيحيّ، إلى أنَّ أُنسيمُس ينبغي أن يُحرَّر".[٤] فقد كان على أُنسيمُس أن يخضع لفليمون بالرُّجوع إليه. وكان على فليمون أن يخضع لأُنسيمُس بتحريره. إذ كان على كِلَيهما أن يكون خاضعًا للآخر بالتبادُل بدافع المهابة للمسيح (أفسُس٥: ٢١).

إنَّ الرسائل لم تُكرِّس البنية الاجتماعيَّة الهَرَميَّة القائمة. فإذ جعلَت الدعوةَ إلى الخضوع شاملة، جعلَتْ أيضًا تلك البنية نسبيَّة وصدَّعت أساسها. وهي دَعَت المؤمنين بالمسيح إلى العيش بصفتهم مواطنين في نظام جديد، والسِّمَةُ الأكثرُ أساسيَّةً في هذا النظام الجديد هي الخضوع الشامل.

حدود الخضوع

تقع حدودُ انضباطِ الخُضوع عند النِّقاط التي فيها يصير هدَّامًا. فهو عندئذٍ يصير إنكارًا لناموس المحبَّة كما علَّمه المسيح ويُشكِّل تحدِّيًا للخضوع الأصيل حسب الكتاب المقدَّس (متَّى٥و ٦و٧، لا سيَّما أيضًا ٢٢: ٣٧-٣٩).

يدعو بطرس المؤمنين بالمسيح إلى الخضوع الجذريِّ للدَّولة إذ يكتب:

"فاخضعوا لكلِّ ترتيب بشريٍّ من أجل الربّ: إن كان للملك فكمن هو فوق الكلِّ، أو للولاة فكمُرسَلين منه..." (١بط٢: ١٣و١٤). ولكنْ لمَّا أمرتِ الحكومةُ ذاتُ السُّلطة الرسميَّة في زمان بطرس الكنيسةَ الناشئة بالتوقُّف عنِ الكرازة، كان هو مَن أجاب: "إن كان حقًّا أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله، فاحكموا: لأنَّنا نحن لا يمكننا أن لا نتكلَّم بما رأينا وسمعنا" (أعمال٤: ١٩و٢٠). وفي مُناسَبة مُماثِلة، صرَّح بطرس ببساطةٍ أنَّه "ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس" (أع٥: ٢٩).

كذلك يقول بولس وهو مُدرِكٌ حياة الصليب التي عاشها المسيح: "لتخضعْ كلُّ نفس للسلاطين الفائقة" (رومية١٣: ١). ولكن لمَّا رأى بولس أنَّ الدَّولة كانت مُخفِقةً في تأدية دورها الذي رتَّبه لها الله من حيثُ توفير العدالة للجميع، دعاها إلى المحاسبة وأصرَّ على تسوية الظُّلم (راجع أعمال١٦: ٣٧).

أكان هذان الرجُلان مُعارِضَين لمبدإهما الخاصِّ القائل بإنكار الذات والخضوع؟ لا! فهُما إنَّما فَهِما أنَّ الخضوع يبلغ أقصى مداه حين يصير هدَّامًا. وبالحقيقة أنَّهما مَثَّلا على الخضوع الثوريِّ إذ رفضا بوداعةٍ نهيًا هدَّامًا وكانا على استعدادٍ لمُعاناة العواقب. ويقول المُفكِّر الألمانيُّ يوهانس هامِل إنَّ الخضوع يشتمل على "إمكانيَّةِ مُقاومةٍ يدفع إليها الرُّوح، على تنصُّل مؤاتٍ ورفضٍ مُستعدٍّ لتقبُّل الآلام عند هذه أو تلك من النِّقاط المحدَّدة".[٥]

أحيانًا، يسهل تعيينُ حدود الخُضوع. فقد يُطلَب من زوجة أن تعاقب ولدها خلافًا للمنطق. أو يُطلَب من وَلَد أن يُعاون راشدًا في ممارسة غير شرعيَّة. أو يُطلَب من مُواطِن أن يُخالِفَ أوامرَ الكتاب المقدَّس وإملاءات الضمير في سبيل الدَّولة. وفي كلِّ حالة من هذه الحالات يرفض تلميذُ المسيح الطلب، لا مُكابرةً، بل بروح الوداعة والخُضوع.

إنَّما كثيرًا ما تكون حدود الخُضوع صعبة التحديد جدًّا. فماذا نقول في

شريكِ زواجٍ يشعر بأنَّه مُقيَّدٌ ومحرومٌ الإشباعَ الشخصيَّ بسبب مهنة الشريك الآخر؟ أهذا شكلٌ مشروعٌ من إنكار الذات أم هو هدَّام؟ وماذا نقول في مُعلِّم يظلم التلميذ بعلامةٍ يضعُها له؟ أيخضع التلميذ أم يُقاوِم؟ وماذا نقول في ربِّ عملٍ يُرقِّي الموظَّفين عنده على أساس التمييز والمصالح المُتوخَّاة؟ ماذا يفعل الموظَّف المحروم، ولا سيَّما إذا كان بحاجةٍ إلى العلاوة لمصلحة عائلته؟

هذه أسئلة مُعقَّدة إلى أقصى حدّ، فقط لأنَّ العلاقات البشريَّة مُعقَّدة. فهي أسئلةٌ لا تُذعِنُ للأجوبة التبسيطيَّة. وليس من قانونٍ في الخضوع يشمل كلَّ وضعٍ من الأوضاع. فعلينا أن نصير شكَّاكين كثيرًا في جميع القوانين التي تزعم أنَّها تتولَّى أمر كلِّ ظرف من الظُّروف. إذ إنَّ الأخلاق الإفتائيَّة تُخفِق دائمًا.

وليس تملُّصًا من المسألة أن نقول إنَّنا في تعيين حدود الخضوع نكون مدفوعين إلى اتِّكال وافر على الروح القدس. وبَعد، فلو كان في أيدينا كتابُ قوانينَ يشمل كلَّ ظرفٍ من ظروف الحياة، لَمَا كُنَّا في حاجة إلى الاتِّكال. إنَّ الروح مُميِّزٌ دقيق لأفكار القلب ونيَّاته- قلبك وقلبي على السواء. وهو سيكون لنا مُعلِّمًا ونبيًّا حاضرًا كلَّ حين، مُرشِدًا إيَّانا إلى ما نفعله في كلِّ وضع من الأوضاع.

أفعالُ الخُضوع

إنَّ الخُضوع والخِدمة يقومان بعملهما بالتزامُن. ولهذا سنتطرَّق في الفصل التالي إلى كثيرٍ من الحصائل العمليَّة الناجمة عنِ الخُضوع. على أنَّ هنالك سبعةَ أفعالٍ للخضوع أودُّ أن أذكرها بإيجاز.

أوَّلُ فِعلِ خُضوع هو لله المُثلَّث الأقانيم. ففي بداية يومنا، نَمثُل "مُستسلِمين ساكنين"- كما يقول كاتبُ الترنيمة- "في حضرة الآب والابن والروح القُدس". وكلماتُ يومنا الأُولى تكون صدًى لصلاة توما الكمبيسيّ: "كما تشاء أنت؛

ومتى تشاء"[٦]، حيث نُسَلِّم أجسامنا وعقولنا وأرواحنا لمقاصده الإلهيَّة. كذلك أيضًا نعيش يومنا في أفعال خضوع مُرصَّعة بتوكيدات دائمة للإذعان القلبيّ. وكما تكون كلمات الصباح الأُولى مُعبِّرةً عن الخضوع، كذلك أيضًا تكون كلماتُ الليل الأخيرة. إذ نُسلِّم أجسامنا وعقولنا وأرواحنا في يَدَي الله ليفعل بها ما يشاء في أثناء الظُّلمة الطويلة.

وثاني فِعلِ خضوع هو للكلمة المقدَّسة. فكما نُخضِع أنفُسَنا للكلمة الحيّ (المسيح)، كذلك نُخضِع أنفسنا للكلمة المكتوبة (الكتاب المقدَّس). إنَّنا نُسلِّم أنفُسَنا أوَّلًا لسماع الكلمة، وثانيًا لقبول الكلمة، وثالثًا لإطاعة الكلمة. ونتطلَّع إلى الروح القدس الذي أوحى بالأسفار المقدَّسة كي يُفسِّرها لنا ويُطبِّقها على وضعنا. ومن ثَمَّ تسكن فينا طوال اليوم كلمةُ الله التي أحياها الروح القدس.

وثالثُ فِعلِ خضوع هو لأُسرتنا. فينبغي أن يكون شعار العائلة: "لا تنظروا كلٌّ واحد إلى ما هو لنفسه، بل كلٌّ واحد إلى ما هو لآخرين أيضًا" (فيلبِّي٢: ٤). إذ إنَّ أفراد الأُسرة يلتمس بعضُهم الأعذار لبعض بسخاءٍ وإحسانٍ فائق. فعملُ الخضوعِ الأوَّليُّ هو التزامُ الإصغاء إلى أعضاء الأُسرة الآخرين؛ ومبدأُه الثابتُ هو الاستعداد للمشاركة، وهذا بحدِّ ذاته عملٌ من أعمال الخضوع.

ورابعُ فِعلِ خضوع هو لجيراننا وأُولئك الذين نقابلهم في مجرى حياتنا اليوميَّة. إذ نعيش أمامهم حياة الصلاح البسيطة. وإن كانوا في احتياج فإنَّنا نساعدهم. ونؤدِّي أفعالًا يسيرة ممَّا يتَّسم به اللُّطفُ وحُسْنُ الجوار: إشراكُهم في طعامنا، مُجالَسة أطفالهم، جَزُّ مسطَّحهم العشبيِّ الأخضر، زيارتهم في اليُسر والعُسر، إعارتُهم أدواتنا. فما من مَهمَّة أصغر أو أحقر من أن تُؤدَّى، إذ تكونُ كُلُّ واحدةٍ فرصةً للعيش بخضوع.

وخامسُ فِعلِ خضوع هو لجماعة المؤمنين، جَسَدِ المسيح. فإنْ كان من

أعمالٍ تؤدَّى أو مهامَّ تُنجَز، نَنظر إليها عن كثب لنرى هل هي دعوة الله إلى حياة الصليب. لا نستطيع أن نفعل كلَّ شيء، ولكنَّنا نستطيع أن نفعل بعض الأشياء. ومع أنَّها قد تكون أُمورًا ذات طبيعة تنظيميَّة، فإنَّها غالبًا ما تكون فُرَصًا تلقائيَّةً لمَهامَّ خدمة يسيرة. وقد تأتينا أحيانًا الدَّعوة إلى خدمة الكنيسة العامَّة، فإذا تثبَّتَتِ الخدمةُ في قلوبنا يمكننا أن نخضع لها بيقين ووقار.

وسادسُ فِعلِ خضوع هو للمسحوقين والمُحتقَرين. ففي كلِّ حضارة "أراملُ ويَتامى"، أي أُولئك الذين لا مُعين لهم ولا مُدافع عنهم (يعقوب١: ٢٧). ومسؤوليَّتنا الأُولى هي أن نكون في ما بينهم. فعلى غرار القدِّيس فرنسيس في القرن الثالث عشر، وكاجاوَا في القرن العشرين، علينا أن نلتمس طُرقًا لنندمجَ اندماجًا أصيلًا مع المُضطهَدين والمنبوذين. وهنالكَ يجب أن نعيش حياة الصليب.

وسابعُ فِعلِ خضوع هو للعالم. فنحن نعيش في مُجتمَع دُوَلِيٍّ يتوقَّف بعضُه على بعض، ولا يمكننا أن نعيش في عُزلة تامَّة. كما أنَّ مسؤوليَّتنا البيئيَّة، أو انعدامَها، لا تؤثِّر فقط في الناس الذين حوالَينا، بل أيضًا في الأجيال التي ستُولَد بعد. والشُّعوب المُبتلاةُ بالجوع تؤثِّر فينا. فإنَّ فِعلَ خُضوعِنا هو تصميمٌ على أن نعيش أفرادًا مسؤولين في عالَمٍ مُتفلِّتٍ من المسؤوليَّة على نحوٍ مُتزايد.

ملاحظة ختاميَّة

لقد نشأتْ في أيَّامنا مشكلةٌ خاصَّةٌ بشأن الخضوع من حيثُ علاقته بالسُّلطة. والظَّاهرة التي أنا بصَدَد وصفها أمرٌ لاحظتُه تكرارًا. فحين يبدأ الناس بالانتقال إلى المجال الروحيّ، يرَونَ أنَّ المسيح يُعلِّم مفهومًا في السُّلطة يجري تمامًا بعكس تفكير أنظمةِ هذا العالم. ذلك أنَّهم يُقبلون إلى إدراك كون السُّلطة لا تكمن في المناصب أوِ الدرجات أوِ الألقاب أوِ المقامات، ولا في **أيِّ** رمزٍ خارجيّ. إذ إنَّ طريق

المسيح هي في اتِّجاهٍ آخر مختلف كُلِّيًّا، لكونه طريق السُّلطة الروحيَّة. فالسُّلطة الروحيَّة مُرتَّبة من الله وقائمة بمَدَدٍ من الله. وقد تعترف المؤسَّسات البشريَّة بهذه السُّلطة أو لا تعترف؛ فهذا لا يُحدِث أيَّ فرق. والسُّلطة الروحيَّة تتَّسم بالحنان والسُّلطان كِلَيهما. فالسَّالكون في الروح القدس يستطيعون أن يميِّزوها في الحال. إنَّهم يعرفون بِلا ارتياب أنَّ الخضوعَ واجبٌ للكلمة الصادرة بسُلطةٍ روحيَّة.

لكنْ- وهنا تكمن الصعوبة- ماذا نقول في الأشخاص الذين يشغلون "مناصب ذات سُلطة" ولكنَّهم يفتقرون إلى السُّلطة الروحيَّة؟ بما أنَّ المسيح أوضح أنَّ المنصب لا يؤتي السُّلطة، فهل ينبغي أن يُطاعَ أحدُ هؤلاء؟ ألا يمكننا بالأحرى أن نتجاهل كلَّ سُلطة أقامها البشر، ونبحثَ فقط عن السُّلطة الروحيَّة ونخضعَ لها؟ أسئلةٌ من هذا النَّوع يُثيرها أشخاصٌ يُريدون بإخلاصٍ أن يسلكوا سبيل الروح القدس. وهي أسئلةٌ مشروعة وجديرةٌ بإجابةٍ دقيقة.

ليسَتِ الإجابة بسيطة، ولكنَّها أيضًا ليست مستحيلة. **فإنَّ الخضوع الثوريَّ يأمُرنا بأن نعيش طائعين للسُّلطة البشريَّة إلى أن تصيرَ هدَّامة.*** وقد دعا بطرس وبولس كِلاهما إلى إطاعة الدَّولة الوثنيَّة، لأنَّهما أدركا الخير الجزيل الذي نتج من هذه المؤسَّسة البشريَّة. ولطالما تبيَّن لي أنَّ لدى "السُّلطات" البشريَّة مقدارًا كبيرًا من الحكمة التي نُهمِلُها فقط بتعريض أنفُسِنا للخطر.

إلى هذا أُضيف سببًا آخر من عندي لوجوب خضوعنا لأشخاص في مناصِب سُلطةٍ لا يعرفون السُّلطة الروحيَّة؛ ينبغي أن نخضع لهؤلاء بدافع اللياقة العامَّة، وبدافع التعاطف مع شاغل المَنصِب الصَّعب. ولديَّ عطفٌ عميق على شاغلي "ورطة" السُّلطة، لأنِّي شخصيًّا كنتُ في ذلك الموقع غير مرَّة. فأنْ تكون في مركز سُلطة؛ وأن تعلم أنَّ جذورك ليست كافيةَ العُمق في الحياة الإلهيَّة بحيث

* راجِع القسم الذي يتناول "حدود الخضوع".

تحوزُ السُّلطة الروحيَّة، هو مأزِقٌ مُربِك، بل شِبهُ موئس. وأنا أعرف ذلك الشعور المسعور الذي يجعل المرء يتبختر ويتباهى ويبتكر الحِيَل البارعة التي تؤثِّر في الناس لحملهم على الطاعة. وإن كان بعضٌ يستسهلون أن يضحكوا على هؤلاء الأشخاص ويزدرُوا بما لهم من "سُلطة"، فأنا لا أفعل ذلك. إنِّي أبكي من أجلهم، لأنِّي أعرف الألم والمُعاناة الداخليَّين اللذين يجب أن يتحمَّلوهُما كي يعيشوا في تناقُضٍ كهذا.

ثُمَّ إنَّ لنا أن نُصلِّيَ لأجل هؤلاء الأشخاص لكي يؤيَّدوا بمزيدٍ من القُدرة والسُّلطة. ولنا أيضًا أن نصيرَ أصدقاءَ لهم، ونُعاوِنَهم بأيَّة طريقة نستطيعها. وإن عشنا حياة الصليب أمامهم، فقد يتبيَّن لنا عاجلًا جدًّا أنَّهم يزدادون سُلطةً روحيَّة، كما نزداد نحنُ أيضًا.

٩

انضباطُ الخدمة

تعلَّم هذا الدَّرس: إنْ كان لك أن تعمل عمل نبيّ، فما تحتاج إليه ليس صولجانًا بل مِجرَفة.

برنار دو كلايْرڤو (Bernard of Clairvaux)

كما أنَّ الصليب هو رمز الخضوع، فإنَّ المِنشفة كذلك هي رمزُ الخدمة. فلمَّا جمع السيِّد المسيح تلاميذه لأجل العشاء الأخير، كانوا يتساءلون عمَّن هو الأعظم بينَهم. ولم تكُن هذه مسألةً جديدةً بالنسبة إليهم. "وداخَلهم فِكرٌ: مَن عسى أن يكون أعظمَ فيهم؟" (لوقا٩: ٤٦). ومتى حصل تساؤلٌ بشأن مَن هو الأعظم، يحصل تساؤلٌ بشأن مَن هو الأصغر. ذلك هو لُبُّ المسألة عندنا، أليس كذلك؟ فإنَّ مُعظَمنا يعلمون أنَّهم لن يكونوا الأعظمين أبدًا؛ إنَّما لا نكونَنَّ الأصغرين فحسب!

وبينما التلاميذ مجتمعون لأجل عشاء الفصح، كانوا على علمٍ تمامًا بأنَّ واحدًا منهم ينبغي أن يغسل أرجُل الآخرين. إنَّما كانتِ المشكلة أنَّ الأشخاص الوحيدين الذين يغسلون الأرجُل كانوا الأصغرين. وهكذا جلسوا هناك يكسو الوَسَخُ أقدامَهم. وكانت تلك مسألةً محرِجة حتَّى إنَّهم لم يشاؤوا أن يتحدَّثوا

بشأنها مجرَّد حديث. فلا أحدَ أراد أن يُعدَّ الأصغر. ثُمَّ أخذ يسوع مِنشَفةً ومِغسلًا، وأعاد تعريف العَظَمة.

وبعد أنْ عبَّر عن الخادميَّة عمليًّا أمامهم، دعاهم إلى طريق الخدمة: "إن كنتُ، وأنا السيِّد والمُعلِّم، قد غسلتُ أرجُلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضُكم أرجُلَ بعض: لأنِّي أعطيتُكم مثالًا، حتَّى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا" (يوحنَّا ١٣: ١٤و١٥). ومن بعض الأوجُه، يَروقُنا أن نسمع دعوة المسيح لإنكار الأب والأُمِّ والبيوت والحقول من أجل الإنجيل أكثرَ من أن نسمع هذه الكلمة الداعية إلى غسل الأرجل. فإنَّ إنكارَ الذاتِ المُتطرِّفَ يؤتينا شعورًا بالمغامرة. وإنْ ترَكْنا كلَّ شيء، تُتاح لنا حتَّى فُرصَةُ الاستشهاد المجيد. إنَّما في الخدمة يجب أن نختبر المِيتاتِ الصغيرة الكثيرة المُتمثِّلة في تخطِّي حدود ذواتنا. ذلك أنَّ الخدمة تدفعنا إلى القيام بما هو وضيعٌ وعاديٌّ وتافه.

ثُمَّ إنَّ في انضباط الخدمة حرِّيَّةً كبيرة أيضًا. فالخدمة تُمكِّننا من أن نقول "لا!" لألاعيب العالَم الخاصَّة بالاستعلاء والتسلُّط. إنَّها تُبطِلُ احتياجنا (وتوقَنا) إلى "تراتُبيَّة النَّقر". وهذا تعبيرٌ مُبينٌ وكشَّاف جدًّا. فكم نحنُ أشبهُ بالدَّجاج! ففي خُمِّ الدَّجاج، لا يعمُّ السَّلام قبل أن يتبيَّن جليًّا مَن الأعظم ومَنِ الأصغر، ومَن على كُلِّ درجة بين هذا وذاك. ولا تستطيع جماعةٌ من الناس أن توجَد معًا مدَّةً طويلة حتَّى تتقرَّر "تراتُبيَّة النَّقر" بوضوح. ويمكننا أن نرى هذا غايةً في السهولة في أُمورٍ مثل: أين يجلس الأشخاص، كيف يسير بعضُهم بالنسبة إلى بعض، مَن يُفسِح في المجال دائمًا حين يكون شخصان مُتكلِّمَين في الوقت نفسه، مَن يتراجع ومَن يتقدَّم حين ينبغي القيام بمَهمَّةٍ ما. (تبعًا للمهمَّة، قد يكون ذلك علامةَ سيادة أو علامة عُبوديَّة). وهذه الأمور مكتوبةٌ على وجه المجتمع البشريّ.

ليس بيتُ القصيد أنَّ علينا التخلُّص من كلِّ أثرٍ للقيادة أوِ السُّلطة. فمن

شأن أيِّ عالمِ اجتماع أن يُبيِّن سريعًا استحالة مَهمَّة كهذه. حتَّى بين المسيح والتلاميذ، تتجلَّى القيادة والسُّلطة بسهولة. إنَّما بيتُ القصيد أنَّ السيِّد المسيح أعاد كلِّيًّا تعريف القيادة وترتيبَ حدود السُّلطة.

لم يُعلِّم المسيح قطُّ أنَّ للجميع سلطةً مُتساوية. وبالحقيقة أنَّه قال الكثير بشأن السُّلطة الروحيَّة الأصيلة، وعلَّم أنَّ كثيرين يفتقرون إليها. غير أنَّ السُّلطة التي تكلَّم السيِّد المسيح بشأنها ليست سُلطةَ "تراتُبيَّة النَّقر". فعلينا أن نفهم بوضوح الطبيعةَ الثَّوريَّة التي تُميِّز تعليم السيِّد المسيح في هذه المسألة. إنَّه لم يعكسْ "تراتُبيَّة النَّقر" فحسْب، كما يحسب كثيرون، بل أبطلها حقًّا. فالسُّلطة التي تكلَّم بشأنها لم تكن سلطةً تهدف إلى استغلال الناس والسَّيطرة عليهم. إنَّها سُلطةُ خِدمة، لا سُلطة مَنصِب.

لقد قال السيِّد المسيح بصريح العبارة: "أنتم تعلمون أنَّ رؤساء الأُمم يسودونهم، والعظماء يتسلَّطون عليهم. **فلا يكون هكذا فيكم!**". إنَّه رفضَ على نحوٍ كامل وشامل أنظمة "تراتُبيَّة النَّقر" في زمانه. فكيف وجب أن تكون الحال بينهم إذًا؟ "مَن أراد أن يكون فيكم عظيمًا، فليكُن لكم خادمًا... كما أنَّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدم" (متَّى٢٠: ٢٥-٢٨). وعليه، فإنَّ سلطة يسوع الروحيَّةَ هي سُلطةٌ موجودةٌ لا في مَنصِبٍ أو لَقَب، بل في مِنشَفة.

خدمة برِّ الذات مقابل الخدمة الصحيحة

إن كان لنا أن ندرك الخدمة الصحيحة ونمارسها، فلا بدَّ من التمييز بوضوح بينها وبين "خدمة برِّ الذات".

إنَّ خدمة برِّ الذات تحصل من خلال المجهود البشريّ. فهي تُنفِق مقاديرَ هائلةً من الطاقة حاسبةً ومُخطِّطةً كيف تؤدِّي الخدمة. إذ تُعتمَد بياناتٌ

سوسيولوجيَّة وأبحاث اجتماعيَّة لتمكيننا من "مساعدة أُولئك القوم". أمَّا الخدمة الصحيحة فتصدر عن علاقة **بالآخَرِ** الإلهيِّ الساكِن في أعماق دواخلنا. إذ نخدم بدافعٍ من الحوافز المهموسة، من الإلحاحات الإلهيَّة. ولئن أنفقنا طاقة، فليست هي طاقة الجسد المسعورة. وقد كتب ثوماس كَلِي: "أرى أنَّه (المسيح) لا يُرشِدنا أبدًا إلى اندفاعات مذعورة لا تُطاق من اللُّهاث المحموم".[1]

كذلك تنطبع خدمةُ برِّ الذات "بالمآثر الجليلة". فهي معنيَّة بإحراز مكاسبَ باهرةٍ تذكرها السِّجلاتُ الكنسيَّة. وهي تستمتع بالخدمة، لا سيَّما حين تكون الخدمة هائلة. إنَّما الخدمة الصحيحة يكاد يستحيل عليها أن تُميِّز بين الخدمة اليسيرة والخدمة الكبيرة. وحيثُ يُلاحَظ فَرق، فغالبًا ما ينجذب الخادم الحقيقيُّ إلى الخدمة اليسيرة، لا بدافعِ تواضُعٍ زائف، بل لأنَّه حقًّا يرى هذه على أنَّها الخدمة الأهمّ. فهو يرحِّب دونَ تمييز بكلِّ فُرصةِ خِدمة.

وتُطالِب خدمةُ برِّ الذات بالمكافآت الظاهرة. فهي تحتاج أن يعرف الناس المجهود ويُقدِّروه. وهي تطلب تصفيق البشر- مع احتِشام دينيٍّ طبعًا. أمَّا الخدمة الصحيحة فتبقى قانعةً بالاختفاء. إنَّها لا تخشى أضواءَ الاهتمام وبَريقَه، ولكنَّها أيضًا لا تطلبها. فبما أنَّها تنبع من **مركزٍ** مرجعيَّة جديد، تكفيها تمامًا إيماءةُ الاستحسان الإلهيَّة.

وتُعنى خدمةُ برِّ الذات كثيرًا بالنتائج. فهي تنتظر بلهفة لترى إن كان الشخص المخدوم سيردُّ بالمِثل. وهي تغتاظ إذا قصَّرتِ النتائج عنِ المُتوقَّع. أمَّا الخدمة الصحيحة فهي مُتحرِّرة من الحاجة إلى حسبان النتائج. إنَّها تبتهج فقط بالخدمة. وفي وسعها أن تخدم الأعداء بمثل الحرِّيَّة التي تخدم بها الأصدقاء.

كذلك تنتقي خدمةُ برِّ الذات وتختار مَن تخدم. فأحيانًا يُخدَم ذَوو المناصب والنُّفوذ لأنَّ ذلك سيضمن امتيازًا مخصوصًا. وأحيانًا يُخدَم الوُضَعاء والمتروكون

لأنَّ ذلك سيضمن صورةَ اتِّضاع. أمَّا الخدمة الصحيحة فهي لا تعتمد التمييز في خدمتها. وهي قد سمعت وصيَّة السيِّد المسيح بأن يكون المؤمن "خادمًا للكُلّ" (مرقس٩: ٣٥). وقد كتب الأخُ فرنسيس الأسِّيزيُّ في إحدى رسائله هذه الملاحظة: "لكوني خادمًا للكُلّ، فأنا مُلزَمٌ أن أخدم الجميع، وأُقدِّم لهم كلماتِ سيِّدي الشافية".[٢]

وتتأثَّر خدمةُ برِّ الذات بالأمزجة والأهواء. ففي وسعها أن تخدم فقط حين يتوافر "شعور" بوجوب الخدمة ("حين يُحرِّكنا **الروح**" كما نقول). ويتحكَّم بالرغبة في الخدمة سوءُ الصِّحة أو قِلَّة النوم. أمَّا الخدمة الصحيحة فتؤدِّي عملها ببساطة وأمانة لأنَّ الحاجة تدعو إليها. وهي تعلم أنَّ "الشعور بوجوب الخدمة" قد يكون في الغالب مُعيقًا للخدمة الصحيحة. فالخدمة تضبط المشاعر بدل أن تسمح للشعور بأن يُسيطِرَ على الخدمة.

إنَّ خدمة البرِّ الذاتيِّ وقتيَّة. فهي تؤدِّي دورها فقط حين تكون أفعال الخدمة المُحدَّدة قيدَ التنفيذ. وبعد تأدية هذه الخدمة لدورها، تستطيع أن تخلدَ إلى الراحة. أمَّا الخدمة الصحيحة فهي نَمَطُ حياة. إنَّها تتصرَّف بدافعٍ من نماذجِ سلوك راسخة، وتطلع تلقائيًّا لتُلبِّي احتياجات الإنسان.

ثُمَّ إنَّ خدمة البرِّ الذاتيِّ غيرُ حسَّاسة. فهي تُصِرُّ على تلبية الحاجة حتَّى حين يكون القيامُ بذلك هدَّامًا. إنَّها تُطالِب بالمُناسَبة المؤاتية للمُساعدة. أمَّا الخدمة الصحيحة فتستطيع أن تُحجِم عن تأدية الخدمة بمثل الحُرِّيَّة التي تُقدِم بها على تأديتها. وهي تستطيع أن تصغي برِفق ورِقَّة وتأنٍّ قبل أن تتصرَّف. وتستطيع أن تخدم بالانتظار في سُكوت وسُكون. إذ "إنَّ الذين يقفون وينتظرون فقط يخدمون أيضًا".[٣]

وخدمة البرِّ الذاتيِّ تُصدِّع تماسُك الجماعة. ففي الحصيلة النهائية، ما إن تُزال جميعُ الزَّخارف الدينيَّة حتَّى تُركِّزَ هذه الخدمة على تمجيد الفرد. ولذلك

تضع الآخرين تحتَ دَيْنٍ لها، وتصبح واحدًا من أدهى أشكال الاستغلال المعروفة وأكثرها هدَّاميَّة. أمَّا الخدمة الحقيقيَّة فتبني الجماعة. ذلك أنَّها بغير ضجيجٍ ومُباهاة تعكف على الاعتناء باحتياجات الآخرين. إنَّها تُقرِّب وتُوَحِّد وتَشفي وتبني.

الخدمة والتواضُع

أكثر ممَّا يحصل بواسطة أيَّة طريقة مُنفرِدة أُخرى، تعمل نعمة التواضع عملها داخِلَ حياتنا من خلال انضباط الخدمة. فالتواضع، كما نعلم جيِّدًا، هو إحدى تلك الفضائل التي لا تُكتسَب أبدًا بواسطة السَّعي إليها. إذ كُلَّما ألححنا في طلبها أكثر، باتت عنَّا أبعد. وأن نظنَّ أنَّنا نمتلكها أمرٌ يُبيِّن يقينًا أنَّها ليست في حوزتنا. ولذلك يفترض معظمُنا أنْ ليس من شيءٍ نستطيع القيام به لنكسب هذه الفضيلة المسيحيَّة الثمينة، ومِن ثَمَّ لا نقوم بأيِّ شيء.

غير أنَّ هنالك شيئًا نستطيع القيام به. فلا داعيَ لأن نشقَّ طريقنا في الحياة خائرين ونحن نأمل أن يهبط التواضُع على رؤوسنا ذات يوم. ذلك أنَّ الخدمة وحدها، بين الانضباطات الروحيَّة المأثورة كلِّها، هي الأكثرُ إفضاءً إلى نُشوءِ التواضُع ونُموِّه. فعندما نسلك سبيلَ عملٍ نختاره مُدرِكينَ واعِين، يُشدِّد على خير الآخرين ويكون في مُعظَمِه عملًا مَخفيًّا، عندئذٍ يحدث تغييرٌ عميق في نفوسنا.

لا شيءَ **يضبط** أهواءَ الجسد الجامحة مثل الخدمة، ولا شيء **يُحوِّل** أهواء الجسد مثل الخدمة في الخفاء. فالجسد يتأفَّف من الخدمة، ولكنَّه يصرخ عاليًا ضدَّ الخدمة المَخفيَّة. إنَّه يُجاهِد ويندفع في سبيل الإكرام والاحترام. ولا بدَّ أن يبتكر وسائل ماكرة، مقبولة دينيًّا، لأجل لفت الانتباه إلى الخدمة المؤدَّاة. فإنْ كُنَّا نرفض

بجسارةٍ الاستسلامَ لشهوة الجسد، فإنَّنا نصلبه. وكلَّما صلبنا الجسد، نصلب كبرياءنا وغرورنا.

كتب الرسول يوحنَّا: "لأنَّ كلَّ ما في العالم، شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظُّم المعيشة، ليس من الآب بل من العالم" (١يوحنَّا ٢: ١٦). ونحن نُخفق في إدراك قوَّة هذه الآية بسبب ميلنا إلى ربطها كلِّها بالخطيَّة الجنسيَّة. غير أنَّ "شهوة الجسد" تُشير إلى الإخفاق في ضبط الأهواء البشريَّة الطبيعيَّة. ويقول سي. إتش. دُد إنَّ "شهوة العيون" إشارة إلى "نزعة الوقوع في أسر المنظر الخارجيّ". وهو يُعرِّف "تعظُّم المعيشة" بأنَّه "الأنانيَّة المُدَّعية".[٤] وفي كِلتا الحالتَين يُلاحَظ الأمرُ عينُه: الافتتان بالقُدرات والمَلَكات البشريَّة الطبيعيَّة بغيرِ أيِّ اتِّكال على الله. ذلك هو الجسد ناشطًا وعاملًا، والجسدُ عدوُّ التواضُع اللدود.

فالحاجةُ تدعو إلى أصرمِ انضباطٍ يوميٍّ لكبْح هذه الأهواء. إذ ينبغي أن يتعلَّم الجسد الدرسَ المؤلمَ أنْ ليست له حقوقٌ خاصَّةٌ به. وعمل الخدمة المَخفيَّة هو ما سيُنجز إذلالَ الذاتِ هذا.

لقد خلَّف وليَم لُو (William Law) أثرًا باقيًا في إنكلترا القرنِ الثامن عشر بكتابه "دعوةٌ جدِّية إلى حياة طاهرة وتقيَّة" (A Serious Call to a Devout and Holy Life). ففي هذا الكتاب يُصِرُّ هو على أنَّ كلَّ يوم ينبغي أن يُنظَر إليه على أنَّه يومُ تواضُع. وكيف اقترح أن نفعل هذا؟ بتعلُّمنا خدمةَ الآخرين. وقد فهم لاو أنَّ **انضباط الخدمة** هو الذي يأتي بالتواضُع إلى الحياة. فإن أردنا التواضُع، فهو يُشير علينا بأن "نتنازلَ إلى جميع ضعفات إخواننا البشر وعيوبهم، ونسترَ نقائصهم، ونحبَّ مفاخرهم، ونستحثَّ فضائلهم، ونُلبِّيَ احتياجاتِهم، ونبتهج بنجاحاتهم، ونتعاطف مع ضيقاتهم، ونتقبَّل صداقتهم، ونتغاضى عن فظاظتهم، ونغفرَ لهم خُبثَهم، ونكونَ خُدَّامًا للخُدَّام، ونتنازل للقيام بأدنى الخدمات لأدنى البشر".[٥]

ومن ثَمَّ تكونُ نتيجة هذا الضَّبط اليوميِّ للجسد نشوء نعمة التواضع. فهي ستُسبَغ علينا على غير عِلمٍ منَّا. ومع أنَّنا لا نحسُّ وجودَها، فإنَّنا نعي حماسةً وابتهاجًا جديدَين بالحياة. ونُعجَب بإحساس الثقة الجديد الذي تتَّسم به نشاطاتُنا. ولئن كانت مطالب الحياة جسيمةً كحالها دائمًا، فإنَّنا نعيش في إحساس جديد بالسَّلام غير المسعور. وأُولئك الأشخاص الذين لم نكُن نكنُّ لهم سوى الحسد بتنا الآن ننظر إليهم بعين العطف، لأنَّنا لا نرى مقامهم فقط بل آلامهم أيضًا. ومَن كان من شأننا أن نتخطَّاهم مِن قبل، "نراهم" الآن ونجدهم أشخاصًا مُبهِجين. وبطريقةٍ ما- لا يمكننا تمامًا أن نشرح كيفيَّتها- نشعر بروحٍ جديدة من الاندماج بالمنبوذين، "أقذارِ العالَم" (١كورنثوس٤: ١٣).

حتَّى إنَّنا، أكثر من التحوُّل الحادث في داخلنا، نحسُّ حبًّا أعمق وفرحًا أعظم بالله. وتتخلَّلُ أيَّامَنا أنفاسُ حمدٍ وتعبُّدٍ تلقائيَّة. فإذا بالخدمة المخفيَّة البهيجة المؤدَّاة للآخرين تغدو صلاةَ شُكرٍ فعليَّة. ويبدو لنا أنَّنا خاضعون لتوجيهات مركز سيطرة جديد... ونحن نكون هكذا حقًّا.

نعم... ولكن

يصحب أيَّ بحثٍ في الخدمة تردُّدٌ طبيعيٌّ يمكن فهمُه. وهذا التردُّد أمرٌ يتَّصف بالتعقُّل، ما دام من الحكمة أن نحسب الكلفة قبل الغوص توًّا في أيٍّ من الانضباطات. فنحن نختبر خشيةً يُعبَّر عنها بقولٍ من قبيل هذا: "إذا فعلتُ كذا، فإنَّ الناس سوف يستغلُّونني؛ إنَّهم سيَدوسونني ويعبرون فوقي!"

هنا تمامًا يجب أن ندرك الفرق بين اختيار المرء أن يخدم واختياره أن يكون خادمًا. فعندما نختار أن نخدم، يبقى زِمامُ السيطرة بأيدينا. إذ نُقرِّر نحنُ مَن نخدم

ومتى نخدم. وإن كُنَّا نحنُ المسيطرين، نقلق كثيرًا بشأن أيِّ شخصٍ يدوسُ علينا، أي يتولَّى السيطرة علينا.

ولكنْ حين نختار أن نكون خُدَّامًا، نتخلَّى عن حقِّنا في السيطرة. وفي هذا حُرِّيَّةٌ عظيمة. فإن اخترنا طوعًا أن يستغلَّنا الآخرون، فعندئذٍ لا يمكن التلاعبُ بنا. وإذا اخترنا أن نكون خُدَّامًا، نتخلَّى عن حقِّنا في أن نُقرِّر مَن ومتى نخدم. إنَّنا نصير مُتوافِرين ومُنكشِفين.

تأمَّلْ منظورَ عبدٍ ما. فالعبد يرى الحياة كلَّها من وجهة نظرِ العبوديَّة. إنَّه لا يرى ذاته حائزًا حقوق الرجال والنساء الأحرار بعينها. رجاءً، افهمْ ما أقول! حين تكون هذه العبوديَّة قسريَّة، فهي قاسية ومُجرِّدة للإنسان من الإنسانيَّة.* ولكنْ حين تُختارُ العبوديَّةُ طوعيًّا، يتغيَّر كلُّ شيء. فالعبوديَّة الطوعيَّة فَرَحٌ عظيم.

ربَّما كانت استعارةُ العبوديَّة صعبةً علينا، ولكنَّها لم تكُن صعبةً على الرسول بولس. فهو تكرارًا افتخر بعبوديَّةٍ للمسيح، مستخدمًا استخدامًا سخيًّا مفهومَ "عبد المحبَّة"** الذي كان سائدًا في القرن الأوَّل (أي العبد الذي بدافعٍ من المحبَّة اختار بملء حرِّيَّته أن يبقى عبدًا). ونحن نبذل قُصارى جهدنا لتلطيف لغة بولس بأن نترجم الكلمة الأصليَّة "خادمًا" بدلًا مِن "عبد". ولكنْ مهما كانت الكلمة التي نُقرِّر استعمالها، فليتأكَّدْ أنَّنا نفهم أنَّ بولس قصد تخلِّيه بملء حرِّيَّته عن حقوقه.

وعليه فإنَّ الخوف من أن نُستغَلَّ ونُداس أمرٌ مُبرَّر. فذلك هو ما قد يحدث تمامًا. ولكنْ مَن يستطيع أن يؤدِّيَ شخصًا اختار بملء حرِّيَّته أن يُداس؟ إنَّ توما

* كان جزءٌ من دراستي لحيازة الدكتوراة مَعنيًّا بالعبوديَّة في أميركا. وأنا مُدرِكٌ تمامًا الطبيعة الشيطانيَّة المروِّعة التي اتَّسمت بها العبوديَّة القسريَّة.

** الكلمة المُستخدَمة في الكتاب المقدَّس هي (Doulos) وفي اليونانيَّة (δοῦλος) وتعني حرفيًّا "عبد". غير أنَّها وردتْ في الترجمات العربيَّة مترجَمةً "خادمًا"، والترجمة الأدقُّ هي "عبد" (الناشر).

الكمبيسيّ يوجّهنا قائلًا: "كُن خاضعًا بحيث يُتاح لجميع الناس أن يعبروا عليك ويدوسوك كما يُداس طِينُ الأزِقّة".[٦]

في "**أزهار القدِّيس فرنسيس الصغيرة**" (The Little Flowers of St. Francis) تُحكى قصّةٌ مُبهِجة عن كيفيّة تعليم فرنسيس للأخ لِيُو معنى الفرح الكامل. فبينما كان الاثنان يسيران معًا تحت المطر في البرد القارس، ذكّر فرنسيس ليو بكلِّ ما يعتقد العالَم- بما فيه العالَم الدينيّ- أنّه يجلب الفرح، مُعقِّبًا كلَّ مرّة بالقول "إنَّ الفرح الكامل ليس في هذا". أخيرًا سأل الأخُ لِيُو مُسخَطًا: "أتوسَّلُ إليك باسم الله أن تقول لي أين الفرح الكامل". وعلى إثر ذلك أخذ فرنسيس يُعدِّد أكثر ما استطاع تصوُّره من الأُمور إذلالًا وقهرًا للذات، مُعقِّبًا كلَّ مرّة بالقول: "أيُّها الأخ لِيُو، سَجِّل أنَّ الفرح الكامل كامنٌ هنا". ولكي يُفسِّر فرنسيس الأمر ويحسمه، قال للأخ لِيُو: "على رأس جميع نِعَم الروح القدس وهباته التي يعطيها المسيح لأحبَّائه عطيَّةُ انتصار المرء على ذاته واحتماله طواعيةً واختيارًا للآلام والإهانات والإذلالات والضيقات من أجل محبَّة المسيح".[٧]

إنّنا نستصعب اليوم تقبُّلَ كلام كهذا. (هلَّا تعي أنّي أنا أيضًا أُصارِعُ حتّى الإصغاءَ إلى كلمات أساتذة التأمُّل والتعبُّد في هذا الأمر!) فنحن نخشى أن يَهويَ بنا موقفٌ كهذا حتمًا ونهائيًّا إلى سبيل التقشُّف وإماتة الذات المُفرِطَين. والآنَ فقط، في الكنيسة، نحنُ خارجون من "مفهوم الدودة اللاهوتيّ" الذي همَّش على نحوٍ رهيب قدرةَ الإنسان وإمكانَه. فهل تعود بنا الخدمة إلى ذلك المفهوم؟ كلّا بالطبع! لا شكَّ أنَّ هذا خطر يجب أن نحترس منه دائمًا. ولكنَّ علينا أيضًا أن نحترس من العدوِّ الآتي علينا من الجهة المُعاكِسة. فكما يقول بونهويفر: "إن لم يكُن في حياتنا عنصرُ تقشُّف؛ وإن انصعنا لشهوات الجسد، فسوف يصعب علينا أن نتدرَّب لأجل خدمة المسيح".[٨]

الخدمة في مَيدان العمل

ليسَت الخدمةُ لائحةَ أُمور نقوم بها، وإن كُنَّا نكتشف فيها أُمورًا نفعلُها. وليست قانونَ أخلاقيَّات، بل طريقةُ حياة. فأنْ نقوم بأفعال خدمة معينَّة ليس هو عيشَ انضباطِ الخدمة عينَه. وكما أنَّ ما يتعلَّق بلعبة كرة السلَّة يتخطَّى بكثيرٍ دليلَ قوانينها، فإنَّ الخدمة تتخطَّى بكثيرٍ أفعال الخدمة المُحدَّدة. وأنْ **يتصرَّف** المرء كأنَّه خادم هو شيء؛ أمَّا أن **يكون** خادمًا فشيءٌ آخر مختلفٌ تمامًا. فكما في الانضباطات كلِّها، يمكن أن يُتقِن المرء آليَّاتِ الخدمة بغير أن يختبرَ **الانضباطَ** عينَه.

ولكنَّ التشديد على طبيعة الخدمة في ذاتها ليس كافيًا. فلكي تكون الخدمةُ خِدمةً، يجب أن تتصوَّر في العالَم الذي نعيشُ فيه. لذلك ينبغي أن نلتمس إدراكَ ماهيَّة الخدمة في ميدان العمل المتعلِّق بحياتنا اليوميَّة.

بادئَ ذي بدء، هنالك خدمة المخبوئيَّة. حتَّى القادةُ العامُّون يمكنهم أن يتعهَّدوا أعمالَ خدمةٍ تبقى غير معلومة على العموم. فإن كانت خدمتنا كلُّها قُدَّام الآخرين، فسنكون أُناسًا سطحيِّين حقًّا. أصغِ إلى التوجيه الروحيِّ الذي يُقدِّمه جيريمي تايلر: "أحبِب أن تكون مُختفيًا، وأنَ تلْقَى تقديرًا ضئيلًا. واقنَعْ بأنْ تفتقر إلى المديح، بحيث لا تنزعج أبدًا حين تُهان أو يُبخَسُ قَدْرُك..."[9] فإنَّ المخبوئيَّة انتهارٌ للجسد، وفي وسعها أن تُسدِّد إلى الكبرياء ضربةً قاضية.

قد يبدو أوَّلَ وهلة أنَّ الخدمة المَخفيَّة هي فقط لمصلحة المخدوم . غير أنَّ الحال ليست هكذا. فالخدمات المخبوءة المجهولة تؤثِّر حتَّى في الأشخاص الذين لا يعرفون عنها شيئًا. إذ يشعر هؤلاء بمحبَّة وعطف أعمق بين الناس، وإن كانوا لا يستطيعون تسويغ هذا الشعور. فإن أُدِّيَت خدمةٌ خفيَّةٌ لخيرهم، يُلهَمون التقدُّمَ إلى تَقوى أقوى، إذ يعلمون أنَّ ينبوع الخدمة أعمقُ بكثيرٍ من أن يستطيعوا رؤيته. وهذه خدمة يتمكَّن جميع الناس من أن ينهمكوا فيها في أغلبَ الأحيان. كما

أنَّها تبعث تموُّجاتٍ من الفرح والابتهاج وسط أيَّةِ جماعةٍ من الناس.

ثُمَّ هنالك خدمةُ الأشياء الصغيرة. فعلى غِرار طابيثا، نَجِدُ سبُلًا لأنْ نصنع "أقمصةً وثيابًا" (أعمال الرُّسل ٩: ٣٩). وإليك قصَّةً حدثت فعلًا. في أثناء نوبات السُّعر الأخيرة التي مررتُ بها وأنا أكتب أُطروحة الدكتوراة، تلقَّيتُ مُخابَرةً من أحد أصدقائي. كانت زوجتُه قد أخذَتِ السيَّارة، فطلب إليَّ إن أمكن أن أُقلَّه لتأدية بعض الأشغال. كنتُ وإذ حائرًا مغلوبًا على أمري، لبَّيتُ طلبه، ناعيًا حظِّي في سرِّي. وبينما أنا مُندفعٌ إلى خارج الباب، التقطتُ كتابَ بونهويفر "**الحياة معًا**"، عسى أن تتيسَّر لي فرصةٌ للقراءة فيه. وخلالَ كلِّ شُغل من الأشغال، اعتمل في داخلي القَلَق والاستياء لضياع وقتي الثمين. أخيرًا، في أحد المراكز التجاريَّة الكُبرى، آخرِ محطَّة، لوَّحتُ بيدي لصديقي، قائلًا له إنَّني سأنتظره في السيَّارة. ثُمَّ تناولتُ الكتاب، وفتحتُه إلى حيثُ العلامَة، وقرأتُ هذه الكلمات: "الخدمة الثانية التي ينبغي للمرء أن يؤدِّيَها لآخَر ضمن الجماعة المسيحيَّة هي خدمةُ المُساعَدة الفعَّالة. وهذا يعني مبدئيًّا مجرَّد المُعاوَنة في الشؤون البسيطة الخارجيَّة. فهنالك جَمهرةٌ من هذه الأشياء حيثما عاش الناس معًا. وليس من أحدٍ أرفعُ من أن يؤدِّيَ أدنى خدمة. فمَن أقلقه ضياعُ الوقت الذي تستغرقه تأديةُ أفعال المُساعَدة البسيطة الخارجيَّة هذه يكون في العادة مُضفِيًا أهمِّيَّةً مُفرِطة على مهنته الخاصَّة".[١٠]

ويقول فرنسيس دو سال إنَّ الفضائل الكبيرة والأمانات الصغيرة تُشبه السُّكَّر والملح. ولئن كان السُّكَّر أطيبَ مذاقًا، فإنَّ استعماله أقلُّ تواترًا. أمَّا الملح فموجودٌ في كلِّ مكان. فالفضائل الكبيرة نادرةُ الحدوث، ولكنَّ خدمة الأشياء الصغيرة هي خدمة يوميَّة. وبينما تقتضي المهامُّ العظيمة تضحيةً كبيرة إلى حين، تقتضي الأشياءُ الصغيرة تضحيةً دائمة. "إنَّ المُناسبات الصغيرة تعود كلَّ لحظة. فإن شئنا أن نكون أُمَناء بشأن هذه الأُمور الصغيرة، لا تُتيح لنا الطبيعة أبدًا وقتًا لالتقاط

الأنفاس، وينبغي أن نموتَ حيالَ جميعِ مُيولنا. ونحن نُفضِّل مئة مرَّة أن نقوم ببعض التضحيات الكبيرة في سبيل الله، مهما كانت شديدةً ومؤلِمة، بشرط أن يكون لنا ملءُ الحرِّيَّة لاتِّباع أذواقنا وعوائدنا في كلٍّ من التفاصيل اليسيرة".[١١]

في عالَم الروح، سرعان ما يتبيَّن لنا أنَّ القضايا الحقيقيَّة كامنةٌ في زوايا الحياة الصغيرة وغير المهمَّة. وقد أعمانا افتتانُنا "بالأُمور المُهِمَّة" عن رؤية هذه الحقيقة. فإنَّ خدمة الأُمور البسيطة لا بدَّ أن تضعنا في مواجهة تراخينا وكسلنا. وينتهي بنا المطاف إلى رؤية الأشياء الصغيرة حاسبين إيَّاها قضايا أساسيَّة. وقد كتب فَنيلُون: "ليس إعلاءً للروح أن نشعر بالازدراء حيالَ الأُمور الصغيرة. إنَّما، على العكس، بسبب من وجهات نظر ضيِّقة جدًّا فإنَّنا نعدُّه صغيرًا ما له عواقبُ بعيدةُ المدى كثيرًا".[١٢]

وهنالك أيضًا خدمةُ صيانة سُمعة الآخرين، أو كما سمَّاها برنار دو كلايرڤُو، "خدمة المحبَّة". وكم هذه ضروريَّةٌ إذا كان لنا أن نُنقَذ من الاغتياب والقيل والقال! فقد علَّم الرسول بولس المؤمنين أنْ "لا يطعنوا في أحد" (تيطس٣: ٢). ولئن ألبسْنا اغتيابَنا بكلِّ ما شئنا من المُحترَميَّة الدينيَّة، فإنَّه يبقى سُمًّا مُميتًا. ففي ضبط المرء لسانَه انضباطٌ يعمل العجائب في داخلنا.

ولا ينبغي أيضًا أن ننحاز إلى الأحاديث التي تُشوِّه سمعة الآخرين. وقد كانت لنا في إحدى الكنائس التي خدمتُ فيها قاعدةٌ في فريق الرُّعاة بات الأعضاء يُقدِّرونها جيِّدًا. إذ رفضْنا أن نسمح لأيِّ شخصٍ في الجماعة بأن يذمَّ أحدَ الرُّعاة أمام راعٍ آخر. وكنَّا نطلب إليهم، بلُطفٍ لكنْ بحزم، أن يذهبوا مباشرةً إلى الراعي "المُسيء". وفي نهاية المطاف فهم المؤمنون صراحةً أنَّنا لن نسمح لهم بأن يتكلَّموا إلينا عن الراعي فُلان الفُلانيّ. وكانت لهذه القاعدة التي تمسَّك بها فريق الرُّعاة جميعًا نتائجُ مُفيدةٌ جدًّا.

يُنبِّهنا برنار إلى أنَّ اللسان الحقود "يوجِّه ضربةً قاضية إلى المحبَّة لدى جميع الذين يسمعونه مُتكلِّمًا، وبمقدارِ ما يستطيع فإنَّه يُتلِف الجذور والأغصان، ليس في السامعين المباشرين فقط، بل أيضًا في جميع الذين تُكرَّر لهمُ المَذمَّة لاحقًا، طائرةً من شفةٍ إلى شفة".[١٣] فإنَّ صيانة سُمعة الآخرين خدمةٌ عميقةُ الجذور ودائمةُ الأثر.

وهنالك أيضًا خدمةُ تَلقِّي الخدمة. فلمَّا باشر السيِّد المسيح غسل أرجُل أحِبَّائه، أبى بطرس، إذ لم يقبل أن يتنازل سيِّدُه إلى خدمة وضيعة كهذه يؤدِّيها له. وفيما بدا هذا تصريحًا ينمُّ عن تواضُع، كان بالحقيقة فِعلَ كبرياء مُقنَّعًا. قد شكَّلت خدمة السيِّد المسيح تحدِّيًا لمفهوم بطرس بشأن السُّلطة: لو كان بطرس هو المُعلِّم، لَمَا غسل الأرجُل!

إنَّه فِعلُ خضوع وخدمة أن نَدَع الآخرين يخدموننا. فهو يعترف بما لهم علينا من "سُلطة مُتَّصلة بالمَلَكوت". ونحن نقبل بسماحةٍ خدمتَهم المؤدَّاة، غير شاعرين أبدًا بأنَّ علينا أن نُكافئهم بمِثلها. فأولئك الذين بدافعٍ من الكبرياء يرفضون أن يُخدَموا يُخفِقون في الخضوع للقيادة المُعيَّنة إلهيًّا في ملكوت الله.

ثُمَّ هنالك خدمة الكياسة العامَّة. وقد لَقِيَت أفعالُ اللُّطف والعطف هذه أزمنةً صعبةً في أيَّامنا. ولكنَّ علينا ألَّا نزدريَ أبدًا بآداب العلاقة التي تشتمل عليها كلُّ حضارة. فهي واحدةٌ من الطُّرق القليلة التي بقيتْ في المجتمع العصريِّ لاعتراف الواحد بقيمة الآخر. وعلينا أن نكون "حلماء، مُظهِرين كلَّ وداعة لجميع الناس" (تيطس٣: ٢).

إنَّ المُرسَلين يدركون أهمِّيَّة الكياسة. فهم لا يتجاسرون على الاندفاع إلى إحدى القُرى مُطالبين بأن يسمعهم الناس دون أن يُعرِّجوا أوَّلًا على آداب التعارُف والمُجامَلة المألوفة. ورغمَ ذلك يشعر بعض الغربيِّين بأنَّ في وسعهم أن يُخالِفوا هذه

الأعراف في حضارتهم ومع ذلك يستقبلهم الناس ويستمعون إليهم. ثُمَّ يتساءلون لماذا يأبى الجميعُ أن يُصغوا إليهم. ربَّما نقول مُتأفِّفين: "ولكنَّ أفعال الكياسة عديمة المعنى جدًّا ومُنطويةٌ على كثيرٍ من الرِّياء!" غير أنَّ هذه خُرافة. فهي جزيلة المعنى جدًّا، وليست ريائيَّة بالحدِّ الأدنى. وما إن نتغلَّب على مُكابرتنا الأنانيَّة من جهة حقيقة كون الناس لا يريدون فعلًا أن يعرفوا كيف هي حالُنا حين يسألوننا "كيف الحال؟" حتَّى يتسنَّى لنا أن ندرك أنَّها مجرَّد طريقة مُهذَّبة للاعتراف بحضورنا. وفي وسعنا أن نعترف بحضورهم مرحِّبين أيضًا، دون شعورٍ بالاضطرار إلى إعطائهم تكهُّنًا بشأن آخِر صُداع أصابنا. ثُمَّ إنَّ تعابيرَ من قبيل "شكرًا" و"من فضلك" و"رجاءً" وبطاقات الخِطاب والجواب هي كُلُّها خدماتُ كياسة. لا بدَّ أن تختلفَ الأفعال المحدَّدة بين حضارة وأُخرى؛ ولكنَّ الغاية هي دائمًا نفسها: أن نعترف بالآخرين ونؤكِّد أهمِّيَّتَهم. ثُمَّ إنَّ الحاجة ماسَّةٌ جدًّا إلى خدمة الكياسة في مُجتمَعِنا المُحوسَب والمُتباعِد عنِ العلاقات الشخصيَّة المباشرة على نحوٍ مُتفاقِم.

وهنالك أيضًا خدمة الضيافة. فالرسول بطرس يحثُّنا أنْ "كونوا مضيفين بعضكم بعضًا بلا دمدمة" (١بط٤: ٩). وكذلك يفعل بولس أيضًا، حتَّى إنَّه يجعل الضيافة شرطًا من شروط وظيفة النُّظَّار (١تيموثاوس٣: ٢؛ تيطس١: ٨). وتدعو الحاجة الماسَّة اليوم إلى مؤمنين يفتحون بيوتهم بعضُهم لبعض. فالفكرة القديمة التي كانت تقضي ببناء بيتٍ للضيوف أبطلها انتشار الفنادق والمطاعم حديثًا. ولكنَّ لنا أن نتساءل بجِدِّيَّة عن كون هذا التغيير تقدُّمًا. وقد جُلتُ على الإرساليَّات الإسبانيَّة في كاليفورنيا، فأعجبتني الإعداداتُ الوافية السخيَّة التي أُنشئت للضيوف. ولربَّما كانَت الفنادق الحديثة البرَّاقة البعيدة عنِ العلاقات الشخصيَّة المُباشرة هي التي كان ينبغي أن تُبطَل!

أعرفُ زوجَين سعَيَا إلى جَعْل خدمة الضيافة أولويَّةً في حياتهما. وفي أيِّ شهرٍ بعينه، يستقبلان في منزلهما نحو سبعين زائرًا. فتلك خدمةٌ يعتقدان أنَّ الله

دعاهما إليها. ولئن كان معظمنا لا يستطيعون القيام بمثل ذلك، ففي وسعنا أن نفعل شيئًا ما. وفي وسعنا أن ننطلق من نُقطةٍ ما.

ونحن نضع لأنفُسنا الحدود أحيانًا لأنَّنا نجعل الضيافة أمرًا بالغ التعقيد. فإنِّي أذكر مُناسبةً كانت فيها المُضيِّفة تصول وتجول، خادمةً هذا وذاك، وهي تودُّ بإخلاصٍ أن تجعل الجميع يشعرون بالراحة. وإذا بأحد أصدقائي يُفاجئُنا جميعًا (ويُريح الجميع أيضًا) بقوله: "يا هيلين، لا أُريد قهوة، ولا أُريد شايًا، ولا أُريد حلوى، ولا أُريد فوطة. إنِّي أُريد فقط أن أستأنس بالزيارة. فهلَّا تجلسين وتتحدَّثين معنا!" فقَوامُ الضيافة أساسًا إتاحةُ الفرصة للحضور والتشارُك معًا.

ثُمَّ هنالك خدمةُ الإصغاء. "أوَّلُ خدمة يدين بها المرء للآخرين في الجماعة تكمن في الإصغاء إليهم. فكما أنَّ محبَّة الله تبدأ بالإصغاء إلى كلمته، كذلك بدايةُ محبَّة الإخوة هي تعلُّم الإصغاء إليهم".[١٤] فنحن في حاجة ماسَّةٍ جدًّا إلى المساعدة التي يمكن أن تأتيَنا من خلال إصغاء أحدنا للآخر. ولا داعيَ لأنْ نكون مُحلِّلين نفسيِّين مُدرَّبين كي نكون مُصغين مُدرَّبين. فالشرطان الأهمَّان هما الحنان وطولُ البال.

ولا لزوم لأنْ نحوز الأجوبة الصحيحة لكي نُصغي جيِّدًا. ففي الواقع أنَّ الأجوبة الصحيحة غالبًا ما تكون عائقًا للإصغاء، إذ نغدو أكثر تلهُّفًا لإعطاء الجواب منَّا للإصغاء. ونصف الإصغاء غير الصابر إنَّما هو إساءةٌ لمن نُصغي إليه.

ومن شأن الإصغاء إلى الآخرين أن يُهدِّئ الذِّهن ويُروِّضه للإصغاء إلى الله. إنَّه يُوجِد نشاطًا داخليًّا في القلب يحوِّل عواطف الحياة، بل وأولوياتها أيضًا. فحين نتبلَّد في الإصغاء إلى الله، نفعل حسنًا إذا أصغينا إلى الآخرين بصمت لنرى إن كنَّا لا نسمع الله من خلالهم. "أيُّ مَن يعتقد أنَّ وقته أثمنُ من أن يُنفَق في الصمت لن يتوافر له في الأخير أيُّ وقتٍ لله أو لأخيه، بل لنفسه ولتوافهه فقط".[١٥]

وهنالك أيضًا خدمةُ حَمْلِ بعضِنا أثقالَ بعض. "احملوا بعضُكم أثقال بعض، وهكذا تمِّموا ناموس المسيح" (غلاطية٦: ٢). أمَّا "ناموس المسيح" فهو ناموس المحبَّة- "الناموس الملوكيُّ" كما يدعوه يعقوب (يع٢: ٨). فإنَّ المحبَّة تُتمَّم على أكمل وجه حين يحمل بعضُنا أوجاعَ بعضٍ وآلامهم، باكينَ مع الذين يبكون. يكون البكاء أفضل بكثير من الكلام لا سيَّما عندما نكون بقُرب الذين يجتازون واديَ الظِّلِّ.

وإنْ عنانا الأمر، فلا بدَّ أن نتعلَّم أن نحمل بعضُنا أثقال بعض. وإنَّما أقول "نتعلَّم" لأنَّ هذا أيضًا انضباطٌ ينبغي إتقانُه. وما أسهل أن يفترض معظمُنا أنَّ كلَّ ما نحتاج إليه هو أن نعقد العزم على حَمْل أثقال الآخرين فنتمكَّن من القيام بذلك. ثُمَّ نُجرِّب ذلك حينًا، وسرعان ما تُفارقنا بهجةُ الحياة، وتُثقِل كواهلَنا أحزانُ الآخرين. إنَّما لا ينبغي أن تكون الحال على هذا المنوال. ففي وسعنا أن نتعلَّم حَمْل أثقال الآخرين دون أن نرزَح تحتها ونتلف. وقد استطاع السيِّد المسيح، ذاك الذي حمل أثقال العالَم كلِّه، أن يقول: "نيري هيِّن وحملي خفيف" (متَّى١١: ٣٠). فهل نستطيع أن نتعلَّم رفْع أحزان الآخرين وآلامهم ووضْعَها على ذراعَي السيِّد المسيح القويَّتَين الرقيقتَين حتَّى يصير حِملُنا أخفَّ؟ طبعًا نستطيع! ولكنَّ هذا يستدعي بعضًا من التمرُّس. وعليه، فبدلًا من الاندفاع لحَمْل أثقال العالم كلِّه، لنبدأ بداءةً أكثر اتِّضاعًا. إنَّنا نستطيع أن نبدأ في زاوية صغيرة من مكانٍ ما، ونتعلَّم. وَلَسَوف يكون الربُّ يسوع هو معلِّمنا.

أخيرًا، هنالك خدمةُ إشراكِ بعضِنا بعضًا في كلمة الحياة. ونذكُر أنَّ "البوستينيات" (وتعني الصحارى في اللغة الروسيَّة) التي أسَّستها كاثرين دي هايك دوهرتي كانت لها قاعدة: من دخلوا صحارى الصَّمت والعُزلة، يفعلون ذلك لأجل الآخرين. فعليهم أن يعودوا بأيَّة كلمة يتلقَّونها من عند الله ويُطلعوا الآخرين عليها. وهذه خدمة مُبارَكة تؤدَّى، لأنَّه ما من فردٍ واحد يستطيع أن

يسمع كلَّ ما يُريد الله أن يقوله. فنحن نعتمد بعضُنا على بعض كي نتلقَّى مشورة الله الكاملة. وفي وسع أصغرِ عضوٍ أن يأتيَنا بكلمةٍ من لَدُنهُ تعالى... ونحن لا نجرؤ على أن نحتقر هذه الخدمة.

إنَّه بالطَّبع أمرٌ مَهوبٌ أن نُبلِّغَ بعضُنا بعضًا هذا الكلام. **فحقيقةُ** كون الله يتكلَّم إلينا لا تضمن أنَّنا نفهم الرسالة فهمًا صحيحًا. ونحن غالبًا ما نمزج كلامنا بكلام الله: "من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة" (يعقوب٣: ١٠). فهذه الحقائق تجعلنا نتَّضع وننطرح على الله في اتِّكالٍ عميق. إنَّما لا ينبغي أن ننكفئ عن هذه الخدمة، لأنَّ الحاجة ماسَّةٌ جدًّا إليها اليوم. إنَّ السيِّد المسيح الربَّ المُقام يومئ إلينا كي نتولَّى "خدمة المنشفة". وخدمةٌ كهذه، نابعة من مكامن القلب الداخليَّة، هي حياةٌ وفرح وسلام. ولعلَّك ترغب في البدء بتجريب صلاةٍ يستعملُها أكثرُنا. فابدأْ يومك مصليًّا: "أيُّها الربُّ يسوع، ابعث لي اليوم، حسب مسرَّتك، شخصًا أستطيع أن أخدمه!".

القسم الثالث

الانضباطات الجماعيَّة

١٠

انضباطُ الاعتراف

الاعتراف بالأعمال الشرِّيرة هو البداءة الأولى للأعمال الصالحة.

أُغسطينوس أُسقف هيبُّون (Augustine of Hippo)

في قلب الله شوقٌ إلى العطاء والغفران. من أجل هذا، فقد أطلقَ كاملَ عمليَّة الفداء التي بلغت ذروتها في الصليب وتثبَّتت في القيامة. والفكرة المعتادة عمَّا فعله السيِّد المسيح على الصليب تجري على نحوٍ كهذا: كان الناس غايةً في الرداءة والدناءة، وكان الله غايةً في غضبه عليهم بحيث لم يكُن ممكنًا أن يُسامِحَهم إلَّا إذا تولَّى شخصٌ عظيمٌ تمامًا تحمُّل العقوبة عنهم جميعًا.

إنَّما لا يمكن أن يكون أيُّ شيءٍ أبعد عنِ الحقيقة من هذا. ذلك أنَّ المحبَّة، لا الغضب، أتت بيسوع إلى الصليب. فقد جاءت الجُلجثة نتيجةً لشوق الله الشديد إلى الغفران، لا لنفوره منه. وقد علم الربُّ يسوع أنَّه بآلامه النِّيابيَّة يستطيع بالفعل أن يمتصَّ شرَّ البشر جميعًا ومن ثَمَّ يشفيهم ويغفر لهم ويفتديهم.

لهذا السبب رفض يسوع تناوُل المُسكِّن المعتاد- أي الخلَّ- عندما قُدِّم إليه. فقد أراد أن يكون في كامل وعيه للقيام بعمل الفداء الأعظم هذا. وبطريقةٍ عميقةٍ وعجيبة، كان يستعدُّ كي يحمل خطيَّة الجنس البشريِّ الجَماعيَّة. وبما

أنَّ المسيح يُقيم في الأبد الآن، فهذا العمل لم يكن فقط لأجل أُولئك الذين حواليه، بل إنَّه تقبَّل كلَّ ظُلم وكلَّ خوفٍ وكلَّ خطيَّةٍ ممَّا يتعلَّق بالماضي كلِّه والحاضر كُلِّه والمستقبل كلِّه. وقد كان هذا هو عملَه الأسمى والأقدس- العملَ الذي يجعل الاعتراف وغفران الخطايا مُمكِنَين.

يبدو أنَّ بعضًا يتصوَّرون أنَّه لمَّا صاح المسيح: "إلهي إلهي، لماذا تركتني؟" كانت تلكَ لحظةَ ضعف (مرقس١٥: ٣٤). كلَّا! لقد كانت تلك لحظةَ انتصاره الأعظم. فإنَّ يسوع الذي ما انفكَّ سالكًا في شركة دائمة مع الآب، بات الآن مُتماهيًا إلى التمام مع البشريَّة بحيثُ صار هو ذاتُه التجسيمَ الفعليَّ للخطيَّة، كما كتب بولس أنَّ الله "جعل الذي لم يعرف خطيَّة، خطيَّة لأجلنا" (٢كورنثوس٥: ٢١). لقد أفلح السيِّد المسيح في الإحاطة شخصيًّا بجميع قوَّات الظُّلمة التابعة لهذا الدهر الحاضر الشرِّير وهزم كلَّ واحدةٍ منها بنور حضرته. فإنَّه أتمَّ تماهيًا كُليًّا من كلِّ وجه مع خطيَّة الجنس البشريِّ بحيثُ عانى احتجابَ الله عنه. وبهذه الطريقة فقط أمكَنَ أن يُنجِز الفداء، غفرانَ الخطايا. وقد كانت تلك حقًّا لحظة انتصاره الأعظم.

وإذ أنجزَ السيِّد المسيح هذا العمل الأعظم، سُرَّ واستراح. وقد أعلن أنْ "قد أُكمِل!" أي أنَّ عملَ الفداءِ العظيمَ هذا قد تَمَّ. وكان في وسعه أن يحسَّ آخِرَ بقايا شقاء البشريَّة تجري عبرَه لتستقرَّ في عُهدة الآب. فإنَّ آخِرَ وَخَزات الشرِّ والعداء والغضب والخوف خرجت كقطراتٍ منه، وتيسَّر له أن يعود من جديدٍ إلى نور حضرة الله. "قد أُكمل!" إنَّ المهمَّة أُنجزت. بُعيدَ ذلك، بات حُرًّا في أن يُسلِمَ روحه للآب.

كي يُخزيَ خطايانا تضرَّجَ بالدَّم،
عينَيه أغمض لكي يُرينا الله.
فليخرَّ العالمُ كلُّه وليَعلم

أنْ لا أحدَ يُبدي حبًّا كهذا سوى الله.

برنار دو كلايرڤو

إنَّ عمليَّة الفداء هذه هي سرٌّ عظيم مخبوءٌ في قلب الله. ولكنّي أعلم أنَّها حقٌّ وحقيقة. وأنا أعلم هذا لا لأنَّ الكتاب المقدَّس يشهد لحقيقتها فقط، بل لأنّي رأيتُ نتائجها في حياة الكثيرين، ومنهم أنا. وهي الأساس الذي يمكننا عليه أن نعرف أنَّ الاعتراف والغفران حقيقتان تُحوِّلاننا. فلولا الصليب، لكان انضباط الغفران مجرَّدَ علاجٍ نفسيّ. والحالُ أنَّه أكثر من هذا بكثير جدًّا. فهو ينطوي على تغيير موضوعيٍّ في علاقتنا بالله، وعلى تغيير ذاتيٍّ فينا. وهو وسيلةُ شفاءٍ وتحويلٍ للروح الداخليَّة.

لعلَّك تقول: "ولكنّي كنتُ أعتقد أنَّ السيِّدَ المسيحَ ذاتَه على الصليب والفداءَ مَعنيَّان بالخلاص". صحيح، ولكنَّ الخلاص كما يتكلَّم عنه الكتاب المقدَّس يشير إلى ما يتخطَّى بكثيرٍ جدًّا مَن يُقبِل إلى الإيمان بالمسيح ومَن يذهب إلى السماء. فالكتاب المقدَّس ينظر إلى الخلاص حاسبًا إيَّاه حَدَثًا وعمليَّةً على السواء. إذ يقول بولس لقوم آمنوا بالمسيح فعلًا: "تمِّموا خلاصكم بخوف ورعدة" (في٢: ١٢). وفي عِظَةٍ عنوانُها "توبةُ المؤمنين"، تَحدَّث جون وسلي بشأن ضرورة إقبال المؤمنين بالمسيح إلى التَّمتُّع بالمزيد من نعمة الله الغافرة. ومن شأن انضباط الاعتراف أن يُساعِد المؤمن كي ينمو "إلى إنسانٍ كامل، إلى قياس قامة ملءِ المسيح" (أف٤: ١٣).

"ولكنْ، أليس الغفران نعمةً بدلَ كونه انضباطًا؟" إنَّه الأمران كِلاهما. فَلَولا إعطاءُ الله النعمة، لَما أمكنَ القيامُ باعترافٍ حقيقيّ. ولكنَّ الاعتراف أيضًا انضباط لأنَّ هنالك أُمورًا معينَّة يجب أن نقوم بها. إنَّه سبيلُ تصرُّف نختاره بوعي، يأتي بنا إلى ظلِّ القدير.

"وكيف جرى إدراجُ الاعتراف ضِمنَ الانضباطات الجماعيَّة؟ كنتُ أعتقد

أنَّه شأنٌ خاصٌّ بين الفرد والله". هنا أيضًا، ليس الجواب "إمَّا هذا وإمَّا ذاك"، بل "هذا وذاك كلاهما". فنحن نشكر الله من أجل التعليم الكتابيِّ الصحيح الذي شدَّدت عليه حركة الإصلاح، ولا سيَّما أنَّه "يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح" (١تي٢: ٥). كذلك نحن شاكرون أيضًا من أجل التعليم الكتابيِّ الذي يَلقى التقدير من جديد في أيَّامنا، حيثُ نوصى أن "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلاَّت، وصلُّوا بعضكم لأجل بعض..." (يع٥: ١٦). فكِلا هذين التعليمَين موجودٌ في الكلمة المقدَّسة، وأحدُهما لا يُقصي الآخر.

إنَّ الاعتراف انضباطٌ صعبٌ علينا، لأنَّنا غالبًا جدًّا ما ننظر إلى الجماعة المؤمنة حاسبين إيَّاها مَعشَر قدِّيسين قبل أن ننظر إليها على أنَّها مَعشَر خُطاة أصلًا. ونحن نشعر أنَّ كلَّ شخصٍ غيرنا قد تقدَّم كثيرًا في القداسة حتَّى بِتْنا معزولين ووحدَنا في خطيَّتنا. فلا نُطيق أن نُعلِن سقطاتنا وتقصيراتنا قدَّام الآخرين. ونتصوَّر أنَّنا الأشخاص الوحيدون الذين لم تطأ أقدامُهُم طريق السماء العالي. ومن ثَمَّ نخبِّئ أنفُسَنا بعضُنا عن بعض، ونعيش أكاذيبَ مُقنَّعةً وحياةَ رياء.

ولكنْ إذا علمنا أنَّ شعب الله هم أوَّلًا معشرُ خُطاةٍ تائبين، نُحرَّر لنسمع دعوةَ محبَّةِ الله غيرَ المشروطة، ونعترف بحاجاتنا علنًا أمام إخوتنا وأخواتنا. فنحن نعلم أنَّنا لسنا وحدنا في خطيَّتنا. والخوف والكبرياء اللذان يعلَقان بنا كالموادِّ الدَّبِقة، يعلقان بالآخرين أيضًا. فنحنُ جميعًا خُطاة مجتمعون معًا. وفي أفعال الاعتراف المتبادَل فإنَّنا نُطلِق القوَّة الشافية. فلا تعود بشريَّتُنا تُنكَر، بل بالأحرى تُحوَّل.

سلطان الغفران

أُعطيَ أتْباعُ يسوع المسيح حقَّ قبول الاعتراف بالخطيَّة وتأكيدِ الغفران باسمه. "من غفرتم خطاياه، تغفر له؛ ومن أمسكتم خطاياه، أُمسِكت" (يوحنَّا٢٠: ٢٣).

يا له من امتياز رائع! لماذا نَنأى بأنفسنا عن خدمة مُحيية كهذه؟ إن كُنَّا، ليس عن استحقاق بل بمحض النِّعمة، قد مُنِحنا حقَّ تحرير الآخرين، فكيف نجرؤ على حَجْب هذه العطيَّة العظيمة؟ لقد كتب دَيترتش بونهويفر: "لقد أعطانا الله أخانا كي يُساعِدَنا. فهو يسمع اعترافنا بخطايانا نيابةً عن المسيح، ويغفر خطايانا باسم المسيح. وهو يحفظ سرَّ اعترافنا كما يحفظه الله. فحين أذهب إلى أخي كي أعترف، أكون ذاهبًا إلى الله".[1]

إنَّما هذا الحقُّ لا يُنقص على الإطلاق من قيمة الاعتراف الخاصِّ أو فعَّاليَّته. فإنَّها لَحقيقةٌ مدهشة أنَّ الفرد يتمكَّن من الدُّخول إلى رحاب الحياة الجديدة في الصليب بغير مساعَدة من أيِّ وسيط بشريّ. وفي أيَّام الإصلاح هبَّت هذه الحقيقة على الكنيسة هبوبَ نسمة الهواء المنعشة. وقد باتت دعوةً يُبوَّق بها إلى التحرُّر من الاستعباد والاستغلال اللذين كانا قد تسلَّلا إلى نظام الاعتراف الاكليركيّ. ولكنْ ينبغي لنا أن نتذكَّر أنَّ لوثر نفسه كان يؤمن بالاعتراف الأخويِّ المتبادل. ففي **موسَّع التعليم المسيحيّ** (Large Catechism) كتب هذا: "ولذلك فحين أحثُّك على الاعتراف، أحضُّك على أن تكون مسيحيًّا حقيقيًّا".[2] ولا ينبغي أن ننسى أيضًا أنَّه لمَّا أُدخل نظام الاعتراف أوَّلًا في الكنيسة، أشعل شرارة نهضة أصيلة من التقوى والقداسة الشخصيَّتَين.

فالشخص الذي اختبر الغفران والتحرُّر من عادات الخطيَّة المُلحَّة المزعجة، من طريق الاعتراف الخاصّ، ينبغي أن يبتهج كثيرًا بهذه البيِّنة على رحمة الله. ولكنَّ هنالك آخرين لم يحصل لهم هذا. فَلْأصِفْ هذه الحالة. لقد صلَّينا، بل توسَّلنا توسُّلًا، لأجل الغفران. ومع أنَّنا نأمل أن نكون قد نِلنا الغفران، فإنَّنا لا نشعر بأيَّة راحة. فنشكُّ في غفراننا، ونيأس من اعترافنا. ونخشى أن نكون على وجه الاحتمال قد اعترفنا فقط لأنفُسنا وليس لله. فنوبات الأسف والأسى وآلام الماضي لم تلقَ الشفاء. فنحاول أن نُقنع أنفسنا بأنَّ الله يغفر الخطيَّة فقط، ولكنَّه لا

يُعافي الذاكرة. إنَّما في أعماق كياننا نعلم أنَّه لا بدَّ أن يحصل شيءٌ ما بَعدُ. ولطالما قال لنا أُناسٌ أن نقبل غفراننا بالإيمان وألَّا نعدَّ الله كاذبًا. وبما أنَّنا لا نريد أن ننسب الكذب إلى الله، نبذل أقصى جهدنا لتقبُّل الأمر بالإيمان. ولكنْ لأنَّ الشقاوة والمرارة تبقيان في حياتنا، نكتئب ونيأس مُجدَّدًا. وفي نهاية المطاف نبدأ نعتقد أنَّ الغفران هو مجرَّد بطاقة دخول إلى السَّماء وليس مقصودًا له أن يؤثِّر في حياتنا الآن، أو أنَّنا لسنا مُستحقِّين نِعمةَ الله الغافرة.

إنَّ الذين يتماهَون- أي يندمجون- بطريقةٍ يسيرةٍ من الطُّرق مع هذه الكلمات يستطيعون أن يبتهجوا. فنحنُ لم نستنفِد مواردنا، ولا نعمة الله، لمَّا جرَّبنا الاعتراف الخاصّ. وفي **كتاب الصلاة العامَّة** (Book of Common Prayer)، على أثر الدعوة إلى فحص الذات والتوبة، نقرأ هذه الكلمات المشجِّعة: "إن كان بينكم من لا يستطيع بهذه الوسيلة أن يُسكِّن ضميره هُنا، بل يحتاج إلى مزيدٍ من التَّعزية أو النُّصح، فليأتِ إليَّ أو إلى أحدٍ سواي من خُدَّام كلمة الله، ويُفضِ بحُزنه..."[٣] لقد أعطانا الله أخوتَنا ليقوموا مقام السيِّد المسيح ويجعلوا حضور الله وغفرانَه ملموسَين عندنا.

يُعلِّمنا الكتاب المقدَّس أنَّ جميع المؤمنين كهنةٌ أمام الله: "وأمَّا أنتم فجنسٌ مختار وكهنوت ملوكيّ" (١بطرس٢: ٩). وفي زمن الإصلاح، دُعي هذا "كهنوت جميع المؤمنين الشامل". وقد كانت إحدى وظائف الكاهن في العهد القديم أن يأتيَ بغفران الخطايا من طريق الذبيحة المقدَّسة. وتُبيِّن رسالة العبرانيِّين بالطبع أنَّ يسوع المسيح هو الذبيحة النِّهائيَّةُ الكافيةُ والوافية. وقد أعطانا الربُّ يسوع كهنوته: خدمةَ جعْل تلك الذبيحة واقعًا ملموسًا في قلوب الكائنات البشريَّة الأُخرى وحياتها. فإنَّما بأصوات إخوتنا وأخواتنا تُسمَع كلمة الغفران وتتجذَّر في حياتنا. وقد كتب بونهويفر: "الإنسان الذي يعترف بخطاياه في حضرةِ أخٍ يعلم أنَّه لم يَعُد وحدَه مع نفسه؛ إنَّه يختبر حضور الله في حقيقة الشخص الآخر. فما

دمتُ وحدي مع نفسي في اعترافي بخطاياي، يبقى كلُّ شيءٍ في الظلام، ولكن في حضرةِ أخٍ لا بُدَّ أن يُؤتى بالخطيَّة إلى النور".[٤]

وقد عُرف هذا الشَّكل ذا الأسلوب لسبيل المساعدة بكُرسيِّ الاعتراف أو سرِّ الاعتراف. ولئن كان كثيرون منَّا، وأنا من الجُملَة، لا يشعرون بكثيرٍ من الراحة حيال هذا النَّوع من الاعتراف، فإنَّ له فعلًا بضع حسنات. فأوَّلًا، لا يُفسِح الشَّكل الرسميُّ من الاعتراف المكتوب لأيَّة أعذار أو ظروف تخفيفيَّة. إذ ينبغي أن نعترف بأنَّنا ارتكبنا الخطيَّة بغلطةٍ منَّا، بغلطتنا الأشدِّ إحزانًا وفداحة. فلا يمكن أن تُدعى خطايانا أخطاءً في الحُكم، ولا مجالَ أبدًا لأنْ نلوم من أجلها التنشئةَ أو العائلة أو الجيران. وهذا علاجٌ واقعيٌّ من النوع الأفضل، لأنَّنا معرَّضون جدًّا لأن نُلقيَ باللَّوم من أجل خطايانا على كلِّ شخص وكلِّ شيء، بدلًا من قبول المسؤوليَّة الشخصيَّة عنها.

حسنةٌ ثانية في الاعتراف الرسميِّ أنَّ كلمة المغفرة تُتوقَّع، وتُعطى عند النُّطق بالحَلّ. إذ يجري فعلًا التفوُّه عاليًا بكلمةٍ من الكتاب المقدَّس، أو بكلمة مماثلة. "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتَّى يغفر لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كلِّ إثم" (١يوحنَّا١: ٩). إذ ذاك يُقال للتائب المعترف بكلام صريح وقاطع إنَّ خطاياه كلَّها مغفورةٌ له، ويُحرَّر من خطيَّته. ويكون تأكيد الغفرانَ مختومًا بالرُّوح القُدس حين ينطق به أخونا أو أُختنا باسم المسيح.

وللاعتراف المُنظَّم حسنة ثالثة، ألا وهيَ برهان التَّوبة. فإذا نظرنا إلى أعمال التوبة كطريقةٍ لكسب الغفران، كان ذلك أمرًا خطِرًا حقًّا. ولكنْ إذا نظرنا إليها كفُرصةٍ للتوقُّف لحظةً بُغيةَ التفكُّر في خطورة خطيَّتنا، يكون لها عندئذٍ نفعٌ جزيل. فنحن اليوم ننظر باستخفافٍ بالغ إلى إساءاتنا بحقِّ محبَّة الله. ولو كانت لدينا لمحةٌ من الشعور بالاشمئزاز والنفور حيال الخطيَّة كذاك الذي لدى الله، لَدُفِعنا

إلى عيشةٍ أقدس. فإنَّ الله يتوسَّل إلينا قائلًا: "لا تفعلوا أمر هذا الرِّجس الذي أبغضتُه!" (إر٤٤: ٤). والغرض من برهان التوبة هو مساعدتُنا على الانتقال إلى ذلك الشعور الأعمق بأنَّ الخطيَّة خاطئةٌ جدًّا.

من الممكن طبعًا إتمامُ هذه الأُمور بغير اعترافٍ رسميّ. فبالحقيقة، حين نعرف ما نحنُ بصدده، نُحرز تقدُّمًا هائلًا إذ ننظر إلى خدمة الاعتراف حاسبين إيَّاها ملكًا عامًّا لشعب الله. إنَّما كيف يتأتَّى لنا إتمامُ ذلك؟ لعلَّ مَثلًا من الحياة يُسهِم في جَعْل هذه المفاهيم محسومةً أكثر.

مُفكِّرة اعتراف

مع أنِّي قرأتُ في الكتاب المقدَّس عن خدمة الاعتراف في الجماعة المسيحيَّة، فأنا لم أختبرها قطُّ قبل رعاية أوَّل كنيسة خدمتُ فيها. فلم أخطُ الخطوة الصعبة في كشف حياتي الداخليَّة على حقيقتها قدَّام شخصٍ آخر، بدافعٍ من أيِّ ثقلٍ أو شعور عميق بالخطيَّة. ولم أشعر أنَّه كان ثمَّة أيُّ أمرٍ غير سليم على الأقلّ- سوى أمرٍ واحد. فقد كنتُ أتوق إلى مزيدٍ من القوَّة للقيام بعمل الله. وشعرتُ بعدم كفاءتي لمعالجة الكثير من الحاجات الماسَّة التي واجهتني. فلا بدَّ من وجود مواردَ روحيَّةٍ أكثر من تلك التي كنتُ أختبرها (وقد كانت لي جميعُ اختبارات الروح القدس التي يُفترَض أن تختبرها- فسمِّها أنت واعلم أنِّي اختبرتُها!). وهكذا صلَّيت: "يا ربّ، أهنالك مزيدٌ تريد أن تدخلَه إلى حياتي؟ أُريد أن تُخضِعَني وتسود عليَّ. إن كان فيَّ ما يُعيق تدفُّق قوَّتك، فأعلِنه لي". ففعل الربُّ ذلك، لا بصوتٍ مسموع، ولا حتَّى بواسطة أيِّ صوت بشريّ، بل بمُجرَّد انطباع متزايد بأنَّه ربَّما كان في ماضيَّ شيءٌ يُعيق سريان حياة الربِّ فيَّ. وهكذا طلعتُ بخُطَّة. فقد قسمت حياتي إلى ثلاث مراحل: الطفولة، المراهقة، البلوغ. وفي أوَّل يوم مثلتُ في

حضرة الله للصلاة والتأمُّل، وبيدي ورقةٌ وقلم رصاص. وإذ دعوتُه لأنْ يُظهِر لي أيَّ شيء في أثناء طفولتي يحتاج إلى المغفرة أو الشفاء أو كليهما، انتظرتُ في صمت تامٍّ نحو عشر دقائق. وقد دوَّنتُ كلَّ أمر طفا على سطح عقلي الواعي. ولم أقُم بأيَّة محاولة لتحليل البنود، ولا لإصدار أيِّ حُكم تقييميٍّ يخصُّها. فقد قام في يقيني أنَّ الله لا بدَّ أن يكشف لي أيَّ شيءٍ يحتاجُ إلى لمسته الشافيَّة. وبعد الانتهاء، وضعتُ جانبًا القلم والورقة باقيَ اليوم. ثُمَّ في اليوم التالي قمتُ بالتمرين عينه بشأن سِنِي مراهقتي، وفي اليوم الثالث فعلتُ مثل ذلك بالنسبة إلى سِنِي بلوغي.

بعد ذلك حملتُ الورقة، وتوجَّهتُ إلى أخٍ عزيز في المسيح. وكنتُ قد رتَّبتُ الأمر معه قبل أُسبوع كي يعرف غرض لقائنا. ثمَّ أخذتُ أقرأ الورقة ببطء، وبألم أحيانًا، مضيفًا فقط تلك التعليقات الضروريَّة لإيضاح الخطيَّة. حتَّى إذا فرغتُ، هَمَمتُ بإعادة الورقة إلى محفظة أوراقي. ولكنَّ مرشدي/ مُعرِّفي أوقف يدي برفقٍ عن حكمة، وأخذ قُصاصة الورق. وبغير أن يقول كلمة واحدة، أخذ سلَّة مُهمَلات، وبمرأًى منِّي مزَّق الورقة مئاتٍ من القطع الصغيرة وأسقطها في السلَّة. ذلك التعبيرُ الفعَّال وغيرُ اللفظيِّ عنِ الغفران أعقبه حلٌّ بسيط. فقد علمتُ أن خطاياي كانت بعيدةً عنِّي بُعدَ المشرق عنِ المغرب.

من ثَمَّ وضع صديقي يديه عليَّ، وصلَّى صلاة شفاء من جميع أحزان الماضي وجراحه. وما تزال قوَّة تلك الصلاة حيَّةً فيَّ اليوم.

لا يسعني القولُ إنَّني اختبرتُ أيَّة مشاعر دراماتيَّة. فهذا لم يحدث لي. وبالحقيقة أنَّ الاختبار بكامله كان فعلَ طاعة صِرف لم تصحبه أيَّةُ مشاعر استثنائيَّة بالحدِّ الأدنى. غير أنِّي مُقتنعٌ أنَّه حرَّرني بطُرقٍ لم أعهدها من قبل. فقد بدا لي أنِّي أُطلِقتُ لأستكشفَ مناطقَ الروح التي كانت بالنسبة إليَّ جديدةً ومجهولة. وفي أعقاب تلك الحادثة، بدأتُ أنتقل إلى بضعةٍ من الاختبارات الموصوفة في

هذا الكتاب لم يسبق لي أن اختبرتُها. فهل وُجدت علاقة سببيَّة؟ لستُ أدري، وبصراحةٍ لا يهمُّني الأمر. يكفي أنِّي أطعتُ الحافز الداخليَّ الآتيَ من فوق.

وقد كان لذلك الاختبار ضوءٌ جانبيٌّ لافت. فإنَّ كشفَ ضعفي البشريِّ بوضوح أشعل شرارةَ حُرِّيَّة في مُرشدي / صديقي. ذلك أنَّه، في أعقاب صلاته لأجلي مباشرةً استطاع أن يُفصِح عن خطيَّة دفينة مُضنية كان غير قادرٍ على الاعتراف بها حتَّى ذلك الحين. حقًّا إنَّ الحرِّيَّة تلِدُ حرِّيَّة.

مشورةٌ في تقديم الاعتراف

مكتوبٌ أنَّنا نحبُّ الله "لأنَّه هو أحبَّنا أوَّلًا" (١يوحنَّا٤: ١٩). وهذا صحيحٌ طبعًا. غير أنَّنا أيضًا نتمكَّن من تقديم الاعتراف فقط لأنَّه هو مَن أحبَّنا أوَّلًا. فإنَّ بيِّنة النِّعمة والرحمة تُضرِم قلبًا منسحقًا وتجعل الاعتراف يَفيض فيضًا. إذ ننجذب إلى الله، كما يقول لنا هوشع "بحبال البشر، بربُط المحبَّة" (هو١١: ٤). فنتقدَّم بقلوب مُفعمة بالرجاء، لأنَّ مَن نأتي إليه ينتظرُنا انتظارِ أبي الابن الضالِّ الذي إذ كان ما يزال بعيدًا ركض إليه بحُنوٍّ وعانقه مُرحِّبًا بعودته (لو١٥: ٢٠). إنَّ مسرَّته العُظمى هي بأن يغفر. وهو يدعو خلائقه النُّورانيَّة في السماء إلى الابتهاج كُلَّما قدَّم شخصٌ واحدٌ اعترافًا.

فماذا نفعل؟ كتب القدِّيس ألفونسوس لِغيوري (Alphonsus Liguori): "الاعتراف الصالح يستوجب ثلاثة أُمور ضروريَّة: فحصًا للضمير وندامةً وتصميمًا على تجنُّب الخطيَّة".[٥]

وكما كتب دوغلاس ستير، فإنَّ "**فحص الضمير***" هو ذلك الوقت الذي

* الفكرة المسيحيَّة القديمة القائلة بفحص الضمير استعدادًا للاعتراف بعيدةٌ سنينَ ضوئيَّةً عنِ الفكرة الدُّنيويَّة التي شعارُها "ليكُن ضميرُك دليلَك". فالضمير في ذاته فاسدٌ ومُكيَّفٌ حضاريًّا، وهو دليلٌ لا يُركَن إليه إلى أقصى حدٍّ في شؤون الأخلاق وعقائد الدِّين.

تقف فيه النفس تحت نظرة الله الفاحصة، حيث تُختَرق تلك النفس حتَّى الصميم في حضرته الساكنة والمُحبَّة، وتصير واعيةً للأُمور التي يجب أن تُغفر وتُسوَّى قبل أن يُتاح لها أن تُحِبَّ الذي عِنايتُه ما تزال ثابتة".[٦] فنحنُ ندعو الله لأنْ يجولَ على القلب ويُرِيَنا الأماكن التي تحتاج إلى لمسته الغافرة والشافية.

في هذا الاختبار القاضي بكشف أنفسنا "تحت نظرة الله الفاحصة"، يجب أن نكون مستعدِّين لمعالجة خطايا محدَّدة. فالاعتراف المُعمَّم قد يُنقِذنا من الهوان والخزي، غير أنَّه لن يُطلِق شرارة الشفاء الداخليّ. والذين جاؤوا إلى يسوع بخطايا محدَّدة واضحة، نالوا غفرانًا لكلِّ واحدةٍ منها. فأسهلُ بكثيرٍ جدًّا أن نتجنَّب ذنْبنا الحقيقيَّ باعترافٍ عموميّ. إنَّما في اعترافنا نأتي بخطايا ملموسة. وإذ أدعوها ملموسة، لا أعني فقط الخطايا الظاهرة، بل أعني خطايا محدَّدة: خطايا القلب- الكبرياء والجشع والغضب والخوف- وأيضًا خطايا الجسد- الكسل والنَّهم والزنا والقتل. ولنا أن نستخدم الأسلوب الموصوف آنفًا. أو ربَّما مِلنا إلى الأُسلوب الذي استخدمه لوثر، حيث سعى إلى فحص ذاته على أساس الوصايا العشر. أو قد يُرشِدُنا الربُّ إلى طريقة أُخرى مختلفة كلِّيًّا.

ولكن في رغبتنا أن نكون مُحدِّدين، ينبغي ألَّا نندفع إلى الخطر المعاكس بأن نكون مَعنيِّين على نحوٍ غير موافِق بنَبش كلِّ جزءٍ دقيق من حذافير حياتنا. فبفطرةٍ سليمة ثاقبة ينصحُنا فرنسيس دو سال: "لا يُساوِرْك القلق إذا لَم تتذكَّر كلَّ هفوةٍ يسيرة في اعترافك، لأنَّك كما تسقط غالبًا دونَ إدراكٍ منك، كذلك تُنهَض غالبًا دون إدراكٍ منك".[٧]

كذلك **الندامة** أيضًا ضروريَّة في الاعتراف الصالح. والندامة، من حيثُ علاقتها بالاعتراف، ليست عاطفةً بالدرجة الأولى، وإن اشتملت على العاطفة أحيانًا. إنَّها مَقتٌ شديد لكوننا قد ارتكبنا الخطيَّة، وأسفٌ عميق بسبب إساءتنا

إلى قلب الآب. فالندامة شأنٌ يخصُّ الإرادة قبل كونها شأنًا يخصُّ العواطف. وبالحقيقة أنَّ كونَ المرء نادمًا في العواطف دون ندمٍ يتَّسِم بالتقوى في الإرادة هو أمرٌ يقوِّض الاعتراف.

إنَّ الندامة هي طريقةٌ في أخذ الاعتراف على مَحمِل الجِدّ. وهي مُناقضةٌ لحال الكاهن الذي يتهكَّم به تشُوسَر في **حكايات كانتربُري** (وكذلك أيضًا لحال المُعترِف دون شكّ):

اِستمعَ إلى الاعترافِ بملء السُّرور،
وكان مَنحهُ للحَلِّ عابقًا بالحُبور.[٨]

أمَّا **التصميم على تجنُّب الخطيَّة** فهو الثالث في مقوِّمات الاعتراف الصالح الأساسيَّة. ففي انضباط الاعتراف، نحن نطلب إلى الله أن يُعطيَنا توقًا إلى العيشة المقدَّسة، وبغضًا للعيشة غير المقدَّسة. وقد قال جون وسلي مرَّةً: "أعطِني مئة واعظٍ لا يَخشَون شيئًا غير الخطيَّة ولا يتوقون إلى شيءٍ سوى الله... فأمثالُ هؤلاء وحدهم يُزعزعون أبواب الجحيم ويُقيمون ملكوتَ السماء على الأرض".[٩] فإنَّما **الإرادة** لأنْ نُحرَّر من الخطيَّة هي ما نلتمسه من لدُن الله فيما نتهيَّأ للاعتراف. إذ ينبغي أن نتوق إلى خضوعنا لله وسيادته علينا. وإن لم نكن نتوق إلى ذلك، وجبَ أن نتوقَ إلى التَّوْق إليه! فتَوقٌ نظير هذا هو عطيَّةُ نعمةٍ من عند الله. والتماسُ هذه العطيَّة هو واحدٌ من المُمهِّدات الجوهريَّة لأجل الاعتراف لأخٍ أو أُخت.

هل يبدو هذا كلُه مُعقَّدًا؟ وهل تخشى أن تفوتك نقطةٌ من النقاط فتُحيل بذلك كلَّ شيءٍ بلا فاعليَّة؟ إنَّ هذا الأمر عادةً مُعقَّدٌ في التحليل أكثر منه في الاختبار. تذكَّر قلب الآب: إنَّه كراعٍ يُخاطِر بكلِّ شيء لكي يعثر على خروفٍ

ضالٍّ واحد. فليس علينا أن نجعل الله راغبًا في أن يغفر. بل إنَّ الله بالحقيقة هو مَن يعمل لجعلنا راغبين في أن نلتمس غفرانه.

ملاحظةٌ واحدة بعدُ بشأن الاستعداد للاعتراف: يجب أن توجد نقطة انتهاء محدَّدة في عمليَّة فحص الذات. وإلَّا، فقد نقع بسهولة في أسْرِ عادةٍ دائمة من إدانة الذات. ولئن بدأ الاعتراف بالنَّدم، فهو ينتهي بالفرح. وفي غفران الخطايا ابتهاجٌ وغبطة لأنَّه يؤول إلى حياةٍ مُغيَّرة على نحوٍ أصيل.

ثُمَّ هنالك المسألةُ العمليَّة المُتعلِّقة بمَن ينبغي أن نذهب إليه كي نعترف. فصحيحٌ تمامًا من الناحية اللاهوتيَّة أن نقول إنَّ كلَّ مؤمن مسيحيٍّ يستطيع أن يتقبَّل اعترافَ آخر، ولكنْ ليس كلُّ مؤمنٍ مسيحيٍّ سيكون لديه تعاطفٌ وتفَهُّم كافيان. ومع أنَّ هذا أمرٌ مؤسف، فمن حقائق الحياة أنَّ بعض الناس لا يستطيعون أن يحفظوا سرًّا يُستأمَنون عليه. وآخرون هم غيرُ مؤهلين لأنَّهم يرتاعون لدى كشف بعض الخطايا. كما أنَّ آخرين بَعد، إذ لا يفهمون طبيعة الغفران وقيمته، يهزُّون أكتافهم بلامبالاةٍ قائلين: "ليس الأمر رديئًا جدًّا!" ولكنَّ من الخير أنَّ كثيرين يفهمون حقًّا، ويسرُّهم أن يخدموا بهذه الطريقة. هؤلاء نعثر عليهم بأن نطلب إلى الله أن يُبيِّنهم لنا. كما نعثر عليهم أيضًا بملاحظة الآخرين لِنَرى مَن تَظهر فيهم دلائلُ إيمانٍ حيٍّ بقُدرة الله على الغفران ويُبدون فرحَ الربِّ في قلوبهم. أمَّا المؤهِّلات الأساسيَّة فهي النُّضج الروحيُّ والحكمة والحنان، والفِطرة السليمة الجيِّدة، والقدرة على حِفظ الأمانة، وحسُّ دعابةٍ لطيف. وفي وسع رُعاة كثيرين- إنَّما ليس الجميع على الإطلاق- أن يخدموا بهذه الطريقة. وغالبًا ما يكونُ القوم العاديُّون الذين لا مَنصِب لهم، ولا لَقب من أيِّ نوع، بين الأفضلين في تلقِّي الاعتراف.

ولكنْ ماذا لو وُجِدت معصيةٌ لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على الاعتراف بها؟ ماذا لو أعوزتنا الشجاعة لفتح زاويةٍ مُعيَّنةٍ من حياتنا؟ كلُّ ما ينبغي أن

نفعله إذ ذاك هو أن نقول لأخينا أو لأُختنا: "أنا بحاجة إلى مساعدتك. لديَّ خطيَّة لا أستطيع أن أحمل نفسي على الاعتراف بها". ومن ثَمَّ سوف يعمد مُعرِّفنا/ صديقُنا إلى "اعتماد طريقة سهلة لإخراج الوحش الذي سيلتهمك من وَكْره. وكلُّ ما سيكون عليك أن تفعله هو أن تُجيب عن استفهاماته بنعم أو لا. فإذا بالجحيم الزمنيِّ والأبديِّ على السواء يختفيان، ونعمة الله تعود إلى مجراها، وسلام الضمير يسود سيادتَه العُليا".[١٠]

مشورةٌ في تَلقِّي الاعتراف

كالحال في أيَّة خدمة روحيَّة، ثمَّة استعدادٌ ينطوي عليه التمكُّن من الاستماع الصائب لاعتراف أخٍ أو أُخت.

إنَّنا نبدأ بتعلُّم العيش تحت الصليب. وقد كتب بونهويفر: "أيُّ مَن يعيش تحت الصليب، وقد أدرك في صليب المسيح الشرَّ الكُلِّيَّ في جميع البشر، وفي قلبه هو بالذات، فسوف يتبيَّن له أنَّه ما من خطيَّة لا يمكن أبدًا أن تكون غريبةً عليه. وأيُّ مَن سبق أن روَّعه هَولُ خطيَّته الخاصَّة التي سمَّرت يسوع بالصليب، لن تُروِّعَه بَعدُ حتَّى أحطُّ الخطايا لدى أخٍ من إخوته".[١١] هذا هو الأمرُ الوحيد الذي يُنقذنا من أن نستاءَ في أيِّ وقتٍ من اعتراف شخصٍ آخر. وهو يُنجِّينا دائمًا أبدًا من إبداء أيِّ موقف استعلائيّ. فنحن نعلم خِداع القلب البشريّ، كما نعلَمُ أيضًا نعمةَ قبول الله ورحمتَه. وما إن نرى بشاعة الخطيَّة، حتَّى نعلم- بصرف النظر عمَّا فعله الآخرون- أنَّنا نحن أنفُسنا أوَّل الخُطاة.

ولذلك فلا شيءَ ممَّا قد يقولُه أيُّ شخص سيُزعجنا. لا شيء! فإذ نعيش تحت الصليب، يمكن أن نسمع أسوأ الأُمور الممكنة من أحسن الأشخاص الممكنين بغير أن يرفَّ لنا حتَّى جَفنٌ من أجفاننا. وإذا عشنا في ضَوء تلك الحقيقة، فسوف

نبثُّ تلك الروح في الآخرين. فهم يعلمون أنَّهم في مأمنٍ إذا جاؤوا إلينا. ويعلمون أنَّنا نستطيع أن نتقبَّل أيَّ شيءٍ يمكن أن يكشفوه. ويعلمون أنَّنا لن نتعالى عليهم أبدًا، بل بالأحرى سنتفهَّمُهم.

وحين نعيش بهذه الروح، لن نُضطرَّ إلى إخبار الآخرين بأنَّنا سوف نحافظ على سرِّيَّة المعلومات السرِّيَّة. فهم يعلمون أنَّنا لن نُفشيَ أبدًا سرًّا استؤمنَّا عليه. أجل، لن نُضطرَّ إلى إخبارهم بذلك، ولن نُجرَّب البتَّة بإفشاء السرّ؛ لأنَّنا نعرف الحُزن الإلهيَّ الذي دفعهم لأن يخطُوا هذه الخطوة الصعبة.

وبالعيش تحت الصليب، نُنقَذ من خطر الهيمنة الروحيَّة. فنحن قد وقفنا حيث يقف أخونا الآن، وهكذا تتبدَّد الرغبة في استخدام اعترافه ضدَّه. كما لا نشعر بأيَّة حاجةٍ إلى السَّيطرة عليه أو إلى تقويم اعوِجاجه. بل كلُّ ما نشعر به هو القبول والتفهُّم.

وفيما نستعدُّ لهذه الخدمة المقدَّسة، تقضي الحكمة بأن نُصلِّيَ بانتظام لأجل ازدياد نور المسيح في داخلنا، بحيثُ حين نكون مع الآخرين نبثُّ فيهم حياتَه ونوره. ونحن في حاجة إلى تعلُّم كيفيَّة الحياة بحيث يتكلَّم حضورُنا بالذات عن محبَّة الله ونعمته الغافرة. كذلك ينبغي لنا أيضًا أن نُصلِّيَ لأجل ازدياد موهبة التمييز لدينا. وهذا مهمٌّ لا سيَّما حين نخدم إخوتنا في أعقاب الاعتراف. إذ نتمكَّن من إدراك الشفاء الحقيقيِّ الذي تدعو إليه الحاجة في الروح الداخليَّة العميقة.

ومن المُهِمِّ حين يُفضي الآخرون إلينا بأحزانهم أن نضبط أنفسنا لنبقى صامتين. فسوف نتعرَّض بشدَّة للتجربة بأن نُفرِّجَ توتُّر الوضع بتعليقٍ مُرتجَل. وهذا مُلهٍ جدًّا، بل مُبدِّدٌ أيضًا لقُدسيَّة اللحظة. كذلك لا ينبغي أن نحاول الوقوف على تفاصيلَ تتخطَّى ما هو ضروريّ. وإذا شعرنا بأنَّ المُعترِفين، إمَّا عنِ

ارتباكٍ وإمَّا عن خوف، يُحجِمون عن ذِكرِ شيءٍ ما، فأفضلُ أُسلوبٍ هو أن ننتظر بصمتٍ وبروحِ الصلاة.

ذاتَ مرَّةٍ كانت إحدى الأخوات تعترف بغمِّها لي وللربّ. ولمَّا فرَغَت، شعرتُ بدافعٍ إلى الانتظار بصمت. ثُمَّ ما لبثَت أن بدأت تُفضي إليَّ باعترافٍ بخطيَّة دفينة لم تتمكَّن قطُّ من إطلاع أحدٍ عليها. وقد قالت لي في ما بعد إنَّها، فيما كنتُ أنتظر، نظرت إليَّ و"رأت" فوق عينيَّ عينَي **الآخرِ** الكريم الذي بلَّغها محبَّةً وقبولًا أطلقاها كي تُنزِلَ الأحمالَ عن قلبها. أمَّا أنا فلم أُحِسَّ شيئًا، ولا "رأيتُ" أيَّ منظر؛ غير أنِّي لا أشكُّ في اختبارها لأنَّه أدَّى بالفعل إلى شفاء داخليٍّ عجيب.

وتُبيِّن هذه القصَّة أيضًا عاملًا آخر مهمًّا في تلقِّي الاعتراف: أنَّ من المفيد دائمًا أن تشيِّد نُصبًا للصليب بينك وبين المعترف التائب بالصلاة. فهذا يحميهم من أن يتلقَّوا منك مجرَّد عاطفة بشريَّة، ويحميك من أن تتلقَّى منهم أيَّةَ تأثيراتٍ مؤذية. إذ إنَّ كلَّ شيءٍ يُصفَّى من خلال نور الصَّليب. وعطفُكَ الإنسانيُّ تُرَقِّيه المحبَّة الإلهيَّة وتُفعِمهُ بالحياة والحيويَّة. فأنت تُصلِّي لأجلهم بقوَّة الصليب.

وغنيٌّ عن القول إنَّك تكون مُصلِّيًا لأجلهم فيما هم يكشفون لك دخيلة نفوسِهم. ففي سرِّك ودون أن يُلاحِظوا، تبثُّ فيهم صلوات المحبَّة والمغفرة (من غير اللطيف أن تُجريَ استعراضًا لصلاتك). كذلك أيضًا تكون مُصلِّيًا لأجلهم كي يفصحوا عنِ "المفتاح" الذي سيكشف أيَّة ناحية في حياتهم تحتاج إلى لمسة السيِّد المسيح الشافية.

أخيرًا، من المهمِّ جدًّا أن تُصلِّي لأجل الشخص، غير مُكتفٍ بتقديم المشورة إليه. وقبلَ الصلاة، أو في أثنائها، ينبغي أن نُعلِن لهم أنَّ الغفران الذي بيسوع المسيح هو الآن فِعليٌّ وفعَّال بالنسبة إليهم. ولنا أن نقول هذا بكلماتٍ ونبراتٍ تتَّسم

بالسُّلطان الأصيل لأنَّ عندنا السماءَ كلَّها وراء النُّطق بالحلّ (يوحنَّا٢٠: ٢٢ و٢٣).*

والصلاة هي لأجل شفاء الجروح الداخليَّة التي قد سبَّبتها الخطيَّة. والأفضلُ أن نصحب الصلاة "بوضع الأيدي" الذي هو تعليمٌ أوَّليٌّ من تعاليم الكتاب المقدَّس ووسيلةٌ يُوصِل بها الله قوَّته المُحيِيَة (عب٦: ٢). فادعُ الله ليفيضَ إلى العقل الباطن العميق ويُعافيَه من غموم الماضي. كذلك أيضًا تَصوَّر المُعافاة، واشكُر الله عليها. وعن خدمة الصلاة هذه كتبَت أغنيس سانفورد: "يُقيم المرء أُلفةً عميقة جدًّا بهذا النَّوع من الصلاة، حيث يشعر بمشاعر الشخص الذي لأجله يُصلِّي شعورًا قويًّا جدًّا حتَّى إنَّ الدُّموع غالبًا ما تنبَجِسُ شاقَّةً طريقها من مركز تعاطُفٍ عميق داخلَ النفس. ولكنْ إذا بكى المرء، لا يكون ذلك بُكاء حُزن بل بكاء فرح، علمًا بأنَّ هذه الدُّموع ليست دموع المرء بل هي دموع قلب المسيح الحنون إذ يحتضنُ هذا الضالَّ، كما أنَّ الفرح هو فرح المسيح الذي تيسَّرت له أخيرًا قناةٌ تُتيح له أن يصل إلى هذا الشخص الذي ما انفكَّ يحبُّه".[١٥]

إنَّ انضباط الاعتراف يضع حدًّا للتظاهر والادِّعاء. والله يدعو إلى الوجود كنيسةً تستطيع أن تعترف صراحةً بضعفها البشريِّ وتختبر نِعَمَ المسيح الغافرة والمُعطية للطاقة والقوَّة. فالصِّدق يؤدِّي إلى الاعتراف، والاعترافُ يُفضي إلى التغيير. عسى أن يُعطيَ الله الكنيسةَ نِعمةً من جديدٍ بَعدُ حتَّى تُعيدَ انضباط الاعتراف إلى نِصابه!

* لنا في كلمات المسيح هذه ليس فقط خدمة مغفرة الخطايا، بل أيضًا خدمة إمساك الخطايا. "مَن غفرتم خطاياه، تُغفَر له؛ ومَن أمسكتُم خطاياه، أُمسِكت". وخدمة إمساك الخطايا هي ببساطة أن تُرفضَ مُحاوَلةُ الإتيان بالناس إلى داخل شيءٍ هم غير مُستعدِّين له. فأحيانًا يكون بعضُهم مُتلهِّفين جدًّا لإدخال الآخرين إلى ملكوت الله حتَّى إنَّهم يحاولون أن يُعلِنوا لهم غفران خطاياهم قبل أن يكونوا قد طلبوه، أو على الأقلِّ أرادوه. ومن المؤسف أنَّ هذا الدَّاء يَصِمُ قسطًا كبيرًا من التبشير العصريِّ الحديث.

11

انضباطُ العبادة

أن نعبد هو أن نُحييَ الضميرَ بقداسة الله، أن نُغذِّيَ العقل بحقِّ الله، أن نُطهِّرَ الخيال بجمال الله، أن نفتح القلب لمحبَّة الله، أن نُكرِّس الإرادة لمقصد الله.

وليم تَمپل (William Temple)

أن نعبد هو أن نختبر **الحقيقة**، أن نُلامِسَ **الحياة**. هو أن نعرف ونحسَّ ونختبر السيِّد المسيح المُقام في وسط الجماعة المجتمعة. هو أن ندخل إلى قلب شَكينةِ الله، بل بالأحرى أن تغزوَنا شكينةُ الله*.

إنَّ الله ناشطٌ في طلب عابدين، أو ساجدين. فقد صرَّح السيِّد المسيح قائلًا: "الساجدون الحقيقيُّون يسجدون للآب بالروح والحقّ، لأنَّ الآب **طالبٌ** مثل هؤلاء الساجدين له" (يوحنَّا٤: ٢٣). فالله هو الذي يطلب ويجتذب ويحثّ. والعبادة هي الاستجابة البشريَّة للمُبادَرة الإلهيَّة. ففي سفر التكوين تمشَّى الله في الجنَّة، طالبًا آدم وحوَّاء. وفي الصَّلب، جذب السيِّد المسيح إلى ذاته الرِّجال والنساء (يو١٢: ٣٢). والكتاب المقدَّس حافلٌ بالأمثلة على مساعي الله لمُباشَرة

* "الشَّكينة" تعريبُ اللَّفظة العبريَّة "شَكيناه"، ومعناها مجدُ (أو بهاءُ) الله الساكن وسط شعبه. وهي تدلُّ على حضور الله المباشر، على نقيضِ إلهٍ غامضٍ أو مُجرَّدٍ أو ناءٍ.

الشركة مع أولاده وإصلاحها وصيانتها. فالله مِثلُ أبي الابن الضالِّ ذاك الذي إذ رأى ابنه، وهو بعيدٌ بَعدُ، ركض كي يُرحِّب به عائدًا إلى البيت.

إنَّ العبادة هي استجابتُنا لمبادراتِ المحبَّة من قِبَل قلب الآب. وحقيقتُها المركزيَّة كامنةٌ في "الروح والحقّ". فهي تُضرَم في داخلنا فقط حين يلمس روح الله أرواحنا البشريَّة. والأشكال والشعائر لا تُنتِج العبادة، كما لا يُنتِجها عدمُ استعمال الأشكال والشعائر. فقد نستخدم جميع التقنيَّات والأساليب الصحيحة، وقد تكون لنا أفضل ليتورجية (مراسم أو طقوس دينيَّة) ممكنة، ولكنَّنا لا نكون قد عبدنا الربَّ قبلَ أن يُلامِسَ الروحُ أرواحَنا. وكلمات القرار: "يا ربُّ حرِّر روحي كي أقدر أن أعبدك" تُبيِّن أساس العبادة. فما لم يلمس الله أرواحنا ويحرِّرْها، يتعذَّر علينا أن ندخل هذا المجال. وقد يؤدِّي الترنيم والصلاة والتسبيح جميعًا إلى العبادة، غير أنَّ العبادة هي أكثر من أيٍّ منها. فإنَّ أرواحنا يجب أن تُلهِبَها النارُ الإلهيَّة.

نتيجةً لذلك، لا داعيَ لأن نُعنى أكثر ممَّا ينبغي بمسألة اعتماد شكل عبادة صحيح. فقضيَّة الليتورجية الرفيعة (High liturgy) أو الليتورجية الوضيعة (Low liturgy)، وهذا الشكل أو ذاك، قضيَّةٌ هامشيَّة لا مركزيَّة. ونحن نلقى التشجيع في هذا الإدراك حين نعلم أنَّ كتاب العهد الجديد لا يُوصي في أيِّ موضع منه بشكلٍ مُعيَّن للعبادة. فما نجده بالحقيقة هو حرِّيَّة لا تُصدَّق لقوم جذورُهم عميقة جدًّا في نظام المجمع الليتورجيّ. إذ قد باتت الحقيقة لديهم. وحين يلمس الروح القدس الأرواح، تغدو قضيَّة الأشكال ثانويةً بمُجمَلها.

وأن نقول إنَّ الأشكال ثانويَّة ليس هو أن نقول إنَّها غيرُ ذاتِ صلة. فما دمنا كائناتٍ بشريَّةً محدودة، ينبغي أن تكون لدينا أشكال. ينبغي أن تكون لدينا "أزقاقٌ"–أي أوعية تخمير العنب– تُجسِّم اختبارنا في العبادة. غير أنَّ الأشكال

ليست هي العبادة، بل إنَّها تُفضي بنا إلى العبادة ليس إلَّا. فنحن أحرارٌ في السيِّد المسيح كي نستعمل أيَّ شكل يُعزِّز عبادتنا؛ وإن كان شكلٌ من الأشكال يحول دون اختبارنا للمسيح الحيّ، فبئسَ ذلك الشَّكل.

غَرَض العبادة

أجاب السيِّد المسيح جوابًا يتخطَّى الأزمنة عنِ السؤال: مَن ينبغي أن نعبد؟ "للربِّ إلهك تسجد، وإيَّاه وحده تعبد" (مت٤: ١٢). والإله الحقيقيُّ هو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب- الإله الذي أعلنه يسوعُ المسيح. وقد أفصح الله عن مَقته لجميع أنواع عبادة الأصنام بوضعه نَهيًا قاطعًا في أوَّل الوصايا العشر: "لا يكُن لك آلهة أُخرى أمامي" (خروج ٢٠:٣). ثُمَّ إنَّ عبادة الأوثان لا تقتصر فقط على الانحناء أمام أغراضِ عبادة منظورة. إذ يقول أ.و. تُوزَر: "إنَّ جوهر عبادة الأوثان هو مُراعاةُ أفكارٍ عنِ الله ليست لائقةً به".[1] فأن نُفكِّر بشأن الله فكرًا صحيحًا، معناه بصورةٍ مُهِمَّةٍ أن يكون كلُّ ما عندنا صحيحًا. وأن نُفكِّر بشأن الله فكرًا خاطئًا، معناه بصورةٍ مهمَّة أن يكون كلُّ ما عندنا خاطئًا.

إنَّنا لَفي أمسِّ الاحتياج لأن نُدرِك مَن هو الله: أن نقرأ عن إعلانه ذاتَهُ لشعبه القديم، أن نتأمَّل في سجاياه، أن نتفرَّس في إعلان طبيعته بيسوع المسيح. فحين نرى ربَّ الجنود في مقام "عالٍ وَسَام"، ونتفكَّر في حكمته ومعرفته اللامحدودتَين، ونتعجَّب من رحمته ومحبَّته اللتينِ لا يُسبَر غورهُما، لا يسعُنا إلَّا أن نُبادِرَ إلى الحمدلة (الحمد) أوِ المجدلة (التمجيد).

فرحينَ نعترفُ بسجاياك كُلِّها،
مجيدةٌ هي ولا يُستطاعُ إحصاؤها![2]

وأن نرى مَن هو الربُّ أمرٌ يدفعنا إلى الاعتراف. فلمَّا رأى إشعياء لمحةً من مجد الله صرخ: "ويلٌ لي! إنِّي هلكتُ؛ لأنِّي إنسانٌ نجس الشفتَين، وأنا ساكن بين شعبٍ نجس الشفتَين؛ لأنَّ عينيَّ قد رأتا ربَّ الجنود" (إش٦: ٥). إنَّ خاطئيَّةَ الكائناتِ البشريَّةِ البغيضةَ تُصبح جليَّةً حين تُفارَق مع قداسة الله البهيَّة. وتقلُّبنا يغدو واضحًا حين نرى أمانة الله. وأن نعيَ نعمته هو أن نعيَ مذنبيَّتنا.

ونحن لا نعبد الربَّ بسبب مَن هو فحسب، بل أيضًا من أجل ما قد فعله. ففي المقام الأوَّل، الإلهُ الموصوف في الكتاب المقدَّس هو الإله الذي يعمل. ذلك أنَّ صلاحه وأمانته وعدله ورحمته يمكن أن تُرى جميعًا في معاملاته مع شعبه. وأفعالُ نعمته ليست مُدرَجةً فقط في صُلبِ التاريخ القديم، بل هي أيضًا محفورةٌ في قلب تواريخنا الشخصيَّة. وكما يقول الرسول بولس، فإنَّ الاستجابة المنطقيَّة الوحيدة هي العبادة (رو١٢: ١). فنحن نُسبِّح الله من أجلِ مَن هو، ونشكره من أجل ما فعله.

أولويَّة العبادة

إذا كان للربِّ أن يكون ربًّا بالفعل، يجب أن تكون العبادةُ ذاتَ أولويَّة في حياتنا. فوصيَّة الربِّ يسوع الأُولى هي: "تحبُّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك، ومن كلِّ نفسك، ومن كلِّ فكرك، ومن كلِّ قدرتك" (مرقس١٢: ٣٠). إذًا الأولويَّة الإلهيَّة هي العبادةُ أوَّلًا، ثُمَّ الخدمة ثانيًا. فينبغي أن تترصَّع حياتُنا بالحمد والشُّكر والتسبيح والتعبُّد. والخدمة تنبع من العبادة. فإذا كانَتِ الخدمة بديلًا من العبادة، تصيرُ عبادةَ أصنام. والتحرُّك هو عدوُّ التعبُّد.

كانَتِ الوظيفة الأساسيَّة للكهنة اللاويِّين، حسْبما قال الربّ إنَّهم "يتقدَّمون إليَّ ليخدموني" (حزقيال٤٤: ٥). فبالنسبة إلى كهنة العهد القديم، وجب أن

تسبق خدمة الربِّ كلَّ عمل آخر. وهذا ليس أقلَّ صِحَّةً بالنِّسبة إلى الكهنوت الشامل في العهد الجديد فمن التجارب الخطيرة التي نواجهها جميعًا أن نصول ونجول مُلبِّين الدعوات إلى الخدمة بغير أن نخدم الربَّ نفسه.

إنَّ الله اليوم يدعو كنيسته للعودة إلى العبادة. ويمكن أن نرى هذا في الدوائر الكنسيَّة العُليا، حيث يتواجد اهتمامٌ مُتجدِّد بالعلاقة الوثيقة بالله. كما يمكن أن نرى ذلك أيضًا في الدوائر الكنسيَّة الدُّنيا، حيث يتواجد اهتمامٌ متجدِّد بالليتورجية. ويمكن كذلك أن نراه في كلِّ مكان بين هذه وتلك. لَكأنَّما اللهُ يقول: "أُريد أن ترجع قلوبُ شعبي إليَّ!" وإنْ كنَّا نتوق لأنْ نذهب حيثُ اللهُ ذاهب، ونفعل ما الله فاعل، فسوف نتقدَّم إلى عبادةٍ أعمقَ وأكثر أصالة.

الاستعداد للعبادة

من الملامح المؤثِّرة التي تتميَّز بها العبادةُ في الكتاب المقدَّس أنَّ الناس كانوا يجتمعون في ما يمكن فقط أن ندعوَه "تَرقُّبًا مُقدَّسًا". فقد آمنوا بأنَّهم سيسمعون فعلًا **قُول يهوه** (Kol Yahweh)، أي صوت الربّ. وعندما كان موسى يدخل خيمة الاجتماع، كان يعلم أنَّه داخلٌ إلى حضرة الله. والأمر عينه كان صحيحًا بالنسبة إلى الكنيسة الباكرة. فلم يكن مُفاجئًا لهم أنَّ المبنى الذي كانوا مجتمعين فيه تزعزع بقدرة الله، إذ إنَّ ذلك قد حدث من قبل (أعمال٢: ٢؛ ٤: ٣١). ولمَّا سقط بعضٌ أمواتًا، وأُقيم آخرون من الموت أحياءً، بكلمة الربّ، عرف الشعبُ أنَّ الله كان في وسطهم (أع٥: ١-١١؛ ٩: ٣٦- ٤٣؛ ٢٠: ٧- ١٠). وإذ اجتمع أُولئك المؤمنون الأوَّلون، كانوا يعلمون يقينًا أنَّ حجاب الهيكل قد انشطر شطرَين، وأنَّهم- على غِرار موسى وهارون- كانوا يدخلون الأقداس. فلم تدعُ الحاجة إلى وسَطاء. إذ كانوا يدخلون إلى حضرة الإله الحيِّ، المهيبة المجيدة الكريمة. وكانوا

يجتمعون في ترقُّب، عالمين أنَّ السيِّد المسيح حاضرٌ في وسطهم، وأنَّه سيُعلِّمهم ويلمسهم بقدرته الحيَّة.

كيف نكتسب هذا الترقُّب المقدَّس ونتعهَّده؟ إنَّه يبدأ فينا إذ ندخل شكينةَ القلب. فبينما نعيش مطالب يومنا، نكون ممتلئين بالعبادة والتعبُّد الداخليَّين. إنَّنا نشتغل ونلعب ونأكل وننام، ومع ذلك نكون مُصغين، مصغين كلَّ حين، إلى معلِّمنا الإلهيّ. ومكتوباتُ فرانك لَوباخ حافلة بهذا الشعور بالعيش في ظلِّ القدير. "من بين جميع عجائب اليوم، العُظمى هي هذه: أن أعلم أنِّي أجدك على أفضل وجهٍ وأنا أشتغل مُصغيًا... شُكرًا لكَ أيضًا لأنَّ عادة التحدُّث معك دائمًا تغدو أسهل كلَّ يوم. إنِّي أُومن حقًّا بأنَّ كلَّ فكرة يمكن أن تكون أحاديثَ معك".[٣]

وقد عرف الأخ لَورنس أيضًا الحقيقة عينها. فلأنَّه اختبر حضور الله في المطبخ، علم أنَّه سيلتقي الله أيضًا في القُدَّاس. وممَّا كتبه: "لا أستطيع أن أتصوَّر كيف يمكن أن يعيش الأشخاص المتديِّنون قانعين بغير ممارسة حضور الله".[٤] فإنَّ أُولئك الذين ذاقوا مرَّةً شَكينةَ الله في الاختبار اليوميِّ لا يُمكِنهم أبدًا أن يعيشوا من جديدٍ قانعين بغير "ممارسة حضور الله".

وإذِ التقطْتُ الرؤيةَ من الأخ لَورنس وفرانك لَوباخ، كرَّستُ سنةً كاملة لأتعلَّم كيف أعيش بانفتاح دائم للسيِّد المسيح بصفته مُعلِّمي الحاضر. وعقدتُ العزم على أن أتعلَّم لُغَتَه: أهو يُخاطِبني من خلال تلك الطيور المُغرِّدة أو ذلك الوجه العابس؟ وسعيتُ لأنْ أسمح له بأن يتحرَّك من خلال كلِّ فِعل: بأصابعي حينَ أكتب، وصوتي حين أتكلَّم. وكانت مُنيَتي أن أُرصِّع كلَّ دقيقة بهمسات التعبُّد والتسبيح والتشكُّر. وغالبًا ما أخفقتُ ساعاتٍ، بل أيَّامًا بعضَ الأحيان. غير أنِّي كنتُ كلَّ مرَّةٍ أقوم وأُجرِّب من جديد. ومع أنَّ تلك السنة قد نفعتني

بأشياءَ عديدة، فإنَّها على وجه الخصوص رقَّت شعوري بالترقُّب في أثناء العبادة العامَّة. وبَعدُ، فإنَّ الربَّ تكلَّم إليَّ مُنعِمًا بعشرات من الطُّرق الصغيرة في أثناء الأُسبوع كلِّه؛ ولا بُدَّ أن يتكلَّم إليَّ هُنا أيضًا. ثُمَّ إنِّي استسهلتُ على نحوٍ متزايد أن أُميِّز صوته من هدير الحياة اليوميَّة.

حين يُقبِل أكثرُ من واحدٍ أو اثنين إلى العبادة العامَّة بترقُّبٍ مقدَّس، يُمكن أن يُغيِّر ذلك جوَّ قاعةٍ بأكملها. فالأشخاص الذين يدخلون خائرين ومُشتَّتين سرعان ما ينجذبون إلى شعورٍ **بالحضرة** الساكنة. وإذا بالقلوب والعقول تُرفَع إلى العلاء، ويغدو الجوُّ عابقًا بالترقُّب.

وإليك مسكةً عمليَّة تقبض بها على هذه الفِكرة: عِش طيلة الأُسبوع كوارثٍ للملكوت، مُصغيًا إلى صوت الربّ، مطيعًا كلمته. وبما أنَّك قد سمعتَ صوته طوال الأُسبوع، تعلَم أنَّك ستسمع صوته إذ تجتمع مع الآخرين لأجل العبادة العامَّة. إنَّما ادخُلِ الخدمة قبل عشر دقائق، وارفع قلبك بالتعبُّد لِمَلِك المجد. تأمَّلْ في جلاله ومجده ولطفه كما ظهرَت في يسوع المسيح. وتصوَّرِ الرؤيا العجيبة التي كانت لإشعياء إذ رأى الربَّ في مقام "عالٍ ومرتفع"، أو ذلك الظُّهورَ الجليل الذي رأى فيه يوحنَّا السيِّد المسيح إذ كانت "عيناه كلهيب نار... وصوتُه كصوت مياه كثيرة" (إش٦؛ رؤ١). وادعُ **الحضرةَ** الفعليَّة كي تتجلَّى للجميع.

بعد ذلك، ارفَعْ إلى نور السيِّد المسيح خادمَ الربِّ وغيرَه من قادة السُّجود. وتصوَّر شكينةَ بهاءِ الله مُحيطةً بهم. واطلُب في سرِّك أن يُطلَقوا ليتكلَّموا بالحقِّ في جُرأةٍ بقوَّةِ الربّ.

وحين يبدأ الناس بدخول القاعة، انظر حوالَيك نظرةً خاطفة حتَّى تلمح شخصًا يحتاج إلى خدمتك التشفُّعيَّة. قد تكون أكتافهم مَحنيَّة، أو يبدو عليهم شيءٌ من الحزن. فارفعهم إلى نور الحضرة الإلهيَّة المجيد المُنعِش. وانظُرِ الحِملَ

مُدحرَجًا عن أكتافهم كما دُحرِج عن كتِفَي السائح في رواية جون بنيان الرمزيَّة (''سياحة المسيحيّ''). وأبقِهم كنِيَّة خاصَّة طوال الخدمة. فلو أنَّ أقلَّاءَ فقط في أيَّة جماعة من الجماعات فعلوا ذلك، لَتعمَّق اختبارُ العبادة لدى الجميع.

ومن الملامح الحيويَّة التي تميَّزت بها الجماعةُ المسيحيَّة الباكرة أيضًا شعورُهم بأنَّهم ''مجتمِعون'' معًا في العبادة. فقد كانوا أوَّلًا مُجتمِعين بمعنى أنَّهم يتلاقَون فعلًا كجماعة. وثانيًا، إذْ تلاقَوا، كانوا مُجتمِعين في وِحدةٍ روحيَّة تسامَت على فردانيَّتهم.

فعلى عكس الدِّيانات الشرقيَّة، شدَّد الإيمان المسيحيُّ تشديدًا قويًّا على العبادة الجَماعيَّة. حتَّى إنَّه قد طلب إلى الجماعة الباكرة، في ظلِّ الظروف المحفوفة بأشدِّ الأخطار حدَّةً، ألَّا يتخلَّوا عنِ الاجتماع معًا (عب١٠: ٢٥). وكثيرًا ما تكلَّمَت الرسائل عن جماعة المؤمنين باعتبارها ''جسد المسيح''. فكما أنَّ الحياة الإنسانيَّة غيرُ واردة بِلا رأسٍ وذراعَين ورِجلَين، كذلك كان غيرَ واردٍ عند أُولئك المؤمنين بالمسيح أن يعيشوا معزولين بعضُهم عن بعض. وقد شهد مارتن لوثر لهذه الحقيقة مُعبِّرًا عنها بقوله: ''في البيت، في منزلي شخصيًّا، ليس من دفءٍ ولا حيويَّة فيَّ؛ ولكنْ في الكنيسة، حين تجتمع الجماعةُ معًا، تُضرَم في قلبي نارٌ وتشقُّ طريقها إلى الآخرين''.[٥]

ثُمَّ إنَّ شعب الله، عندما يجتمعون معًا، يسود بينهم غالبًا شعورٌ بأنَّهم ''مُجتمِعون'' على رأيٍ واحد ولهم فِكرٌ واحدٌ بالإجماع (في٣: ١٥). وقد كتب ثوماس كِلي: ''تُخيِّم علينا **حضرةٌ** مُحيِيَة، تُبدِّد جزءًا من الخُصوصيَّة والعُزلة الخاصَّتَين اللَّتين تُساوِران حياتنا الفرديَّة، وتُدمِجُ أرواحنا في **حياةٍ وقوَّةٍ** تُجاوِزان الأفراد. وتكتنِفُنا جميعًا حضرةٌ حيويَّة موضوعيَّة، تُغذِّي نفوسنا وتُكلِّمنا بعزاءٍ مُبهِجٍ لا يُنطَق به، وتُحيينا في أعماقٍ سبق أن كانت غاطَّةً في النوم''.[٦] فعندما

نكون مُجتمعين حقًّا في العبادة، تحدث أُمور لا يمكن أن تحدث أبدًا ونحن وحدَنا. لا شكَّ أنَّ "نفسيَّة الجماعة" تعمّ، ولكنْ يحدث أكثر من ذلك بكثير: إذ يحصل تداخُلٌ وتخلُّلٌ إلهيَّان، حيث يكون ما يدعوه كَتَبةُ الوحيِ المقدَّس **كُوينُونيا** (Koinonia)، أي شركةٌ داخليَّة عميقة بقوَّة الروح القدس.

إنَّ هذا الاختبار أسمى بكثير جدًّا من روح الجماعة. فهو ليس بأدنى حدٍّ مُتوقِّفًا على الوَحَدات المُتجانسة، ولا حتَّى على معرفتنا معلوماتٍ بعضِنا عن حياة بعض. إذ يحصل تذويبٌ إلهيٌّ لانفصال أحدنا عنِ الآخر. فبقوَّة **الروح** الواحد نغدو "مَلفوفين بإحساسٍ وَحدة، **وبحضرةٍ** من شأنها أن تُسكِتَ كلَّ كلام، وتَكتنِفَنا بسَكِينةٍ وتَناسُجٍ عُضويٍّ في إطار حياةٍ أرحَبَ، لا يُعبَّر عنهما".[٧] وهذه الشَّركة في العبادة تجعل العبادة العِوَضيَّة عبر وسائل الإعلام تَفِهةً ومُفلطَحة.

قائد العبادة

للعبادة الأصيلة **قائدٌ** واحدٌ فقط، ألا وهو الربُّ يسوع المسيح. وعندما أتحدَّث بشأن السيِّد المسيح بصفته قائد العبادة، أعني قبلَ كلِّ شيء أنَّه حيٌّ وحاضرٌ في وسط شعبه. ويمكن أن يُسمَع صوتُه في قلوبهم، ويُعلَمَ حضورُه. فنحن لا نقرأ عنه فقط في الكلمة المقدَّسة، بل يمكن أن نعرفه من طريق إظهاره لِذاته. وهو يريد أن يُعلِّمنا ويُرشِدَنا ويُوبِّخنا ويُعزِّيَنا.

كذلك أيضًا يكون السيِّد المسيح حاضرًا بجميع وظائفه. ففي العبادة نحن ميَّالون إلى رؤية السيِّد المسيح فقط في وظيفته الكهنوتيَّة، بصفته المُخلِّص والفادي. ولكنَّه حاضرٌ في وسطنا أيضًا بصفته نبيَّنا ومَلِكَنا. أعني أنَّه سيُعلِّمنا عنِ البرِّ ويمدُّنا بالقدرة كي نفعل ما هو صحيح. وقد قال جورج فُوكس: "اجتَمِعوا معًا باسم يسوع... إنَّه هو نبيُّكم وراعيكم وأُسقُفكم وكاهنكم، في وسطكم، كي

يُكاشِفَكُم، ويُقدِّسَكم، ويمدَّكم بالحياة، ويُحييَكُم بالحياة".[٨]

ثُمَّ إنَّ السيِّد المسيح أيضًا حيٌّ وحاضرٌ بكلِّ قدرته. فهو يُخلِّصنا لا من عواقب الخطيَّة فحسب، بل ومن سيادتها أيضًا. ومهما علَّمَنا، فسيُعطينا القدرة على إطاعته. وما دام الربُّ يسوع هو قائدنا، يمكن أن نتوقَّع حصولَ عجائبَ في العبادة. وستكون الشِّفاءات، الداخليَّةُ والخارجيَّة على السواء، هي القاعدةَ لا الاستثناء. ولن يكون سفرُ الأعمال مُجرَّد كتابٍ نقرأ فيه، بل يصيرُ اختبارًا نختبره.

أخيرًا، السيِّد المسيحُ قائدُ العبادة بمعنى أنَّه هو وحدَه يُقرِّر أيَّة وسائل بشريَّة ينبغي أن تُستعمَل- إذا استُعمِلَت أيَّةٌ منها. والأفراد يَعظون أو يتنبَّأُون أو يُرنِّمون أو يُصَلُّون إذ يدعوهم **قائدُهم** إلى ذلك. بهذه الطريقة لا يُفسَح المجال لإعلاء شأن أيَّة شُهرة خاصَّة. فالمسيحُ وحده هو المُعظَّم المُكرَّم. وإذ يستدعي **رأسُنا** الحيُّ مواهبَ الروح، فإنَّ أيَّةَ واحدةٍ منها- أو جميعَها- يمكن أن تُمارَس بحرِّيَّة وتُتلقَّى بسرور. وقد تُعطَى كَلِمةُ علمٍ فيها تنكشف نيَّةُ القلب، فنعرفُ أنَّ يسوع المَلِك يتولَّى الإمرة. أو قد تُقدَّم نُبوَّةٌ أو مَشُورةٌ تجعل رؤوسَنا ممدودةً إلى الأمام في دهشة لأنَّنا نحسُّ أنَّ قُول يهوه (صوتَ الربِّ) قد نُطِق به. كما أنَّ الوعظ أو التعليم الذي يطلع لأنَّ **الرأس** الحيَّ قد أطلعه يبثُّ الحياة في العبادة. فالوعظ الذي ليس فيه مَسحةٌ إلهيَّة ينزلُ على العبادة كالصَّقيع. إنَّ الوعظ من القلب يَضرِم التعبُّد؛ أمَّا الوعظ من الرأس فيُخمِد الجَمرَ المُضطرم. ولا شيءَ يُحيي أكثر من الوعظ الذي يُلهِمه الروح القدس. كما أنَّه لا شيءَ يُميتُ أكثر من الوعظ الذي يُلهِمُهُ الفكرُ البشريّ.

بهذا الحديث كُلِّه عن كون السيِّد المسيح هو قائدَ العبادة، قد تستنتج أنَّ القيادة البشريَّة عديمةُ الأهمِّيَّة. غير أنَّ هذه الفكرة بعيدةٌ جدًّا عن الحقّ. فإنْ لم يُقِم الله قادةً يستطيعون أن يتقدَّموا الآخرين في العبادة بسُلطانٍ وحنان، فعندئذٍ

يكاد اختبار العبادة أن يكون مستحيلًا. وهذا هو سببُ وجود مواهب **الرُّوح** القياديَّة (أف ٤: ١١). فعلى قادة العبادة الذين يدعوهم الله ألَّا يخجلوا بقيادتهم. إذ إنَّ الناس يحتاجون لأنْ يُقادُوا **إلى لُبِّ** العبادة: من الدَّار الخارجيَّة، إلى الدار الداخليَّة، فإلى قُدس الأقداس أخيرًا. والله يَمسحُ قادةً كي يتقدَّموا الآخرين عبرَ هذا السبيل إلى لُبِّ العبادة.

سُبُلٌ إلى العبادة

من الأسباب المُوجِبة كي نحسب العبادة انضباطًا روحيًّا كونُها طريقةَ تصرُّفٍ وعَيشٍ تُقيمُنا أمام الله كي نُتيحَ له أن يُغيِّرنا. فرُغمَ كوننا مُتجاوبين فقط مع لمسة الروح القدس المُحرِّرة، توجَد سُبُل مُعدَّةٌ إلهيًّا إلى وُلوج هذا المجال.

وأوَّلُ سبيل إلى داخل العبادة هو أن نُسكِّن كُلَّ نشاط يدفع إليه الاستحسانُ البشريّ. إنَّما تسكين "النشاط المخلوقيّ"، كما دعاه أربابُ الحياة الداخليَّة، ليس أمرًا ينبغي حصره في خدمات العبادة الرسميَّة، بل هو نمط حياة. إذ يجب أن يتخلَّل خامة حياتنا اليوميَّة. فعلَينا أن نعيش في صمتٍ داخليٍّ مُصغٍ دائم، بحيث يكون الله هو مصدرَ أقوالنا وأفعالنا. وإن كُنَّا مُتعوِّدين أن نُصرِّف شؤون حياتنا بقوَّة وحكمة بشريَّتين، فسنفعل ذلك أيضًا في العبادة الجَماعيَّة. ولكنْ إذا كُنَّا قد اكتسبنا عادة السماح لكلِّ حديث، ولكلِّ معاملة تجاريَّة، بأن يَتمَّا بدافعٍ من الحفز الإلهيّ، فإنَّ ذلك الحسَّ عينه سيجري إلى لبِّ العبادة الجَماعيَّة. وقد كتب فرنسوَا فَنيلون: "طوبى للنفس التي، من طريقِ نُكرانٍ للذات صادقٍ، تُبقي ذاتها بلا انقطاع في يَدَي خالقها، مستعدَّةً أن تفعل كلَّ شيءٍ يُريده، والتي لا تكفُّ عنِ القول لذاتها مئةَ مرَّةٍ كلَّ يوم: يا ربّ، ماذا تُريد أن أفعل؟!"[٩]

أيبدو ذلك مُستحيلًا؟ السببُ الوحيد الذي يجعلنا نعتقد أنَّه بعيدٌ جدًّا

عن مُتناوَلنا هو أنَّنا لا نعي كونَ السيِّد المسيح مُعلِّمَنا الحاضر. فحين نبقى تحت إرشاده مدَّةً من الزَّمن، يتبيَّن لنا كيف يمكن أن تكون لكلِّ حركةٍ في حياتنا جذورُها المتأصِّلةُ في الله. إذ ننهض في الصباح ونستلقي على السرير بهدوء مُسبِّحين ومُتعبِّدين للربّ. ونقول له إنَّنا نرغب أن نعيش تحت قيادته وسيادته. وفيما ننطلق بالسيَّارة إلى العمل، نسألُ **مُعلِّمنا**: "كيف أحوالُنا؟" وفي الحال يُومِض **مُرشِدُنا** في أذهاننا ذلك التعليق اللاذع الذي بَدَرَ منَّا نحو شريك الحياة عند الفطور، وهزَّةَ الكتفين تلكَ اللامُبالية التي أبدَيناها لأولادنا ونحن خارجون من الباب. إذ ذاك ندرك أنَّنا طالما كُنَّا نعيش عيشةَ الجسد. فنُبادِر إلى الاعتراف، وتُرَدُّ نفوسُنا، ونعود إلى الاتِّضاع من جديد.

ثُمَّ نتوقَّف في محطَّة الوقود، ونشعر بدافعٍ إلهيٍّ للتعرُّف بالعامل، فنراه شخصًا أكثر منه آلة. ومن ثَمَّ نُتابع السير، مُبتهِجين بتبصُّرنا الجديد في النشاط الذي يُطلقه الروحُ القدس. وتجري الأُمور على هذا النحو في أثناء النهار: حفزٌ هنا أو لفتُ انتباه هُناك، وأحيانًا اندفاعٌ نسبق به **مُرشِدَنا** أوتخلُّفٌ به نتأخَّر عنه. وكطفل يخطو خَطَواته الأُولى، نتعلَّم من طريق النجاح والفشل، واثقينَ بأنَّ لنا **مُعلِّمًا** حاضرًا سوف يُرشدنا، بواسطة الروح القدس، إلى جميع الحقّ. بهذه الطريقة نغدو فاهمين ما يقصده بولس إذ يُعلِّمُنا أن نكون من "السالكين ليس حسب الجسد، بل حسب الروح" (رومية ٨:٤).

ومن شأن تسكين نشاط الجسد بحيثُ يُسيطر الروح القدس على طريقة حياتنا أن يؤثِّر في العبادة العامَّة ويبثَّ فيها الحياة. وسيتَّخذ ذلك بعضَ الأحيان شكلَ الصَّمت المُطبق. فمن المؤكَّد أنَّ مُثولَنا قدَّام القدُّوس الأزليِّ في صمتٍ توقيريٍّ وتهيُّب هو أكثرُ لياقةً من الاندفاع إلى حضرته بقلوب وعقول مُلتَوية وألسنة ممتلئة بالكلام. وإليكَ ما يحضُّنا عليه الكتابُ المقدَّس: "أمَّا الربُّ ففي هيكل قدسه؛ فاسكُتي قُدَّامه يا كلَّ الأرض" (حبقُّوق٢: ٢٠). كذلك كتب الأبُ عموناس

(Ammonas) ساكنُ الصحراء: "انظُر أيُّها الحبيب. لقد أريتُك قوَّة الصَّمت، كيف يشفي إلى التَّمام وكيف يُسِرُّ الله جدًّا...فبالصَّمت ينمو القدِّيسون، وبسبب الصَّمت حلَّت فيهم قوَّةُ الله؛ وبفضل الصَّمت كُشِفت لهم أسرار الله".[١٠]

ومن السُّبُل المُفضية إلى رحاب العبادة أيضًا التسبيح. فالمزاميرُ أدبٌ تعبُّديٌّ، والتسبيحُ أبرزُ ملامحها. ذلك أنَّ هتاف "سبِّحوا الربّ!" (هللويا) هو الصَّيحة التي تتردَّد أصداؤها في سفر المزامير من أوَّله إلى آخره. كما أنَّ الترنيم والهُتاف والرَّقص والابتهاج والتعبُّد هي كلُّها لُغة الحمد والتسبيح.

تحثُّنا الكلمة المقدَّسة على أن نُقدِّم "في كلِّ حين ذبيحة التسبيح، أي ثمر شفاه معترفة باسمه وشاكرة له" (عب١٣: ١٥). فالعهد القديم طلب ذبائح من الثيران والماعز، أمَّا العهد الجديد فيطلب ذبيحة التسبيح. والرسول بطرس يقول لنا إنَّنا بصفتنا كهنوتَ المسيح الملوكيَّ الجديد ينبغي أن نقدِّم "ذبائح روحيَّة"، ممَّا يعني أيضًا أن "تُخبِروا بفضائل الذي دعاكم من الظُّلمة إلى نوره العجيب" (١بط٢: ٥، ٩). وقد غادر بطرس ويوحنَّا المجلس اليهوديَّ الأعلى بظهرَين داميَين وشِفاهٍ مُسبِّحة (أع٥: ٤١). كما ملأ بولس وسيلا سجن فيلبِّي بترانيم التسبيح (أع١٦: ٢٥). وفي كِلتا الحالين، قُدِّمت ذبيحة التسبيح.

وقد ظهرت أقوى موجةِ تسبيح مؤثِّرة في القرن العشرين وسط الحركة الكاريزماتيَّة. فمن خلالها بثَّ الله في الملايين حياةً وحيويَّة جديدتَين. أمَّا في أيَّامنا، فإنَّ كنيسة يسوع المسيح تتقدَّم في إدراكٍ أعظم للأهمِّيَّة المركزيَّة التي يتَّسم بها التسبيحُ في إدخالنا رِحابَ العبادة.

وفي التسبيح نرى كيف ينبغي أن تُشرَك المشاعر كلِّيًّا في فعل العبادة. ذلك أنَّ العبادة التي تتَّصف بأنَّها عقليَّةٌ صِرف هي تطرُّفٌ ينطوي على ضلال. فالمشاعر جزءٌ شرعيٌّ من الشخصيَّة الإنسانيَّة، وينبغي أن تُوظَّف في العبادة. وإذ

نقول هذا، لا نعني أنَّ عبادتنا يجب أن تُعطِّل مَلَكاتنا العقليَّة أو تُسيءَ إليها. فكما يُشير علينا بولس، يجب أن نُصلِّيَ بالروح ونُصلِّيَ بالذِّهن، وأن نُرنِّمَ بالروح ونُرنِّمَ بالذِّهن (١كو١٤: ١٥). وذلك هو أحد الأسباب الكامنة وراء موهبة الألسنة الروحيَّة. فهي تُساعِد المرء على مجاوزة العبادة العقليَّة المجرَّدة إلى شَركة مع الآب داخليَّة أكثر. ولئن لم يعرف الذهنُ الخارجيُّ ما يجري قولُه، فإنَّ الرُّوح الداخليَّة تفهم. ذلك أنَّ الرُّوح تُلامِس الرُّوح.

ويُقصَد من الترنيم أن ينقلنا إلى التسبيح. فهو يوفِّر وَسَطًا للتعبير عن العاطفة. وبالأنغام الموسيقيَّة نعبِّر عن فرحنا وتشكُّرنا. فلا أقلَّ من واحد وأربعين مزمورًا تُهيبُ بنا أن "نُرنِّم للربّ". وإذا تيسَّر أن يجريَ الترنيم بطريقة مركَّزة، فإنَّه يُساعِدُنا على التركيز، إذ نصبح مُركَّزين ومُركِّزين؛ حيث تجري أذهاننا وأرواحُنا المُشتَّتة لتصيرَ كُلًّا موحَّدًا، ونكونُ في وضع تقبُّل تُجاه الله.

إنَّ الله يدعونا إلى تعبُّد يشمل كِيانَنا كُلَّه. فينبغي أن يوضَع الجسم والعقل والروح والعواطف جميعًا على مذبح العبادة. وغالبًا ما ننسى أنَّ العبادة يجب أن تشمل الجسم شمولَها للعقل والروح.

يصف الكتاب المقدَّس العبادة بألفاظ ملموسة. فالمعنى الأصليُّ للكلمة العبريَّة التي تُترجَم "**عَبَد**" عادةً هو "سجد" أو "انطرح أرضًا". والكلمة "**بارك**" تعني حرفيًّا "ركع" أو "جثا". و**التشكُّر** عبارةٌ عن "مدِّ اليد". وفي ثنايا الأسفار المقدَّسة نجد تشكيلةً من الأوضاع البدنيَّة على ارتباط بالعبادة: الانبطاح، الوقوف، الرُّكوع، رَفْع اليدَين، التصفيق بالأيدي، رَفْع الرأس، حَنْي الرأس، الرَّقص، ارتداء المُسوح وذرُّ الرَّماد على الجسم والجُلوسُ على التُّراب. وبيتُ القصيد أنَّ علينا أن نقدِّم لله أجسامنا فضلًا عن سائر أجزاء كِياننا. فالعِبادة ملموسةٌ على نحوٍ مُلائم.

وينبغي أن نقدِّم أجسامنا لله في وضع يتناغم مع روح العبادة الداخليّ. فالوقوف والتصفيق والرَّقص ورفع الأيدي ورفع الرَّأس هي أوضاعٌ تتناغم مع التسبيح. فأن يجلس المرء بلا حراكٍ عابسَ الوجه أمرٌ لا يُلائم التسبيح ببساطة. أمَّا الركوع، أو الجُثوُّ، وحَنْيِ الرأس، والانبطاحُ على الأرض، فأوضاعٌ تُوافِق روح التعبُّد والتَّذلُّل.

قد نُسارِع إلى الاعتراض على هذا المنحى في التعليم. فنحن نحتجُّ قائلين: "الناس مختلفو الأمزجة، وقد يروق هذا العاطفيِّين، غير أنِّي بطبيعتي هادئٌ ومتحفِّظ. فليس هذا هو نوع العبادة الذي سيُلبِّي حاجتي". إنَّما ما ينبغي أن ندركه هو أنَّ السؤال الحقيقيَّ في العبادة ليس "ماذا سيُلبِّي حاجتي؟" بل السؤالُ الحقيقيُّ هو: "أيُّ نوعٍ من العبادة يدعو اللهُ إليه؟" وواضحٌ أنَّ الله يدعو إلى العبادة الصادقة من القلب. فمن المنطقيِّ أن نتوقَّع أن تكون العبادة القلبيَّة بدنيَّة كما نتوقَّع أن تكون عقليَّةً على السَّواء.

وغالبًا ما يكون "مزاجنا المتحفِّظ" أكثرَ بقليل من كونه خوفًا ممَّا سيظنُّه الآخرون فينا، أو ربَّما عدمَ استعداد لتذليل أنفُسنا أمام الله والآخرين. وطبعًا أنَّ الناس ذوو أمزجة مختلفة، إنَّما لا ينبغي أن يمنعنا ذلك أبدًا من عبادة الله بكُلِّ كياننا.

أمَّا وقد قلتُ هذا، ينبغي أن أُسارِعَ فأُضيفَ أنَّ الاستجابة البدنيَّة للعبادة يجبُ ألَّا يُستأثرَ بها بأيَّة طريقة كانت. فينبغي أن نُعطيَ بعضُنا بعضًا حرِّيَّةَ الاستجابة لِتحريك الله للقلب. فكم من اختبار عبادةٍ شهدتُه شاهدتُ فيه، في لحظةٍ واحدة بعينها، أشخاصًا جالسين أو واقفين أو راكعين أو منبطحين وروحُ الله يُهَيمن عليهم أجمعين. وكان بعضُهم يُبدون عاطفةً عميقة، وآخرون لا يُظهِرون أيَّة تجلِّيات خارجيَّة من أيِّ نوع، غير أنَّهم كلَّهم حاضرون في كنف روح الله المُحتضِن للجميع. "فاثبتوا إذًا في الحرِّيَّة التي حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة" (غلاطية٥: ١).

ومن الممكن طبعًا أن نفعل جميع الأُمور التي قد ذكرتُها ولا ندخلَ البتَّة إلى رِحاب العبادة، غير أنَّها قد تُيسِّر لنا سُبلًا نضع بها أنفسنا قدَّام الله بحيث يتسنَّى لروحنا الداخليَّة أن تتلقَّى اللمسة الإلهيَّة وتتحرَّر.

خُطوات إلى رِحاب العبادة

إنَّ العبادةَ هي أمرٌ نقوم به. ودراسة لاهوتيَّات العِبادة ومناقشة أشكال العبادة جيِّدتان على السواء، ولكنَّهما في ذاتَيهما غيرُ وافيَتَين. ففي الحصيلة النهائيَّة، نحن نتعلَّم العبادة بالتعبُّد. فَلأُورِدْ بضع خطواتٍ بسيطة أرجو أن تكونَ مُساعِدةً على اختبار العبادة.

أوَّلًا، تعلَّم أن تُمارِسَ حضور الله يوميًّا. حاول بالفعل أن تعمل بكلمات بولس: "صلُّوا بلا انقطاعٍ" (١تس٥: ١٧). رصِّع كلَّ لحظةٍ بهَمسات داخليَّة من التعبُّد والتسبيح والتشكُّر. ولتكُن لك أوقاتٌ شخصيَّة تعكف فيها على التعبُّد القلبيِّ والاعتراف الخاصِّ ودرس الكتاب المقدَّس والإصغاء إلى السيِّد المسيح، مُعلِّمك الحاضر. فمن شأن هذا كُلِّه أن يُرقِّيَ توقُّعَك في العبادة العامَّة، لأنَّ اختبار العبادة الجَماعيَّ يصير مجرَّد إكمالٍ وتكثيف لِما عكفتَ طوال الأُسبوع على محاولة القيام به.

ثانيًا، لتكُن لك عدَّةُ اختباراتٍ في العبادة. تعبَّدْ لله عندما تكون وحدك. وأقِم لقاءاتٍ بيتيَّةً لا تقتصر على درس الكتاب المقدَّس، بل تُعنى باختبار العبادة بحدِّ ذاته. اجمَع حلقاتٍ صغيرةً تضمُّ شخصَين أو ثلاثة، وتعلَّموا أن ترفعوا معًا ذبيحة التسبيح. فإنَّ أُمورًا كثيرة يمكن أن تجريَ في الاجتماعات الصُّغرى ممَّا لا يمكن أن يجريَ في الاختبارات التعبُّديَّة الأوسع نطاقًا، بفضل الحجم فحسْب. ومن شأن جميع اختبارات العبادة الصغيرة هذه أن تَنفَحَ بالقوَّة والتأثير اجتماعاتِ الأحد الكُبرى.

ثالثًا، جِد أشكالًا للاستعداد فعلًا لاختبار العبادة الجَماعيّ. تهيَّأ ليلةَ السَّبت بالإخلاد إلى النَّوم باكرًا، وبإجراء اختبارٍ داخليٍّ من فحص الذات والاعتراف، وبمراجعة الترنيمات والمقاطع الكتابيَّة التي قد تُستخدَم يومَ الأحد. ثُمَّ احضرْ باكرًا قبل خدمة العبادة الفعليَّة، واملإِ القاعة بحضرة الله، من طريق التحرُّر من المشغوليَّات الداخليَّة بحيث يمكنك أن تُشارِك في التعبُّد فعلًا.

رابعًا، ليكُن لديك استعدادٌ للاجتماع بقُدرة الربّ. أعني أنَّ عليَّ، بصفتي فردًا، أن أتعلَّم التخلِّيَ عن أجنْدَتي، عن اهتمامي، عَن حصولي على البركة، عن سماعي كلمةَ الربّ. فلُغة الشَّركة الجَماعيَّة ليست "أنا"، بل "نحن". وهنالك خضوعٌ لِطُرق الله، كما أنَّ هنالك خضوعًا من بعضنا لبعض في إطار الشركة المسيحيَّة. وهنالك اشتياقٌ لأنْ تقوم حياة الله في الجماعة، لا داخلَ الفرد فحسْب. فإن كنتَ مُصلِّيًا لأجل تجلِّي المواهب الروحيَّة، فلا وجوبَ أن يُقبِل ذلك عليك، إذ قد يُقبِل على أيِّ شخص، وعلى الجماعة ككُلٍّ إذا سُرَّ الله بذلك. فَصِرْ مع الجميع بفكرٍ واحد وعلى رأيٍ واحد.

خامسًا، اكتسِبْ وتعهَّد توكُّلًا مقدَّسًا. ومعنى التوكُّل المقدَّس أنَّك مُتوكِّلٌ كلِّيًا وإلى التمام على الله لأجل حدوث أيِّ أمرٍ مهمّ. فهناك جهادٌ داخليٌّ في سبيل إضعاف الشرِّ واستظهار الخير. وأنت تتوقَّع أن يكون الله فاعلًا ومتحرِّكًا ومُتوسِّلًا وكاسبًا. فالعمل عمل الله، لا عملك أنت.

سادسًا، تقبَّلِ المُلهيات برحابة صدر. فإذا حدثت ضجَّة أو إلهاء، فتعلَّمْ أن تستوعب ذلك وتغلبَه. وإذا كان أولادٌ صغار يركضون هنا وهناك، فباركهم. واشكُرِ الله على كونهم أحياءً وعلى كونهم ذوي طاقةٍ أو نشاط. وكُن راغبًا في الاسترخاء بوجود المشغوليَّات...فقد تكون تلك رسالةً من عند الربّ. وأنا شخصيًّا، عندما أكون واعظًا، يروقُني أن يكون في الجماعة أطفالٌ وأولاد، لأنَّهم

يكونون أحيانًا الأشخاص الوحيدين الذين يمكنني أن أتيقَّن بأنَّهم أحياء! فتعلَّمْ أن تتقبَّلَ ببساطةٍ أيَّ شيءٍ يجري في إطار اختبار العبادة الجماعيّ، بدل أن تشعر أنَّ المُلهيات تُعيقك بطريقةٍ ما عنِ التعبُّد لله.

سابعًا، تعلَّم أن تقدِّم ذبيحةَ العبادة. فمِرارًا كثيرة لن "تشعر" بميلٍ إلى العبادة. ولربَّما كانت لك في الماضي اختباراتٌ مُخيِّبة كثيرة حتَّى بتَّ تعتقد أنَّ الأمر لا يكاد يستحقُّ عناءه. ولديك إحساسٌ ضعيفٌ جدًّا بقدرة الله. وقليلون من الناس مستعدُّون استعدادًا وافيًا. إنَّما ينبغي لك أن تمضيَ قُدمًا على كلِّ حال. ينبغي أن تُقدِّم ذبيحة العبادة. ينبغي أن تكون مع شعب الله وتقول: "هؤلاء أُناسي. ومهما كُنَّا على وجه الاحتمال صِلابَ الرِّقاب وقُساةَ القلوب وعُصاةً، فإنَّنا نأتي إلى حضرة الله معًا". وأنا أحيانًا كثيرة لا أشعر بميلٍ إلى العبادة، فأُضطرُّ إلى أن أجثوَ وأقول: "يا ربّ، لا أشعر بميلٍ إلى العبادة، ولكنِّي أرغب في إعطائك هذا الوقت. إنَّه لك. وإنِّي سأبذل هذا الوقت في سبيلك".

وقد قال إسحاق بَننغتون إنَّه حين يجتمع المؤمنون لأجل العبادة الأصيلة "يكونون مثلَ كومةٍ من الجمر الجديد المُشتعل، يُدفِّئ بعضُهم بعضًا، فيما تسري فيهم جميعًا قوَّةٌ وحيويَّة عظيمتان".[11] إنَّ زَندًا من الخشب وحيدًا لا يمكن أن يشتعل وقتًا طويلًا جدًّا، ولكنْ حين توضع عدَّةُ أزنادٍ معًا، فحتَّى لو كانت أزنادًا ضعيفة يمكنُ أن تُوقَد بها نارٌ لا بأس بها. تذكَّرْ مشورةَ سِفر الأمثال ٢٧: ١٧ حيث يقول: "الحديد بالحديد يُحدَّد"، واعلمْ أنَّه حتَّى إنْ كانت حياةُ كلٍّ منَّا فاترةً، فإنَّه يمكن أن يُساعِدَ بعضُها بعضًا إذا كنَّا راغبين في تجريب ذلك.

فامضِ إذًا، حتَّى لو كنتَ لا تشعر بميلٍ إلى ذلك. امضِ، حتَّى لو كانت العبادة غيرَ مُشجِّعةٍ وجافَّةً من قبل. امضِ مصلِّيًا. امضِ متوقِّعًا مترقِّبًا. امضِ منتظرًا أن يقوم الله في وسطكم بعملٍ جديد وحيّ.

ثمار العبادة

كما تبدأ العبادة بترقُّبٍ مقدَّس، كذلك تنتهي بطاعةٍ مقدَّسة. فإن لم تدفعنا العبادة إلى طاعةٍ أعظم، لا تكون عبادة. وأن نمثُلَ في حضرة القدُّوس الأبديِّ معناهُ أن نتغيَّر. فلا يمكن أن تُضمَر الضغائن بالحدَّة نفسها حين نَدخلُ نُورَه الغنيَّ والسخيّ. وكما قال السيِّد المسيح إنَّه ينبغي أن نترك تقدمتنا عند المذبح ونمضيَ كي نُسوِّيَ المسألة (متَّى٥: ٢٣و٢٤). ففي العبادة تشقُّ قوَّةٌ متزايدةٌ طريقَها في الخفاء إلى داخل مَقدِس القلب، وينمو حنانٌ متزايدٌ في النفس. فأنْ نعبد هو أنْ نتغيَّر حقًّا.

إنَّ الطاعة المقدَّسة تُنقذ العبادةَ من أن تصير مُخدِّرًا، مَهْربًا من حاجات الحياة العصريَّة الضاغطة. فإنَّ العبادة تُمكِّننا من أن نسمع الدَّعوة إلى الخدمة بوضوح، ومن ثَمَّ نستجيب قائلين: "هأنذا، أرسِلني!" (إش٦: ٨). والعبادة الأصيلة ستُمكِّننا من الانضمام إلى **الحَمَل** في حربه ضدَّ القوَّات الشيطانيَّة في كلِّ مكان: على الصعيد الشخصيّ، وعلى الصعيد الاجتماعيّ، وعلى الصعيد المؤسَّساتيّ. والمسيح، حَمَلُ الله، هو قائدنا الأعلى. فنحن نتلقَّى أوامره بالخدمة ونمضي "غالبينَ وكي نغلب، بكلمة الحقّ، رادِّين المحبَّة بدل البغضة، مصارعين مع الله ضدَّ العداوة، بصلواتٍ ودموع ليلَ نهار، وبصوم مع نحيبٍ ورثاء، في صبرٍ وأمانة، بالحقّ، في محبَّة بلا رياء، بطولِ أناة، وفي ثَمَرِ **الروح** جميعًا، حتَّى نغلب الشرَّ بالخير بأيَّة طريقة ممكنة".[١٢] وفي جميع الأشياء وبجميع الطرق، نفعل تمامًا ما يقول المسيح، لأنَّ لدينا طاعةً مقدَّسة قد تعهَّدناها على مرِّ سِنِي الاختبار.

لقد صرَّح ولارد سپَري قائلًا "إنَّ العبادة هي مغامرةٌ مقصودةٌ ومنضبطة في نطاق الواقع".[١٣] فهي ليست للجُبَناء ولا لطالبي الراحة. وهي تنطوي على

انفتاحنا إلى حياة **الروح** الغنيَّة بالمُغامرات، وتجعل جميعَ المُمتلَكات الدينيَّة المؤلَّفة من الهياكل والكهنة والشعائر والطقوس أُمورًا لاعَلاقيَّة. إذ إنَّها تشتمل على الرغبة والاستعداد في الاستجابة للوصيَّة القائلة: "لتسكنْ فيكم كلمة المسيح بغنًى، وأنتم بكلِّ حكمة مُعلِّمون ومُنذِرون بعضكم بعضًا، بمزامير وتسابيح وأغانيَّ روحيَّة بنعمةٍ مُترنِّمين في قلوبكم للربّ" (كولوسِّي٣: ١٦).

١٢

انضباطُ الإرشاد

أقيموا في حياة الله ومحبَّته وقدرته وحكمته، مُتَّحدين بعضُكم ببعض وبالله؛ وسيملأ سلامُ الله وحكمته قلوبكم، بحيث لا يسود فيكم إلَّا الحياةُ التي تقوم في الربِّ الإله.

جورج فوكس (George Fox)

إنَّ السماءَ والأرض في أيَّامنا تتوقَّعان بلهفة بُروزَ شعبٍ يقوده الروح القدس ويملأه ويمدُّه بالقوَّة. والخليقة كلُّها تترقَّب برجاءٍ قيامَ شعبٍ منضبط يجتمع بحرِّيَّة وهو مستعدٌّ للاستشهاد، يختبر في هذه الحياة حياة ملكوت الله. لقد حدث هذا من قبل، ويمكن أن يحدث من جديد.

وبالحقيقة أنَّنا، في حركاتٍ تنتشر في العالم كلِّه، بدأنا نشهد الآن انبثاق كنيسة الروح القدس الرسوليَّة. فكثيرون يختبرون اختبارًا عميقًا ووثيقًا عِمَّانوئيلَ الرُّوحِ القدس- الله معنا: معرفةً بأنَّ يسوع قد جاء بقُدرة الروح القدس كي يقود شعبه بنفسه؛ اختبارًا لإرشاده مُحدَّدًا ومؤكَّدًا ومباشرًا كما كانتِ السحابةُ في النَّهار وعمودُ النَّار في الليل.

ولكنَّ معرفة إرشاد الروح القدس المباشر والفعَّال والفوريِّ ليست كافية.

إذ ينبغي أن يُفضيَ الإرشادُ الفرديُّ إلى إرشادٍ جَماعيّ. فلا بدَّ أن يحصل أيضًا اختبارٌ **مشترَكٌ** لإرشاد الروح المباشر والفعَّال والفوريّ. لستُ أقصد "الإرشادَ الجماعيَّ" بمعنًى تنظيميّ، بل بمعنًى عُضويٍّ ووظيفيّ. فالمجالس الكنسيَّة والأحكام الطائفيَّة ليست على هذا الواقع بصراحة.

لطالما كان كثيرٌ من التعليم بشأن الإرشاد الإلهيِّ في القرن العشرين ناقصًا بصورةٍ ملحوظة في ما يتعلَّق بالناحية الجَماعيَّة. فقد تلقَّينا توجيهًا ممتازًا يُبيِّن كيف يُرشِدنا الله من خلال الكلمة المقدَّسة، ومن طريق العقل، وبواسطة الظروف، وبإلهامات الروح القدس في قلب الفرد. وقد توافر أيضًا تعليمٌ جيِّدٌ بشأن وسائل الإرشاد الاستثنائيَّة: الملائكة، الرؤى، الأحلام، الآيات (العلامات)، وغيرها. ولكنْ قلَّما سمعنا عن كيفيَّة إرشاد الله من خلال شعبه، جسد المسيح. ففي ما يتعلَّق بهذا الموضوع، يسود صمتٌ مُطبِق.

لهذا السبب اخترتُ أن أُدرِج الإرشاد بين الانضباطات الجماعيَّة، وأن أُشدِّد على جانبه الجَماعيِّ المشترَك. فإنَّ الله يُرشد الفرد فعلًا بطريقةٍ غنيَّةٍ وعميقة، ولكنَّه أيضًا يُرشِد مجموعاتٍ من الناس، ويمكن أن يُوجِّه الفرد بواسطة اختبار الجماعة*.

وربَّما كان الاهتمام الزائد في ثقافات الغربيِّين حصيلةً لتشديدهم على الفَردانيَّة. أمَّا شعب الله فلم يكونوا دائمًا على هذه الصورة.

لقد أخرج الله بني إسرائيل من العبوديَّة مُرشِدًا إيَّاهم **باعتبارهم** شعبًا. فكلُّ واحدٍ منهم شاهد السحابة وعمود النار. ولم يكونوا مجموعةً من الأفراد الذين اتَّفق أنَّهم سائرون في الاتِّجاه عينه؛ بل كانوا شعبًا تحت حكم الله الثِّيوقراطيّ. وقد نشرَت عليهم حضرتُه المُحتضِنةُ لهم مُباشريَّةً عجيبة. غير أنَّ الشعب سرعانَ ما

* يُعدُّ كتاب دَلَس وِلارد (Dallas Willard) "في البحث عن الإرشاد" (In Search of Guidance) أحدَ أميَز الكتب في موضوع الإرشاد الشخصيّ.

وجدوا حضور الله المباشرَ بلا وسيطٍ أرهبَ من أن يُحتمَل بسبب مجده الفائق، فتوسَّلوا أن "لا يتكلَّمْ معنا الله، لئلَّا نموت" (خروج ٢٠: ١٩). وهكذا صار موسى وسيطَهم. بذلك ابتدأت خدمة الأنبياء العظيمة، وقد كانت وظيفتهم أن يسمعوا كلام الله ويأتوا به إلى الشعب. ومع أنَّ ذلك كان إرشادًا بعيدًا إلى حدٍّ ما عن إرشاد **الروح** الجَماعيّ، فقد ساد شعورٌ بكونهم شعبًا مجموعًا تحت حكم الله. ولكنْ جاء يومٌ فيه رفض بنو إسرائيل حتَّى النبيَّ لمصلحة مَلِك. ومن ذلك الحين فصاعدًا بات النبيُّ غريبًا. فقد كان صوتًا وحيدًا يُطلَق في البرِّيَّة، فيُطاع ذاك الصوت أحيانًا، ويُقتلُ مُطلقُه أحيانًا، ولكنَّه بقي كلَّ حين تقريبًا في الخارج.

ثُمَّ أعدَّ الله بطولِ أناة شعبًا، وفي ملء الزمان جاء السيِّد المسيح. وبمجيئه بزغ فجرُ يوم جديد. فمرَّةً جديدةً بَعد، جُمِعَ شعبٌ يعيش تحت حُكم **الروح** الثيوقراطيِّ المباشر. وبمُثابرةٍ هادئة، بيَّن لهمُ المسيح معنى العيش في تجاوُبٍ مع صوت الآب. كذلك أيضًا علَّمهم أنَّ في وسعهم هم أيضًا أن يسمعوا الصوت المُرسَل من السماء، وعلى النحو الأكثر وضوحًا حين يكونون معًا. "إن اتفق اثنانِ منكم على الأرض في أيِّ شيءٍ يطلبانه، فإنَّه يكون لهما من قِبَل أبي الذي في السَّماوات. لأنَّه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسْمي، فهناك أكون في وسْطِهم" (متَّى ١٨: ١٩و٢٠).

بهذه الكلمات أعطى المسيح تلاميذَهُ توكيدًا وسُلطانًا على السَّواء. فقد اشتملت الكلمات على التوكيد بأنَّه حين يجتمع أشخاصٌ اجتماعًا أصيلًا باسْمه، يمكن أن تُميَّز مشيئتُه. إذ إنَّ الروح القدس المُشرِف سوف يُوظِّف أرصدةَ مختلف المؤمنين ومواردَهم ليضمن أن تكون قلوبُهم في تناغُم مع نبضاتِ قلب الآب، حين تكون موحَّدةً مُتَّحدة. ومتى تيقَّنوا بأنَّهم قد سمعوا صوت **الراعي** الحقيقيِّ، يتمكَّنون من أن يُصلُّوا ويتصرَّفوا بسلطان. فإنَّ مشيئته زائدًا عليها الوِحدة تُساوي السُّلطان.

مع أنَّ الربَّ يسوع كان غريبًا بالنسبة إلى شعبه الخاصّ، وقد صُلِب خارج أبواب المدينة، فإنَّ قومًا قَبِلوا سيادته، وصاروا شعبًا مجموعًا. "وكان لجمهور الذين آمنوا قلبٌ واحد ونفسٌ واحدة، ولم يكن أحدٌ يقول إنَّ شيئًا من أمواله له، بل كان عندهم كلُّ شيءٍ مشترَكًا. وبقوَّةٍ عظيمة، كان الرسل يؤدُّون الشهادة بقيامة الربِّ يسوع" (أع٤: ٣٢و٣٣). فقد صاروا جماعةً ناريَّةً من الشهود، مُعلِنينَ في كلِّ مكان أنَّ صوت المسيح يمكن أن يُسمَع ومشيئته يمكن أن تُطاع.

وربَّما كان حسُّ المؤمنين بالإرشاد الجَماعيّ اللَّمحةَ الأكثرَ إذهالاً بين ملامح هذه الشَّركة المتوهِّجة. وقد توضَّح ذلك على نحوٍ رائع في دعوة بولس وبرنابا ليجوبا طولَ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وعرضَها ناشِرَين بُشرى ملكوت الله (أع١٣: ١-٣). فإنَّ دعوتهما جاءت فيما كان عددٌ من الناس مُجتمِعين معًا مدَّةً طويلة من الزمن. واشتمل اجتماعهُم على ممارسة انضباطات الصلاة والصَّوم والتعبُّد. فإذ صاروا شعبًا مُستعدًّا، برزَت دعوة الله في إطار عبادتهم الجماعيَّة: "أفرِزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتُهما إليه" (أع١٣: ٢).

وبوجودِ جميع أساليبنا الحديثة المتعلِّقة بتطويع المُرسَلين، يمكننا أن نستفيد فعلًا بإيلاءِ مَثَلِ الإرشاد الجماعيِّ ذاك اهتمامًا جدِّيًّا. فإنَّنا نُحسِن نُصحًا إذا شجَّعنا مجموعاتٍ من المؤمنين على أن يصوموا ويُصلُّوا ويتعبَّدوا معًا حتَّى يتسنَّى لهم أن يُميِّزوا فكر الربّ.

وفي ظلِّ الإرشاد الجماعيِّ واجهتِ الكنيسةُ الباكرةُ وسوَّت مشكلتها الأكثر تفجُّرًا (أع١٥). فإنَّ بعضًا من المسيحيِّين العاملين على مسؤوليَّتهم ذهبوا إلى أنطاكية، وباشروا الكرازة بوجوب الختان على جميع المسيحيِّين. وكانتِ المسألة أبعدَ من أن تكون تافهة. وقد رأى بولس أنَّها مُساويةٌ لوقوع الكنيسة في أسْر الحضارة اليهوديَّة.

اجتمع الرُّسل والشُّيوخ المُقامون بسُلطة الربّ، لا لِيُناوِروا حفاظًا على مناصبهم، ولا لِيَقِفوا في جانبٍ ضدَّ آخر، بل ليسمعوا فكر الروح القدس. وما كانت تلك مَهمَّة يسيرة. وقد جرت مباحثةٌ حادَّة. ثُمَّ في مَثَلٍ جميلٍ على كيفيَّة تأثير الإرشاد الفرديِّ في الإرشاد الجماعيّ، تحدَّث بطرس عن اختباره مع قائد المئة الإيطاليِّ كرنيليوس. وبينما بطرس يتكلَّم، عَمِلَ روحُ الله الحاضنُ للمؤمنين في كلِّ حين عملًا عجيبًا. فلمَّا انتهى بطرس، ساد السكوت الجماعةَ كلَّها (أع١٥: ١٢). أخيرًا، توصَّلت الجماعةُ المجتمعةُ إلى ما لا بُدَّ أن ندعوَه التزامًا موحَّدًا مجيدًا مُرسَلًا من السماء لرفض الدِّيانة الحضاريَّة وللتمسُّك بإنجيل يسوع المسيح الأبديّ. وقد خلص المجتمعون إلى القول: "قد رأى الروح القدس ونحن..." (أع١٥: ٢٨). فهُم واجهوا أصعبَ مسألةٍ في أيَّامهم، وميَّزوا الصَّوت الآتيَ من العلاء. هذه هي "العلامة المائيَّة"* العُليا في سفر الأعمال.

وقد كان ذلك أكثر من انتصارٍ يتعلَّق بمسألةٍ ما؛ إذ كان انتصارًا لأُسلوب ينبغي استعمالُه في حلِّ جميع المسائل. فإنَّ المؤمنين، بصفتهم شعبًا، قد قرَّروا أن يعيشوا تحت سيطرة الروح المباشرة. إنَّهم رفضوا الاستبداد البشريَّ والفوضويَّة كليهما. حتَّى إنَّهم رفضوا الديموقراطيَّة، أي حُكم الأكثريَّة. وقد تجرَّأوا أن يعيشوا على أساس حكم الروح؛ لا تصويت الأغلبيَّة (٥١٪)، ولا المُساومات، بَلِ الوحدانيَّة الحاصلة بتوجيهٍ من الروح القدس.

ولا شكَّ في أنَّ هذه الاختبارات المتعلِّقة بتمييز مشيئة الله في الجماعة أسهمت كثيرًا في مفهوم بولس للكنيسة بصفتها جسد السيِّد المسيح. فإنَّه رأى أنَّ مواهب الرُّوح قد أعطاها الروحُ القدس للجسد بطريقة تضمن التوافُق أوِ

* العلامة المائيَّة هي العلامة المطبوعة على العملات الورقيَّة لإثبات صحَّتها وحمايتها من التزوير (الناشر).

الاتِّكال المتبادَل. إذ لم يمتلك أيُّ شخصٍ وحدَه كلَّ شيء. حتَّى إنَّ الأكثر نُضجًا يحتاجون إلى مساعدة الآخرين لهم. فإنَّ لدى الأقلِّ أهمِّيَّةً شيئًا يُسهِمون به. وما كان أيُّ واحدٍ ليسمع مشيئة الله كاملةً بمعزلٍ عنِ الآخرين.

ومن المؤسف أنَّ علينا أن نُلاحظ أنَّه في الزَّمن الذي تلقَّى فيه يوحنَّا رؤياه الأُخرَويَّة، كانت جماعة المؤمنين قد بدأتْ تفتر. حتَّى إذا حلَّ زمن قسطنطين، كانَت الكنيسة على استعداد لقبول مَلِكٍ بَشَريٍّ آخر. غير أنَّ الرؤية الصحيحة لم تَمُت، ولطالما وُجدت على مرِّ القرون جماعاتٌ اجتمعت معًا تحت سيطرة الروح القدس. وها نحن اليومَ قد بدأنا نرى نواةَ تجمُّعٍ من هذا النوع، ولنا أن نشكر الله على ذلك.

بعض النماذج

لم يرتقِ لفيفُ الرُّسل من المُستوى "صِفر" إلى الأعالي الشاهقة في سيطرة الروح القدس بقفزةٍ واحدة. ولَن يتأتَّى لنا نحنُ أن نُخالِفَهم. فإنَّهم في أغلب الأحوال انتقلوا إلى ذلك المجال خُطوة فخطوة، متقدِّمين قليلًا تارةً، ومُتراجعين طَورًا. ولكنْ لمَّا حلَّ يومُ الخمسين، كانوا شعبًا مُستعدًّا.

وما إن نفهم المضامين الثَّوريَّة لكوننا شعبًا تحت إدارة الروح القدس المُباشرة، حتَّى يكونَ واحدًا من أشدِّ الأمور ضررًا أن نقول: "يبدو الأمر رائعًا. ابتداءً من الغد، سأعيشُ على هذا النحو!" ومن شأن حماسةٍ مفرطةٍ كهذه أن تنجح فقط في جَعْلِ الحياة بائسةً لَنا ولكلِّ مَن حولنا. وهكذا، فبدلًا من الانطلاق حالًا لإخضاع عالَم الروح، يحتاج مُعظَمُنا للبدء بخطواتٍ أكثرَ اتِّضاعًا. ومن أفضل الطُّرق للتعلُّم أن نسير على خُطى نماذجَ من الناس جاهدوا جَماعيًّا لسماع الصوت الآتي من العَلاء.

ولنا واحدٌ من أكثر الأمثلة إبهاجًا في "راهبِ أسِّيزي الصغير الفقير"

القدِّيس فرنسيس. فيبدو أنَّ فرنسيس الأسِّيزيِّ قاسى "جحيمًا من الشكِّ" بشأن هذا الأمر: أينبغي أن يتكرَّس فقط للصلاة والتأمُّل والتعبُّد، الأمرُ الذي كان ممارسةً شائعةً في تلك الأيَّام، أم ينبغي له أيضًا أن ينخرط في خدماتٍ كرازة؟ وبحكمةٍ التمسَ فرنسيس المشورة. "فبما أنَّ التواضُع المقدَّس الذي كان فيه لم يسمح له أن يثق بنفسه وبصلواته الشخصيَّة، توجَّه باتِّضاعٍ إلى الآخرين لكي يعرف مشيئة الله في هذا الأمر".

بعث فرنسيس برسالتَين إلى اثنين من أصدقائه الأكثر موثوقيَّةً، الأُخت كلير والأخ سِلفَستر، طالبًا إليهما أن يلتقيا واحدًا من "أطهرِ رُفقائهما وأكثرِهم روحانيَّة" ويلتمسا مشيئة الله في الأمر. وفي الحال، عُقد اجتماعًا صلاةٍ صغيران، ثُمَّ ردَّ الأخ سِلفَستر والأُخت كلير كِلاهما الجواب عينه.

ولمَّا عاد المبعوث، غسل له القدِّيس فرنسيس أوَّلًا رِجلَيه وأعدَّ له طعامًا. ثُمَّ جثا قدَّام المبعوث وسأله: "ماذا يأمرُني ربِّي يسوع بأن أفعل؟" فردَّ المبعوث بأنَّ السيِّد المسيح قد أعلن أنَّه "يُريد لك أن تجول في العالمَ مُبشِّرًا، لأنَّ الله دعاك ليس لأجل نفسك وحدها بل لأجل خلاص الآخرين أيضًا". وإذ تلقَّى فرنسيس الرسالة بوصفها كلمة السيِّد المسيح الجليَّة، هبَّ واقفًا وقال: "فَلْنذهَبْ إذًا، باسْم الربِّ يسوع!" وعلى الأثر انطلق حالًا في جولةِ كرازة. وقد أعطى ذلك التوجيهُ الحركة الفرنسيسكانيَّة الباكرة مزيجًا غير مُعتادٍ من التأمُّل الزُّهديِّ والحماسة التبشيريَّة.[1]

وفي ذلك الاختبار، كان فرنسيس يقوم بما يتخطَّى التماس النُّصح لدى مُشيرَين حكيمَين. إنَّه كان يلتمس سبيلًا إلى فَتْح نوافذ السماء لكشف فكر السيِّد المسيح، وقَبِلَ الأمر باعتباره كذلك... ممَّا عاد بالخير العميم على كُلِّ مَن خدمهم.

ويمكننا أن نجد نموذجًا آخر للإرشاد في ما دعاه بعضُهم "اجتماعات استيضاح". ويُدعى إلى اجتماعاتٍ من هذا النَّوع لالتماس فِكر الرُّوح القدس بشأن استفسار فردٍ من الأفراد. فذاتَ مرَّةٍ التمس شابٌّ مشورتي بخصوص مستقبله. كان قد تخرَّج في إحدى الجامعات وهو في صراعٍ مع قرارٍ لا بدَّ من أن يُقرِّره: أينطلق إلى الخدمة الراعويَّة أم لا؟ وكان قد أفاد من جميع ما تَوافرَ من اختبارات الدَّعوة ومُقرَّرات الإرشاد، وما زال بحاجةٍ لأنْ يُقرِّر قراره. ولأنِّي بصراحةٍ لم أدرِ ما هو الأفضلُ له، اقترحتُ عليه أن يدعو إلى اجتماعِ استيضاح. ومن ثَمَّ جمع بعض الأشخاص الذين يعرفونه جيِّدًا، ولديهم نضجٌ روحيّ، ولا يخشَون أن يكونوا صادقين وصُرَحاءَ معه. تلك الليلة، لم يُعطَ صديقي أيَّةَ رؤًى تُزلزِل الأرض، ولكنْ إذ تعبَّدت تلك المجموعة الصغيرة وتشاركت صارت حلقةَ مُساندةٍ ومُساعَدةٍ له. وفي غضون مدَّةٍ من الزَّمن، تثبَّتت مواهبُ ذلك الشابِّ ودعوتُه؛ وها هو اليوم في حقل الخدمة الراعويَّة.

كذلك أيضًا كانت "كنيسة المخلِّص" في واشنطُن العاصمة رائدةً في مفهوم قريبٍ جدًّا من هذا. فإذا شعر أيُّ عضوٍ، رجُلًا كان أو امرأة، بأنَّ الله قد دعاه إلى تأسيس فريقٍ إرساليٍّ معيَّن، أو المُغامَرة في ميدان خدمةٍ خاصّ، "يُعلِن الدَّعوة". ويتمُّ ذلك في ختام إحدى خدمات العبادة، حين يُطلع العضوُ الجميعَ على الرؤية التي يشعر بها. وفي أعقاب ذلك، يُرحَّب بكلِّ مَن يرغَب بإقامة اجتماعٍ مع الشخص المَعنيِّ لكي "تُمتحَن الدَّعوة". إذ ينظر أُولئك معًا في الأمر، مُصلِّين ومُستفسرين وفاحصين. فيسود أحيانًا شعورٌ بأنَّ الفكرة كانت بِنتَ حماسةٍ زائفة، ثُمَّ يتمُّ التخلِّي عنها. وأحيانًا تتأيَّد الفكرة بصلوات المجموعة وتفاعُلِها. وربَّما اجتذبَت الدَّعوةُ آخرين مِمَّن في الغرفة فجعلوها دعوتهم أيضًا. وهكذا يتكوَّن "فريقٌ من المُلتزِمين". ثُمَّ إنَّ شؤونًا ذاتَ أهمِّيَّةٍ شخصيَّة قُصوى يمكن أن يؤتى بها إلى جماعة المؤمنين لأجل التمييز. ففي إحدى المناسبات مثلًا، تقدَّم شخصان

إلى جماعتنا قائلَين إنَّهما شعرا بأنَّ الربَّ يُرشِدُهما إلى الزَّواج بِبعضهما، ورغبا في الحصول على تثبيت الفكرة من قِبَل مجموعةٍ خاضعةٍ لإرشاد الروح القدس. وعليه، طُلِب إلى بضعة أشخاصٍ يعرفون الثُّنائيَّ جيِّدًا أن يجتمعوا معهما. وهاك التقرير الذي رفعوه (وقد أذنَ لي المَعنيَّان باستخدامه):

"إنَّ اللجنة الخاصَّة المُعيَّنة للتواصُل مع مارْك وبَكِي بشأن نيَّتهما أن يتزوَّجا يُسعِدها أن تردَّ تقريرًا إيجابيًّا جدًّا.

اجتمعنا مع مارْك وبَكِي وقضينا أُمسيةَ شَرِكةٍ وصلاةٍ من أمتع ما يكون. وقد تشاركنا في اهتمامنا بقُدسيَّة العائلة التي هي قلبُ خُطَّة الله من جهة العلاقات البشريَّة. وكان لنا انطِباعٌ حسنٌ من جهة اتِّكال مارْك وبَكِي على إرشاد الربّ، وتوقُّعِهما للمشاكل الممكنة، وإدراكهما الناضج أنَّ الزواج الناجح يتوقَّف على دوام الالتزام من أحدهما تُجاه الآخر ومن كِلَيهما تُجاهَ الربّ.

يُسعِدنا أن نعهد بنيَّةِ مارْك وبَكِي إلى الكنيسة. ونرى أنَّ بيتهما سيعكس تأثير الصلاة والمحبَّة الذي كان لبَيتَي طفولتها ولجماعة المؤمنين إذ يوحِّدان حُبَّهما في تلك العلاقة المباركة التي رتَّبها الله.

إنَّ اللَّجنة تشعر بعاطفة خيِّرةٍ خاصَّة تُجاه مارْك وبَكِي نتوقَّع أن تستمرَّ في علاقةٍ راعويَّة. ونحن نوصي الثُّنائيَّات الأُخرى ممَّن يُفكِّرون في الزواج بأن ينسجوا على منوال هذه السابقة".

ومن الممكن أيضًا أن تُقرَّر قراراتُ العَمَل في ظلِّ إحساسٍ بإرشاد الروح القُدس الجَماعيّ. فما يزال الصاحِبيُّون (الكويكرز) يفعلون ذلك على مدى سنين طويلة، وقد تبيَّنوا سهولةَ مُقارَبةٍ كهذه. إذ ينبغي أن يُنظَر إلى اجتماعات العمل كما لو كانت خِدماتِ عبادة. ويُمكِن أن تُعرَضَ وتُبحَثَ الوقائعُ المتوافرة كلُّها مع نشدان الإصغاء إلى صوت المسيح. فليست الوقائع سوى ناحيةٍ واحدةٍ

من عمليَّة اتِّخاذ القرار، وليست حاسمةً بحدِّ ذاتها. إذ يمكن أن يُرشِد **الروح** بعكس الوقائع المتوافرة أو وَفقًا لها. فإنَّ الله سيغرس روحَ وحدانيَّةٍ عندما يُختارُ السبيلُ الصحيح، ويُزعِجنا بعدم الاستراحة عندما تُخطئُ الاستماع. فالوحدانيَّة، لا حُكم الأكثريَّة، هو المبدأ السليم بشأن الإرشاد الجماعيّ. وإجماعُ الرأي الصادرُ من **الرُّوح** يتخطَّى مجرَّد الاتِّفاق. إنَّهُ أن نُدرِك أنَّنا قد سمعنا "**قُول يهوه**"، أي صوتَ الربّ.

وقد حصل مَثَلٌ رفيعُ الطِّراز ودراماتيٌّ عام ١٧٥٨. فإنَّ جون وُلمان وآخرين نخسوا ضمير جمعيَّة الفرنْدز (الصاحبيِّين أو الكويكرز) بخصوص التورُّط في مؤسَّسة الاستعباد الشيطانيَّة. ولمَّا التأمَ اجتماعُ فيلادلفيا السنويُّ (Philadelphia Yearly Meeting) للنظر في شؤون العمل تلك السنة، كانت مسألة العُبوديَّة بندًا رئيسيًّا في جدول الأعمال. وقد كانت أُمورٌ كثيرةٌ على المحكّ، وجرت مناقشةُ المسألة بحرارةٍ وحِدَّة. وظلَّ جون وُلمان، وهو حاني الرأسِ والدُّموعُ تترقرق في عينَيه، جالسًا في صمتٍ مُطبِق طِوال جلسات المناقشة كلِّها. أخيرًا، بعد ساعاتٍ من الصلاة المقترنة بالمُعاناة، وقف وتكلَّم. "إنَّ ذهني مُقادٌ إلى التفكُّر في طهارة **الكائن الإلهيِّ** وعدالة دينونته، وهنا يستولي على نفسي الرُّعبُ والرَّهبة. إنَّ كثيرين من العبيد في هذه القارَّة مُضطَهدون، وصراخُهم قد دخل أُذنَي العليّ. فَلَيس الآن وقتًا للتأخير". ثُمَّ بِحَزم ورقَّةٍ تطرَّق وُلمان إلى "مصالح بعض الأشخاص الخاصَّة" و"الصَّداقات التي لا تقوم على أساسٍ راسخ". وبجُرأة نبويَّة نبَّه الاجتماعَ السنويَّ إلى أنَّه إن أخفق في القيام "بواجبه بحزمٍ وثبات" فإنَّ الله عندئذٍ "قد يستجيبُنا بمخاوفَ في العدل بشأن هذه المسألة".[٢]

إذ ذاك انصهر الاجتماعُ السنويُّ بكامله في روح وحدانيَّةٍ من جرَّاء هذه الشهادة المُفعمة بالحَنان. واستجاب الحضورُ بصوتٍ واحد لإزالة العبوديَّة من وسطهم. وقد ذكر جون غرينليف وتيَر (John Greenleaf Whittier) أنَّ تلك الجلسات

"يجب أن تُعَدَّ دائمًا أبدًا واحدًا من أهمِّ المجامع الدينيَّة في التاريخ المسيحيّ".[٣]

ويُضفَى على ذلك القرار الموحَّد تأثيرُه المُميَّز إذا علمنا أنَّ جمعيَّة الفرنْدز كانتِ الهيئة الوحيدة التي طالبت مالكي الرقيق بأن يعوِّضوا العبيد عن زمانِ عبوديَّتهم.* ومن المؤثِّر جدًّا أيضًا أن نُدرك أنَّ الصاحبيِّين، بحَثٍّ من **الروح**، وقد فعلوا طوعيًّا أمرًا لم يكُن راغبًا في فِعْلِه أيُّ واحد من القادة الثوريِّين المُناهضين للعبوديَّة: جورج واشنطُن وثوماس جفرسُن وباتريك هنري. وقد كان القرار الموحَّد الذي صدر عام ١٧٥٨ فعَّالًا جدًّا بحيثُ إنَّ الصاحبيِّين، عند توقيع **بيان الاستقلال**، كانوا قد حرَّروا أنفسهم إلى التَّمام من مؤسَّسة العبوديَّة.

إنَّ عددًا كبيرًا من الجماعات المسيحيَّة الناشئة حول العالَم قد اكتشف واقعيَّةَ قرارات العمل بموجب حُكم **الروح** وصِفَتِها العمليَّة البارزة. فإنَّ مجموعاتٍ شتَّى، مِثلَ أخويَّة ريبا پلايْس (Reba Place Fellowship) في إيلينُوي، وجمعيَّة الإخوة (Society of Brothers) في نيويورك، ومُنظَّمة أخوات مريم (Mary Sisterhood) في دارمْشتادْت بألمانيا، تنشط كلُّها على أساس الوحدانيَّة التي يُرشِد إليها **الرُّوح**. إذ تُقارَبُ المسائل بيقينٍ من جهة كونِ فِكرِ الرُّوح ممكنًا أن يُعرَف. فالمَعنيُّون يجتمعون باسْم السيِّد المسيح، واثقين بأنَّ مشيئته ستَتضح جليًّا في وسطهم. وهم لا يطلبون المُساوَمة، بَلِ الإجماعَ الذي يُعطيه الله.

وقد حضرتُ مرَّةً جلسةَ عملٍ ضمَّت نحو مئتَي شخص، نُوقِشَت فيها إحدى المسائل مناقشةً جادَّة. وعلى الرُّغم من الاختلاف الحادِّ في الرأي، كان كلُّ واحدٍ من الأعضاء راغبًا بإخلاص في سماع مشيئة الله وإطاعتها. وبعد مدَّة من الوقت لا بأسَ بها، بدأ شعورٌ مُوحَّدٌ بالإرشاد يبرز بين الجميع ما عدا أشخاصًا

* ليس من أرقام دقيقةٍ عنِ المبالغ التي دُفعت، وإن كان شائعًا أن تُدفع الأُجرة السنويَّة في ذلك الزَّمن. وفي التماسٍ قُدِّم إلى مجلس العموم لإلغاء العبوديَّة، ذكر شخصٌ اسمُه ف. بوستُن أنَّ الأمر كلَّف صاحبيِّي ولاية كارولَينا الشماليَّة خمسين ألف ليرة إنكليزيَّة لتحرير عبيدهم.

أقلّاء. أخيرًا وقف أحدُهم وقال: "لستُ أشعر بالراحة حيالَ مجرى العملِ هذا، ولكنّي أرجو أن يحبّني الباقون منكم حُبًّا كافيًا حتّى يتكوّن لديَّ ما لدى أكثرِكُم من شعورٍ أكيد بإرشاد الله، أو حتّى يفتحَ لنا الله سبيلًا آخر".

وبصفتي مُراقِبًا من الخارج، تأثّرتُ بمدى الرِّقة التي تجاوبَتْ بها الجماعة مع تلك المُناشَدة. ففي جميع أنحاء القاعة، بدأتْ مجموعاتٌ صغيرةٌ تجتمع للتّشارُك والإصغاء والصلاة. حتّى إذا حان وقتُ وصولِ الجميع إلى قرارٍ موحَّد، كنتُ قد ازددتُ تقديرًا بالغًا جدًّا للطريقة التي ينبغي بها للمؤمنين بالسيِّد المسيح أن يحفظوا "وحدانيَّة الروح برباط السَّلام" (أفسُس٤: ٣). حقًّا إنَّ تعبيراتٍ من هذا النَّوع عنِ الوظيفة المركزيَّة للإرشاد الجماعيِّ هي من جُملة العلامات الأكثر صِحَّةً على الحيويَّة الروحيَّة اليوم.

المُرشِد الروحيُّ

لم يُحاوِل حتّى أعظمُ القدِّيسين في القرون الوسطى سَبْرَ أغوار الرِّحلة الداخليَّة بغير مُساعَدةِ مُرشِدٍ روحيّ. واليومَ لا يكاد هذا المفهومُ يُدرَك، ناهيك بمُمارسَته، إلّا في نظام الرَّهبنة الكاثوليكيّ. إنَّما هذه مأساة، لأنَّ فكرة المُرشِد الروحيِّ ممكنة التطبيق إلى أقصى حدٍّ في المشهد المُعاصر. وهي تعبيرٌ جميل عنِ الإرشاد الإلهيِّ من خلال مساعدة إخوتنا وأخواتنا لنا.

إنَّ للمُرشِديَّة الروحيَّة تاريخًا نموذجيًّا. فكثيرون من المُرشِدين الروحيِّين الأوَّلين كانوا من آباء الصَّحراء، وقد خُصُّوا باعتبارٍ رفيع بالنظر إلى قدرتهم على "تمييز الأرواح". وغالبًا ما كان الناس يُسافِرون عشراتِ الكيلومترات في الصَّحراء ليسمعوا فقط نصيحةً وجيزة، "كلمة خلاص"، لخَّصت مشيئة الله وحُكمَه في وضعهم الفعليِّ الملموس. وتُعَدُّ **الأبوفْثيغماتا** (Apophthegmata) أو

"أقوال الآباء" شهادةً بليغةً لبساطة هذا الإرشاد الروحيِّ وعُمقِه. ثُمَّ إنَّ كثيرين من الإخوة البَنَدكتيِّين العَلمانيِّين في إنكلترا إبَّان القرن الثاني عشر تميَّزوا بقدرتهم على القراءة وإرشاد النفوس.

ما غرض المرشد الروحيّ؟ كتب المُتصوِّفُ البَنَدكتيُّ الذي عاش في القرن السابع عشر، دُم أُغسطين بايكَر: "بكلمةٍ موجزة، ما هو إلَّا دليلُ الله، وعليه أن يَهديَ النفوس في طريق الله، لا في طريقه الشخصيّ".[٤] فإنَّ إرشاده هو، ببساطةٍ ووضوح، أن يقودنا إلى **مُرشدنا** الحقيقيّ. إنَّه وسيلةُ الله لتمهيد السبيل لتعليم **الروح القدس** الداخليّ.

فوظيفةُ المرشد الروحيِّ هي تأثيريَّةٌ صِرف على نحوٍ واضحٍ وبسيط. إذ إنَّه يقود فقط بقوَّة قداسته الشخصيَّة الخاصَّة. فهو ليس رئيسًا أو مرجعيَّةً اكليركيًّا. والعلاقةُ علاقةُ ناصِحٍ بصديق. فمع أنَّ المرشد قد تقدَّم على نحوٍ واضحٍ تقدُّمًا أعمقَ في الأغوار الداخليَّة، فالاثنان يتعلَّمان وينموان في عالَم الروح.

وهذا الحديث كلُّه عن "النفس" و"الجسد" قد يُفضي بنا لأن نحسب أنَّ الإرشاد الروحيَّ يتناول فقط زاويةً أو مقصورةً صغيرةً من حياتنا. أعني أنَّنا نذهب إلى مُرشِدٍ روحيٍّ كي يعتنيَ بأرواحنا مثلما نذهب إلى طبيبِ عيون كي يعتنيَ بعيوننا. ولكنَّ مُقاربةً من هذا النوع خاطئة. إذ إنَّ الإرشاد الروحيَّ معنيٌّ بكامل الشخص وبالعلاقة المُتبادَلة في الحياة كلِّها. وقد حكى توماس مِرتُن عن مُرشِدٍ روحيٍّ روسيٍّ انتُقِد على قضائه وقتًا طويلًا جدًّا في نُصح فلَّاحة عجوز بشأن الاعتناء بديوكها الروميَّة، فأجاب: "لا بأس في هذا أبدًا. إنَّ **حياتها بكاملها** تكمن في تلك الديوك الروميَّة".[٥] فالإرشاد الروحيُّ يتناول اختباراتِ حياتِنا اليوميَّة الملموسةَ ويُضفي عليها أهمِّيَّةً تقديسيَّة. إذ نتعلَّم "سرَّ اللحظةِ الحاضرة المُقدَّس" على حدِّ تعبير جون پيير الكوساديّ.[٦] "فإذا كنتم تأكلون أو تشربون،

أو تفعلون شيئًا، فافعلوا كلَّ شيءٍ لمجد الله" (١كورنثوس١٠: ٣١).

إنَّ الإرشاد الروحيَّ ينشأ أوَّلًا من العلاقات البشريَّة الطبيعيَّة التلقائيَّة. فوجودُ نظام هَرَميّ، أو حتَّى مؤسَّسيّ، ليس جوهريًّا لاشتغاله، وغالبًا ما يكون مُدمِّرًا له. إذ إنَّ أنواعَ الاعتناءِ والمشاركةِ المعتادةَ التي تخصُّ الجماعة المسيحيَّة هي نُقطة الانطلاق في سبيل الإرشاد الروحيّ. فمِن هذه لا بُدَّ أن تنشأ "سُلطة ملكوت" من طريق الخضوع والخادميَّة المُتبادَلين.

ولا بدَّ أن يكون المرشد الروحيُّ شخصًا اكتسب قبولًا واثقًا لِذاته. أعني أنَّ نضجًا أصيلًا يجب أن يُخيِّم على حياة ذلك الشخص بمُجمَلها. وأشخاصٌ من هذا النوع لا تُزعزعهُم تقلُّبات الأزمنة. وفي وسعهم أن يَتَقَصَّوا ويُحوِّلوا ما ينتشر حواليهم من أنانيَّة وجودةٍ متوسِّطة وفتور. إنَّهم لا يُنَصِّبون أنفسهم حكَّامًا ولا يتزحزحون. ويجب أن يكون لديهم حنانٌ والتزام. وعلى غرار بولس الذي فكَّر في تيموثاوس كما لو كان وَلَدَهُ الحبيب، عليهم أن يكونوا على استعدادٍ لتولِّي بعض المسؤوليَّات الأبويَّة. وينبغي أن تكون محبَّتهم شديدةً وصُلبةً ترفض الاستسلام لكلِّ نَزوةٍ عابرة. كما ينبغي لهم أيضًا أن يعرفوا عن النَّفس البشريَّة ما يكفي حتَّى لا يُعزِّزوا الحاجاتِ الصِّبيانيَّةَ وغير الواعية، الداعيةَ إلى الاستبداد.

ويجب أن يكون المُرشِدون الروحيُّون أنفسُهم قائمين بالرِّحلة الداخليَّة وراغبين في إطْلاع الغير على صراعاتهم وشكوكهم الشخصيَّة. وينبغي أن يحوزوا إدراكَ أنَّهم معًا يتعلَّمون من الربِّ يسوع، مُعلِّمِهم الحاضر دائمًا أبدًا.

كيف تحصل علاقةٌ كهذه؟ مثلَ سائر الأُمور في ملكوت الله، تُرتَّبُ بالصلاة. فإذ نأتي بدعْوانا إلى الله ونُودِعُها في يده، ننتظر بصبرٍ أن يُعلِن لنا طريقه. وإذا دعانا لأن نُكلِّمَ أحدًا ونُجريَ بعض التَّرتيبات، نُطيع بطيبِ خاطر. ومن الممكن أن تكون علاقاتٌ كهذه رسميَّةً كما هي الحال في بعض الرهبانيَّات. إلَّا أنَّ ذلك ليس

أمرًا واجبًا. فإنْ حُزْنا الاتِّضاعَ الذي يجعلنا نثق بأنَّنا نستطيع التعلُّم من إخوتنا وأخواتنا؛ واليقينَ بأنَّ بعضهم قد توغَّلوا في **المركز** الإلهيِّ أكثر من سواهم، فعندئذٍ يمكننا أن نرى ضرورة الإرشاد الروحيّ. وكما قال ڤرجيل ڤوغت الذي من أخويَّة ريبا پلايْس: "إذا كنتَ لا تستطيع أن تُصغيَ إلى أخيك، فإنَّك لا تستطيع أن تُصغيَ إلى الروح القدس".[٧]

ومن المُفيد أيضًا أن نَعِيَ وجودَ أشكالٍ شتَّى من الإرشاد الروحيّ. فالوعظ هو شكلٌ من الإرشاد الروحيّ، شأنُه شأنُ خدمة الكثير من المجموعات الصغيرة. وقد أسَّس جون وسلي "اجتماعات غُرَف الدِّراسة" و"الفِرَق" كجُزءٍ من الإرشاد الروحيّ. والكتاب المقدَّس نفسُه يؤدِّي وظيفةَ الإرشاد الروحيّ؛ لأنَّنا إذ نقرأُه بروح الصلاة نتشكَّل أكثرَ فأكثر بحسب صورة السيِّد المسيح.

وفي سياق التأمُّل بقيمة هذه الخدمة بالنِّسبة إلى أجيالٍ كثيرة من المسيحيِّين، يقول ثوماس مرتُن إنَّ المُرشد الروحيَّ كان شبهَ "أبٍ روحيٍّ **أنجبَ** الحياة السامية في نفس تلميذه، بتوجيهاته أوَّلًا، ولكنْ أيضًا بصلاته وقداسته وقُدوته. إنَّه- أي المرشد- كان نوعًا من **السرِّ المقدَّس** في ما يتعلَّق بحضور الربِّ في الجماعة الكنسيَّة".[٨]

حدود الإرشاد الجماعيّ

كما نعلم، تكمن أخطارٌ في الإرشاد الجماعيِّ، وأيضًا في الإرشاد الفرديّ. وربَّما كان الخطر الأكثر تهديدًا هو الاستغلال والسيطرة من قِبَل القادة. فإن لَم يُجرَ الإرشادُ الجماعيُّ داخلَ إطار النِّعمة الشاملة الأوسع، ينكفئ ليصيرَ طريقةً فعَّالة لتقويم السلوك المُنحرف. إذ يغدو صيغةً شبهَ سحريَّة يستطيع القادة بواسطتها أن يفرضوا إرادتهم على الأفراد، نظامًا مُرخَّصًا به من طريقه يُمكِن أن يؤتى بجميع الآراء المختلفة إلى خطٍّ واحد.

ومن شأن هذا المنحى الاستغلاليِّ غير السَّويِّ أن يؤدِّيَ إلى إخماد الحيويَّة الناشطة. إنَّما يقول لنا النبيُّ إشعياء إنَّ المسيح الآتي "قصبةً مرضوضةً لا يقصف وفتيلةً خامدةً لا يُطفئ" (إش٤٢: ٣؛ مت١٢: ٢٠). فليست طريقة السيِّد المسيح أن يسحقَ الشخص الأضعف، ولا أن يُخمِدَ الأمل الأوهى. إنَّما ينبغي أن يكون الرِّفقُ تُجاه كلِّ وضع بمُفرده رائدَنا في جميع مُداولاتِنا. وفي إحدى المُناسَبات، كان جورج فُوكس يُجادلُ شخصًا اسمُه نَثنائيل ستيفنز، وقد تفوَّق عليه تمامًا. وإذ شعر ستيفنز أنَّه قد غُلب، صرَّح قائلًا: "لقد أقبل فوكس إلى نور الشمس، وهو الآن ينوي أن يُطفئ ضوء النُّجوم الذي لديَّ". إلَّا أنَّ فوكس كتب هذا: "ولكنَّني قلت: يا نثنائيل، هاتِ يدَك! ثُمَّ قلتُ له إنَّني لن أُخمِد أدنى قسطٍ من عند الله لدى أيِّ إنسان، وبالأحرى كثيرًا لَن أُطفئ ضوء النجوم الذي لديه".[٩]

إنَّما ثَمَّة أيضًا خطرٌ في الاتِّجاه المعاكس. فمن الممكن لقومٍ قُساة القلوب وصِلاب الرِّقاب أن يُعوِّقوا القادة الخاضعين لإرشاد الروح القدس. وبينما يحتاج القادة إلى مشورة جماعة المؤمنين وتمييزها، يحتاجون أيضًا إلى الحرِّيَّة كي يُحسِنوا القيادة. فإن كان الله قد دعاهم لأنْ يقودوا، فلا ينبغي أن يُضطرُّوا لأنْ يأتوا بكلِّ تفاصيل الحياة إلى الجماعة. ولا ينبغي أبدًا أن تُغرِينا مُثُلُ الديموقراطيَّة الغربيَّة بأن نعتقد أنَّه لا بُدَّ أن يكون لكلِّ شخص صوتٌ مُتكافئ بخصوص كلِّ شأنٍ يسير في حياة الجماعة. فإنَّ الله يُقيم قيادةً مُخوَّلةً في كنيسة حتَّى يُتاحَ لعمله أن يُنجَز على الأرض.

هذا، ويتمثَّل خطرٌ آخر في أن يغدوَ الإرشاد الجماعيُّ مفصولًا عن معايير الكتاب المقدَّس. فالكلمة المقدَّسة يجب أن تسودَ وتتخلَّل كلَّ تفكيرنا وتصرُّفنا. **والروح** الواحد لن يقود البتَّة بالتعارُض مع **الكلمة** المكتوبة التي أوحى بها. فيجب أن تتوافرَ دائمًا سُلطةُ **الكلمة** الخارجيَّةُ وسُلطة **الروح القدس** الداخليَّة

كلتاهما. وبالحقيقة أنَّ الكلمة المقدَّسة بحدِّ ذاتها هي صورةٌ للإرشاد الجماعيّ. فهي طريقةٌ يتكلَّم بها الله من خلال اختبار شعب الله. وهي جانبٌ من جوانب "شركة القدِّيسين".

أخيرًا، علينا أن نَعِيَ أنَّ الإرشاد الجماعيَّ تَحدُّه محدوديَّتنا. فنحن كائناتٌ بشريَّةٌ غير معصومة، وثَمَّة أوقاتٌ- رُغمَ جهودنا الفُضلى- تَحولُ فيها تحيُّزاتنا ومخاوفُنا دون بلوغنا الوحدانيَّةَ الناتجة من قيادة الروح القدس. وبعضَ الأحيان نرى الأُمور فقط بطريقةٍ مختلفة. فبولس وبرنابا مثلًا لم يستطيعا الاتِّفاق على اصطحاب يوحنَّا مرقس أو عَدَمه في سَفرتِهما التبشيريَّة الثانية. ويقول لوقا إنَّ "مُشاجرةً" حصلت بينهما بخصوص ذلك (أعمال١٥: ٣٩). فلا ينبغي أن نُفاجأ إذا جرى لنا الاختبارُ عينُه في مجهودات خدمتنا.

وإذا حصل ذلك، فنصيحتي أن نكون لُطَفاء بعضُنا نحو بعض. فإنَّ أفرقةَ الخدمة ينفصل بعضُها عن بعضٍ فعلًا بعضَ الأحيان، والكنائس تنشقُّ فعلًا بعضَ الأحيان. إنَّما لنقُم بكلِّ ما نستطيع لجَعْل أيِّ انفصال من هذا القبيل سَلسًا وحسنًا بقدر الإمكان. وَلْنُصلِّ بعضُنا لأجل بعض ونطلُبْ بعضُنا بركةَ الله على بعض. ولتكُن لدينا ثقة الرسول بولس إذ قال: "على كلِّ وجه، سواءٌ كان بِعلَّةٍ أم بحقّ، يُنادى بالمسيح؛ وبهذا أنا أفرح" (في١: ١٨).

يقول دَلَس ولارد: "إنَّ هدف الله في التاريخ هو خَلْقُ جماعةٍ كلِّيَّةِ الشمول من الأشخاص المُحبِّين، حيث يكون هو نفسُه وسطَ تلك الجماعة بصفتِه مُعينَها ومُعيلَها الرئيسَ وأمجدَ مُقيمٍ فيها".[١٠] وجماعةٌ كهذه تعيش تحت سيطرة الروح القدس المباشرة والشاملة. إنَّها تضمُّ شعبًا، أعمى بهاءُ الله عيونَهم عن كُلِّ ولاءٍ لِسواه، وهي جماعةٌ مُشتركةٌ مُتراحِمة تُجسِّد شريعة المحبَّة كما تُرى في يسوع المسيح. وأفرادها جيشٌ طائعٌ لحمل الله يعيشون في ظلِّ الانضباطات

الروحيَّة، جماعةٌ قيدَ التغيُّر الكلِّيِّ من الداخل فخارجًا، شعبٌ عاقِدُ العزمِ على أن يعيش عمليًّا مطالب الإنجيل في عالمٍ دُنيويّ. وهم هجوميُّون برِفق، أقوياءُ بوداعةٍ وحِلْم، مُعانون للآلام وغالبون. فجماعةٌ كهذه، صُبَّت في قالبٍ نادرٍ ورسوليّ، تُكوِّن محفلًا جديدًا يضمُّ شعب الله. عسى أن يستمرَّ الله في جمع شعبٍ كهذا في أيَّامنا!

١٣

انضباطُ الاحتفال

ينبغي أن يكون المؤمنُ بالمسيح متهلِّلًا من قمَّة الرأس حتَّى أخمصِ القدم!

القدِّيس أُغسطينوس (Augustine of Hippo)

يكمن الاحتفالُ في صُلبِ طريق السيِّد المسيح. فقد دخل العالَمَ بنغمة ابتهاجٍ مرتفعة، إذ هتف الملاك: "ها أنا أُبشِّركم بفرحٍ عظيم يكون لجميع الشَّعب" (لوقا٢: ١٠). وغادر العالَمَ تاركًا فرحَهُ لدى تلاميذه: "كلَّمتُكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويُكمَل فرحكم" (يوحنَّا١٥: ١١).

ثُمَّ إنَّ أندريه تروكمه (Andre Trocme) في "يسوعُ وثورة اللاعنف" (Jesus-Christ et la revolution non-violente) وجون هَوارد يُودَر (John Howard Yoder) بعدَه في "سياسةُ يسوع" (The Politics of Jesus) يذهبان إلى حدٍ يُبيِّنان فيه أنَّ السيِّد المسيح باشر خدمته العلنيَّة بإعلان سنة اليوبيل (لو٤: ١٨و١٩). فالمضامينُ الاجتماعيَّة التي يشتمل عليها هذا المفهوم عميقةُ الأغوار.* ويُعادِل هذا تأثيرًا أن ندرك أنَّنا، نتيجةً لذلك، مدعوُّون إلى يوبيلٍ دائمٍ خاصٍّ **بالروح**. فإنَّ ذلك التحرُّر

* كتب يوهانس هُويكنديك: "اليوبيل هو خُروجٌ مُعبَّرٌ عنه تعبيرًا مُبينًا بلغة الخلاص الاجتماعيّ" ("الرسالة- احتفالٌ بالحرِّيَّة" فصليَّة الاتِّحاد السَّمينارِيَّة، يناير (كانون الأوَّل) ١٩٦٦، ص١٤١).

الجذريَّ، الحاصلَ بقوَّة إلهيَّة، من الممتلكات، وذلك التشكيل الجديد للترتيبات الاجتماعيَّة، لا يمكن إلَّا أن يأتيا بالفرح والابتهاج. وعندما يَتلقَّى الفقراء البشارة، ويُطلَق الأسرى أحرارًا، ويَنال العُميان البصر، ويُحرَّر المسحوقون، فمن يستطيع عندئذٍ أن يحبس هتافَ الابتهاج؟

في العهد القديم، كانت جميعُ البنود الاجتماعيَّة المشروطة في سنة اليوبيل- من إلغاءٍ للديون وإعتاقٍ للعبيد وإراحةٍ للأرض وإعادة للأملاك إلى مالكها الأصليّ- احتفالًا بإمدادات الله الكريمة. إذ كان ميسورًا الاتِّكالُ على الله لتوفير ما تدعو إليه الحاجة، وهو قد صرَّح قائلًا: "إنِّي آمُر ببرَكتي لكم" (لاويِّين٢٥: ٢١). وبالحقيقة أنَّ التحرُّر من القلق والهمِّ يُشكِّل أساسَ الاحتفال. فلأنَّنا نعلم أنَّه هو يعتني بنا، يمكننا أن نُلقيَ كلَّ همِّنا عليه. وقد حوَّل الله نَوْحَنا إلى رقص. إنَّ روح الاحتفال البهيج الخاليةَ من الهمِّ والغمِّ غائبةٌ عن المجتمع المعاصر. واللامُبالاة، بل الكآبة، تُسيطر على هذا الزمان. وقد قال هارڤي كُوكْس إنَّ الإنسان الحديث "قد ضُغط ضغطًا شديدًا جدًّا باتِّجاه العمل النافع والحساب العقلانيِّ حتَّى نسيَ تقريبًا فرح الاحتفال الموصِل إلى النشوة..."[١].

الاحتفال يُعطي الحياةَ قوَّة

إنَّ الاحتفال يأتي بالفرح إلى الحياة، والفرح يُقوِّينا. فالكتاب المقدَّس يقول لنا إنَّ فرح الربِّ هو قوَّتنا (نحميا ٨: ١٠). ولا يمكننا أن نستمرَّ طويلًا في أيِّ شيءٍ بغير الفرح. فالنِّساء يتحمَّلن عناء الحَمْل والولادة لأنَّ فرح الأُمومة قائمٌ في الجانب الآخر. والزوجان الشابَّان يُجاهِدان على مدى سِنِي التكيُّف الأُولى الصَّعبة لأنَّهما يُثمِّنان ضمانَ حياةٍ طويلةٍ معًا. والوالدان يصمدان بثباتٍ في أثناء سِنِي المراهقة، عارفَين أنَّ أولادهما سيَخرجون من الناحية الأُخرى بَشَرًا من جديد.

وقد نتمكَّن من مُباشرة تعلُّم التَّنس أو دروس البيانو بحافزٍ من الإرادة، إلَّا أنَّنا لن نعكف على ذلك طويلًا بغير الفرح. وبالحقيقة أنَّ السبب الوحيد الذي يُمكِّننا من المباشرة هو كونُنا نعلم أنَّ الفرح هو الحصيلة النهائيَّة. ذلك هو ما يدعم جميع المبتدئين، إذ يعلمون أنَّ في إتقانِ الأمور شعورًا بالابتهاج والاستمتاع والفرح.

إنَّ الاحتفال جوهريٌّ بالنسبة إلى جميع الانضباطات الروحيَّة. فبغير روح ابتهاجٍ فَرِحة، تصير الانضباطات أدواتٍ كليلةً نافثةً للموت بأيدي الفرِّيسيِّين العصريِّين. وينبغي أن يتميَّز كلُّ انضباطٍ بِفرحٍ يخلو من الهمِّ والغمِّ وشعورٍ بالشُّكران والامتنان.

والفرح جزءٌ من ثمر الروح (غلاطيَّة٥: ٢٢). وغالبًا ما أميلُ إلى التفكير في الفرح باعتباره المُحرِّك- الشيءَ الذي يُبقي كلَّ شيءٍ سواه شغَّالًا. فبغير احتفالٍ بهيجٍ يبثُّ الحياة في سائر الانضباطات، نُقلع عنها جميعًا عاجلًا أو آجلًا. إنَّما الفرح يُنتِج طاقة. إنَّه يجعلنا أقوياء.

وقديمًا أوصى الله بني إسرائيل أن يجتمعوا معًا ثلاث مرَّاتٍ في السنة للاحتفال بصَلاح الله وجوده. وقد كانت تلك أعيادَ ابتهاجٍ بالمعنى الأعلى، كما كانت اختباراتٍ آتَتِ الشعبَ القديم قوَّةً وتماسُكًا.

السبيل إلى الفرح

في الحياة الروحيَّة، أمرٌ واحدٌ فقط يُنتِج فرحًا أصيلًا، ألا وهو الطاعة. والترنيمة القديمة تقول لنا إنَّه ليس من سبيلٍ إلى الفرح بالسيِّد المسيح سوى "الثقة والطاعة". وقد استلهم ناظم الترنيمة **السيِّدَ** نفسه، إذ إنَّ الربَّ يسوع يقول لنا إنَّه ما من غبطةٍ تعادل غبطةَ الطاعة. ففي إحدى المناسبات، خاطبَت امرأةٌ من الجمع يسوع رافعةً صوتها تقول: "طوبى للبطن الذي حملك، والثَّديين اللذين

رضِعتهما!" فردَّ يسوع قائلًا: "بل طوبى للذين يسمعون كلامَ الله ويحفظونه!" (لوقا١١: ٢٧ و٢٨). فأنْ يعيش المرءُ طائعًا لله أمرٌ أكثرُ مُبارَكيَّةً من كون مريم العذراء أُمًّا للسيِّد المسيح!

عامَ ١٨٧٠ كتبت حَنة وتول سميث (Hannah Whitall Smith) كتابًا أصبح أثَرًا كلاسيكيًّا عنِ المسيحيَّة الفَرِحة: سرُّ المسيحيِّ لحياةٍ سعيدة (The Christian's Secret of Happy Life). ولا يكاد العنوان يُلمِّح إلى الأغوار التي يشتمل عليها ذلك الكتابُ الحافل بالتبصُّر. فهو ليس مُجرَّدَ سردٍ سطحيٍّ "لأربع خطواتٍ سهلةٍ تؤدِّي إلى العيشة الناجحة". إذ إنَّ الكاتبة تُحدِّد، بجدٍّ وجهد لافتَين، شكلَ حياةٍ غنيَّةٍ وفيَّاضةٍ مخبوءةٍ في الله. ثُمَّ تكشف بتدقيقٍ المصاعبَ التي تعترض هذا السبيل، وأخيرًا تُبيِّن نتائجَ تسليم الحياة بجملتها لله. فما سرُّ المسيحيِّ لحياةٍ سعيدة؟ إنَّه يُلخَّص على أفضل نحوٍ في الفصل المُعَنوَن "فرح الطاعة". فالفرح يأتي بواسطة إطاعة المؤمن للسيِّد المسيح، والفرح ينتج من إطاعة المؤمن للسيِّد المسيح. وبغير الطاعة، يكون الفرح خاويًا ومُصطنَعًا.

في سبيلِ إحداث الاحتفال الأصيل، يجب أن تتداخل الطاعة في نسيج حياتنا اليوميَّة المألوف. وبغير ذلك، يكون لاحتفالنا وَقعٌ أجوف. فبعض الناس مثلًا يعيشون بطريقةٍ يستحيلُ معها أن يحضرَ في بيوتهم أيُّ نوعٍ من السعادة، إلَّا أنَّهم بعد ذلك يذهبون إلى الكنيسة حيث يُرتِّلون ويُصلُّون "**بالرُّوح**"، على أمل أن يُعطيَهم الله، بطريقةٍ من الطُّرق، شحنةً من الفرح كي يعيشوا يومهم بصورةٍ سَلِسة. وهم يرتقبون نوعًا من الإمداد السماويِّ يتخطَّى بؤس حياتهم اليوميَّة ويُعطيهم فرحًا. غير أنَّ رغبة الله هي أن يُحوِّل البؤس، لا أن يتخطَّاه.

ينبغي أن ندرك أنَّ الله يُعطينا بالفعل شحنةً من الفرح بعضَ الأحيان، ولو في مرارتنا وقساوة قلوبنا. غير أنَّ ذلك هو الوضعُ غير السَّويّ. فوسيلة الله

السَّويَّة للإتيان بفرحه هي بأن يفتديَ ويُقدِّس أوصالَ الحياةِ البشريَّةِ المألوفةَ. وحين يكون أفرادُ العائلة مُتلئين بالمحبَّة والحنان، وبروحِ خدمةٍ بعضًا لبعض، فإنَّ لدى تلك العائلة سببًا وجيهًا للاحتفال.

ثمَّة شيءٌ يدعو إلى الرِّثاء في الأشخاص الذين يركضون من كنيسةٍ إلى أُخرى مُحاولين أن يحصلوا على حَقنةٍ من "فرح الربّ". فليس الفرح كامنًا في إنشاد نوعٍ معيَّن من الموسيقى، ولا في وجود المرء وسط جماعةٍ صحيحةِ النَّوع، ولا حتَّى في ممارسة مواهب **الرُّوح** الكاريزماتيَّة، مهما كانت هذه المواهب جيِّدة. إنَّما الفرح يكمن في الطاعة. فحين تصل القوَّة التي في يسوع إلى داخل أعمالنا وألعابنا وتفتديهنَّ، سيكون فرحٌ حيث كان نَوحٌ مِن قبل. وأن نتغاضى عن هذا هو أن يفوتنا معنى التجسُّد.

لهذا وضعتُ الاحتفال في آخِر هذه الدراسة. فالفرح هو الحصيلة النهائيَّة لنشاط الانضباطات الروحيَّة في حياتنا. إذا إنَّ الله يُتمِّمُ تغيير حياتنا بواسطة الانضباطات، ونحن لن نختبر الفرح الأصيلَ حتَّى يجريَ عملٌ تغييريٌّ في داخلنا. إنَّما كثيرون يحاولون بُلوغَ رِحابِ الفَرَح بصورة غاية في السرعة. وغالبًا ما نحاول أن نضخَّ الفرح إلى قلوب الناس حين لا يكون شيءٌ بالحقيقة قد حدث في حياتهم. فالله لم يخترقِ الاختبارات الروتينيَّة في وجودهم اليوميّ. والاحتفال يأتي حين تُفتدى مساعي الحياة المعتادة.

ومن المهمِّ أن نتجنَّب نوع الاحتفالات التي تحتفل بلا شيء حقًّا. وأسوأُ من هذا بَعدُ أن نتظاهر بأنَّنا نحتفل وروحُ الاحتفال ليس فينا. فأولادُنا يشاهدوننا نُبارِكُ الطَّعام، وسرعانَ ما ننتقل إلى ذَمِّه: مُبارَكة لا تعترف بالبَرَكة! ومن الأشياء التي تكاد تُدمِّر الأولاد أن يُضطرُّوا لأنْ يكونون شاكرين فيما هم ليسوا شاكرين. فإن تظاهرنا بسيماءِ احتِفال، نضع روحنا الداخليَّة في موقعِ تناقُض.

ثمَّة تعليمٌ شائعٌ اليوم يُوصينا بأن نحمد الله على مختلف الصِّعاب التي تأتي إلى حياتنا، مؤكِّدًا أنَّ في حمدِ الله على هذا النحو قوَّةً مُغيِّرةً كبيرة. فهذا التعليم، بشكله الأفضل، طريقةٌ لتشجيعنا على النَّظر إلى ظهر الطريق بعَيْن الإيمان لنَستجليَ ما سوف يكون. وهو يُرسِّخ في قلوبنا اليقينَ البهيج بأنَّ الله يأخذ جميع الأشياء ويُجريها لخير الذين يحبُّونه. ولكنَّ هذا التعليم، بشكله الأسوأ، ينكر رداءةَ الشرِّ ويصبغ أشدَّ المآسي هولًا بصبغة مشيئة الله. إنَّما الكتاب المقدَّس يُوصينا بأن نعيش بروحِ شكرٍ في وسط جميع الظروف؛ ولكنَّه لا يوصينا بأن نحتفل بوجود الشرّ.

روح الاحتفال بعيدًا عن الهمّ

يدعونا الرسول بولس أن "افرحوا في الربِّ كلَّ حين"، مُضيفًا: "وأقول أيضًا: افرحوا" (في٤: ٤). ولكنْ كيف لنا أن نفعل ذلك؟ يُردِف بولس: "لا تهتمُّوا بشيء"، (أو لا يكن لديكم هَمٌّ أو قلق بشأن أيِّ شيء). هذا هو الجانب السلبيُّ من الابتهاج. أمَّا الجانب الإيجابيُّ فهو: "في كلِّ شيء، بالصلاة والدُّعاء مع الشُّكر، لتُعلَمْ طلباتكم لدى الله!" والنتيجة؟ "سلام الله الذي يفوق كلَّ عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع" (في٤: ٦و٧).

إنَّ بولس يُوجِّهنا كيف يمكننا أن نفرح كلَّ حين، ونصيحتُه الأُولى هي" لا تهتمُّوا بشيء". والسيِّد المسيح طبعًا يُقدِّم النَّصيحة عينَها حينَ يقول: "لا تهتمُّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون" (متَّى٦: ٢٥). وفي كِلتا الحالتَين يُستعمَل الفعل عينُه في النَّهي عنِ الهَمِّ أو القلق. فالمؤمنون بالسيِّد المسيح مدعوُّون لأن يكونوا خِلوًا من الهمّ، إذ يقول الكتاب: "لا تهتمُّوا..." ولكنَّنا نجد طريقةً كهذه غريبةً علينا. فقد دُرِّبنا منذُ كُنَّا في السنة الثانية من العمر على أن نكون مُنتبِهين ومُهتمِّين. ونحن نصرخ لأولادنا فيما يركضون إلى حافلة

المدرسة: "انتبهوا! انتبهوا!" ومُرادُنا أن يكونوا حَذرين ومتنبِّهين.

فَرُوحُ الاحتفال لن تكونَ فينا ما لم نتعلَّمْ أوَّلًا كيف نكون غير مهتمِّين "بشيء". ولن تكون لنا أبدًا لامبالاةٌ بالأشياء خاليةٌ من الهَمِّ قبل أن نتوكَّل على الله واثقين. لهذا السبب كان اليوبيل احتفالًا مُهمًّا جدًّا في العهد القديم. فما كان أحدٌ يجرؤ على الاحتفال باليوبيل إلَّا إذا كانت له ثقةٌ راسخةٌ بقدرة الله على سداد احتياجاته.

وحين نتوكَّل على الله واثقين، يكونُ لنا ملء الحرِّيَّة كي نعتمد عليه من جهة تلبية ما نحتاج إليه: "بالصلاة والدُّعاء مع الشُّكر، لتُعلَم طِلباتكم لدى الله". فالصلاة هي الوسيلة التي بها نُحرِّك ذراع الله؛ ومن هُنا يُمكِننا أن نعيش في روح احتفالٍ خاليةٍ من الهمِّ والغَمّ.

غير أنَّ بولس لا يُنهي المسألة هنا. فالصلاة والتوكُّل بحدِّ ذاتهما لا يكفيان للإتيان بالفرح إلينا. إذ يمضي بولس ليُوصيَنا بأنْ نُوجِّه أفكارنا صوبَ كلِّ شيءٍ في الحياة يتَّصف بأنَّه حقٌّ وجليلٌ وعادلٌ وطاهرٌ ومُسِرٌّ وصِيتُه حَسَن (في ٤: ٨). فإنَّ الله قد أقام نظامًا مخلوقًا ثابتًا مليئًا بالأشياء المُمتازة والصَّالحة، والنتيجةُ المُترتِّبة على ذلك بصورةٍ طبيعيَّة أنَّنا فيما نهتمُّ بهذه الأشياء نكون سُعَداء. ذلك هو السبيلُ الذي عيَّنه الله إلى الفرح. فإن حَسِبنا أنَّنا سنحوزُ الفرح فقط بالصلاة وترتيل المزامير، نكون مُتوهِّمين. ولكنْ إذا ملأنا حياتنا بالأُمور الخيِّرة البسيطة، وشكرنا الله عليها كلَّ حين، فإنَّنا سنكون فَرِحين، بل بالفرح ممتلئين. ثُمَّ ماذا بشأن المشاكل؟ عندما نعقدُ العزم على مُلازمة الأُمور الصالحة والفاضلة في الحياة، فإنَّنا سنكون مُمتلئين تمامًا بهذه الأُمور بحيثُ تميلُ إلى ابتلاع مشاكلنا.

إنَّما التصميم على توجيه الذِّهن نحو أُمور الحياة الأسمى هو فِعلُ إرادة. لهذا السبب يُعدُّ الاحتفال انضباطًا. فهو ليس شيئًا يقع على رؤوسنا صِدفةً،

بل هو نتيجةُ طريقةٍ في التفكير والحياة نختارها بوَعي. وحين نختار هذه الطريقة، يقتحم الشِّفاءُ والفداءُ في السيِّد المسيح أغوارَ حياتِنا وعلاقاتِنا الداخليَّة، فتكون النتيجة الحتميَّة هي الفَرَح.

فوائدُ الاحتفال

فائدةُ الاحتفال الأهمُّ بما لا يُقاس هي أنَّه يُنقذنا من أَخْذِ أنفسنا على محمل الجِدِّ فوقَ الحَدّ. وهذه نعمةٌ يحتاج إليها احتياجًا ماسًّا جميعُ المتحمِّسين بشأن الانضباطات الروحيَّة. فمن "أخطار المِهنة" لدى الأتقياء أو المتديِّنين أن يَغدُوا مُضجِرين خالين من الطَّرافة. ولكن لا ينبغي أن تكون الحال على هذا المنوال. إذ ينبغي لنا، دون الناس جميعًا، أن نكون الأكثر حرِّيَّةً وحيويَّةً وجاذبيَّة. فالاحتفال يُضفي على حياتنا مسحةَ بشرٍ وفَرَحٍ ومَرَح. وبَعد، فإنَّ المسيح كان مبتهجًا جدًّا بالحياة حتَّى اتُّهِم بأنَّه أكول وشِرِّيب خمر. إنَّما كثيرون منَّا يعيشون حياةَ تَجهُّمٍ ونَكَدٍ إلى حدٍّ لا يُبقي أيَّ إمكانٍ بأن نُتَّهم بأمورٍ من هذا القبيل.

والآن، لستُ أُوصي بلهوٍ أو قصفٍ دَوريٍّ في الخطيَّة، بل أرتئي أنَّنا بحاجةٍ إلى اختبارات ابتهاج أكثر عُمقًا وطَبَعيَّة. فمن عوامل الشِّفاء والإنعاش أن نكتسبَ ونتعهَّدَ تقديرًا للحياة واسعًا. وقد تتعب أرواحنا من إجهاد أنفُسِنا في طلب الله، كما قد تتعب أجسامُنا من إرهاقها بالعمل. فالاحتفال يساعدنا على الاسترخاء والتمتُّع بخيرات الحياة.

وقد يكون الاحتفال أيضًا تِرياقًا ناجعًا لذلك الشعور الدوريِّ بالحزن الذي يمكن أن يقبض الصَّدر ويُضايق القلب. فالاكتئاب داءٌ شائعٌ اليوم، والاحتفال قد يُساعِد على الحدِّ من طُموِّه. وفي فصلٍ عُنوانه "مَعوناتٌ في الأحزان"، يُشير فُرنسوَا فَنيلون على الرازحين تحت أثقال الحياة بأن يُشجِّعوا

أنفسهم "بالمحادثة العذبة، بل أيضًا بالتسلية والترفيه".[٢]

هذا، وتكمن فائدةٌ أُخرى للاحتفال في قدرته على تزويدنا بمنظورٍ سليم. ففي وسعنا أن نضحك على أنفُسنا. إذ نغدو مُدركينَ أنَّ القضايا التي نُناصِرها ليست على وجه التقريب جليلةً كما قد يَروقُنا أن نعتقد. وفي الاحتفال، يستعيد الرُّفَعاءُ والأقوياءُ اتِّزانهم، ويكتسب الضُّعفاءُ والوُضَعاء قامةً جديدة. فَمَن يمكن أن يكون عاليًا أو دُونًا في احتفالات الله؟ إنَّ الأغنياء والفقراء معًا، والأقوياء والضُّعفاء جميعًا، يحتفلون كلُّهم بمجد الله وروعته. فلا شيءَ مثلَ التَّعييد يُقيم المساواة بين الطَّبقات المنغلقة.

وإذ نتحرَّر هكذا من نظرتنا المُضخَّمة إلى أهمِّيَّتنا الذاتيَّة، نتحرَّر أيضًا من الروح المُنتقدة الساعية إلى الحُكم على الآخرين. فإذا بالآخرين لا يَبدون مُروِّعين جدًّا وغير روحيِّين جدًّا. ويكون ممكنًا أن نُشارِك في الأفراح المشتركة بغير أحكامٍ على القيمة مُتظاهِرةٍ بالتقوى.

أخيرًا، يتميَّز الاحتفال بخَصيصةٍ لافتة تتمثَّل في كونه يُفضي إلى مزيدٍ من الاحتفال. فالفرح يُولِّد الفرح. والضَّحِك يُولِّد الضَّحِك. فهذا واحدٌ من الأشياء القليلة في الحياة تلك التي نُضاعفها من طريق العطاء. وقد قال كيركيغارد "إنَّ الدُّعابة تنطوي دائمًا على دُعابةٍ مُضاعَفة".[٣]

ممارسة الاحتفال

إذا كان الاحتفال انضباطًا جَماعيًّا بالدرجة الأُولى، وإذا كان مفيدًا جدًّا لشعب الله، فكيف يُمارَس؟ هذا سؤالٌ جيِّد، لأنَّ رجالَ هذا العصرِ ونساءَهُ قد أصبحوا مُمكَنِينَ جدًّا بحيثُ إنَّنا قد أخمدنا تقريبًا جميع اختبارات الفرح العَفْويّ. فمعظم اختباراتنا الاحتفاليَّة مُصطَنَعةٌ ومُرمَّمة.

مِن طُرقِ ممارسةِ الاحتفالِ استخدامُ الغناء والرَّقص والهُتاف. فبفضلِ صلاح الله، ينطلق القلبُ بالمزامير والتسابيح والأغاني الروحيَّة إذ يَفيض السجود والتسبيح والتعبُّد من مَخادعِ النَّفس الداخليَّة. وفي المزمور المئة والخمسين نرى احتفال شعب الله على إيقاع البُوق والرَّباب والعُود، والدُّفِّ والرَّقص، والأوتار والمزمار، وصُنوج التَّصويت والهُتاف.

ماذا يفعل الصِّغار حين يحتفلون؟ إنَّهم يُصدِرون كثيرًا من التَّصويت والضَّجيج. وليس التصويتُ خطأً حين يكون وقتهُ مُناسبًا، كما أنْ ليس السُّكوتُ خطأً حين يكون وقته مُناسبًا. والأولاد يرقصون عَفْويًّا حين يحتفلون. ولمَّا انتُشل بنو إسرائيل من استبداد فرعون بفضل قدرة الله الجبَّارة، تقدَّمت مريم النبيَّةُ الشعبَ كلَّه في رقص احتفاليٍّ عظيم (خر١٥: ٢٠). وقد مضى داود يطفر ويرقص بكلِّ قوَّته أمام الربّ (٢صم٦: ١٤، ١٦). ولطالما كان الرَّقص الشعبيُّ ناقلًا للقِيَم الحضاريَّة، وقد استُخدِم تكرارًا في الاحتفال الأصيل. لا شكَّ أنَّه قد يكون للرقص تجلِّياتٌ رديئة وشرِّيرة، ولكنَّ تلك مسألةٌ أُخرى مختلفة كلِّيًّا.

ليس الغناء والرَّقص والتَّصويت أشكالًا من الاحتفال مُوصًى بها. فهي مجرَّد أمثلة تُرسِّخ لدينا الانطباع بأنَّ للربِّ الأرضَ وملأها حقًّا. وعلى غرار بطرس، ينبغي أن نتعلَّم أنَّه لا شيءَ ممَّا يأتي من يد الله الكريمة دَنِسٌ أو نَجِسٌ بطبيعته (أع١٠). فنحن أحرارٌ لأنْ نحتفل بِصلاح الله وجُوده بكلِّ جزءٍ من كياننا!

ومن الطُّرق الأُخرى لمُمارسة الاحتفال: الضَّحك. فَللقول المأثور القديم "الضَّحكُ خيرُ دواء" كثيرٌ ممَّا يدعمُه. وفي الواقع أنَّ نورمان كَزِنز (Norman Cousins)، في كتابه "تشريحُ مَرَض" (Anatomy of an Illness)، يستعرض كيف استخدم علاج الضَّحك لمُساعدته على قهر مرضٍ أقعدَه. ففي سريره بالمستشفى شاهد أفلامَ "الإخوة ماركس" القديمة وعُروضَ "الكاميرا الخفيَّة"، وبدا أنَّ

الضَّحك العميق الصحيح الذي اختبره كان ذا فائدة تخديريَّة وآتاه نومًا خلوًا من الألَم. حتَّى إنَّ الأطبَّاء أثبتوا تأثيرَ الضَّحكِ الصحِّيَّ في كيمياء جسمه.

لمَ لا؟ فإنَّ السيِّد المسيح كان لديه شيءٌ من الظَّرف- وبعضُ أمثاله تنطوي على دُعابة واضحة. بل إنَّ هنالك أيضًا ما وُصف بأنَّه "ضحكٌ مُقدَّس"، وهو ظاهرةٌ تكرَّرت في حركاتِ انتعاشٍ شتَّى. ومع أنِّي لم اختبرِ الضَّحكَ المُقدَّس شخصيًّا، فقد شاهدته لدى آخرين، وتبدو تأثيراته مُفيدةً بجُملتها. ولكنْ سواءٌ أَخصَّنا الله بهذه النعمة أم لا، نستطيع جميعُنا أن نختبر أوقاتِ ضَحكٍ سليم.

إذًا أطلِقِ التهكُّمَ على نفسك، واستمتع بالنُّكات البريئة والتَّوريات اللطيفة. تذوَّقِ الكوميديا الجيِّدة. تعلَّم أن تضحك؛ إنَّه انضباط ينبغي أن يُتقَن. اطرحْ عنك ذلك العِبءَ الدهريَّ الذي يَضطرُّك أن تبدوَ رصينًا ورزينًا دائمًا أبدًا.

طريقةٌ ثالثة للتشجيع على الاحتفال هي التنبيه على مواهب التخيُّل الخلَّاقة. وقد لاحظ هارڤي كُوكْس أنَّ "مَلكاتِ الإنسان الاحتفاليَّةَ والخياليَّة قد ضمرت".[٤] وكتب في موضعٍ آخر: "مضى زمانٌ فيه كان الحلَّامون يَطوَّبون، والمتصوِّفون يَحظَون بالإعجاب. فهؤلاء الآن يُدرَسُون، ويَحظَون بابتسامةٍ عابرة، بل أيضًا يُحاكَمون. وعلى الجُملة، يُنظَر إلى التخيُّل في زماننا نظرةَ ارتياب".[٥]

إنَّما في وُسعنا، نحنُ أتباعَ السيِّد المسيح، أن نُغامرَ بالجري ضدَّ التيَّار الثقافيّ. فلنُقدِّرْ بحماسة ألعاب الأطفال الخياليَّة. ولنرَ رؤًى، ونحلمْ أحلامًا. لنلعبْ ونُغنِّ ونضحك. فالخيال قد يُطلِقُ سيلًا من الأفكار المُبتكَرة، وقد يأتي بكثيرٍ من الفرح والمرح. وأُولئك الذين هم غيرُ مُطمئنِّين من جهة نُضجهم الشخصيِّ وحدَهم يخشون شكلًا مُبهِجًا كهذا من أشكال الاحتفال.

ولنَستمتعْ أيضًا بإبداع الآخرين. فأُولئك الذين يُبدِعون المنحوتات واللَّوحات والمَسرحيَّات والموسيقى هُم هِبَةٌ عظيمةٌ لنا. وفي وسعنا أن نُرتِّب

معارضَ فنيَّةً لعرض أعمالهم، ولنا أن نُرتِّل موسيقاهُم في اجتماعات خاصَّة أو حفلات موسيقيَّة رسميَّة. ولنا أن نُيسِّرَ عروضًا لمسرحيَّات ألَّفها أحدُ أصدقائنا. ورُبَّما أقمنا معرضًا فنيًّا عائليًّا تُبرَزُ فيه رُسومٌ للصغار قدَّموها في المدرسة. لِمَ لا؟ إنَّها متعةٌ عظيمة، مُعزِّزةٌ لروح الجماعة ووِحدتها.

أمرٌ آخر يمكننا أن نفعله هو أن نجعل الأحداث العائليَّة أوقاتَ احتفالٍ وشكران. وهذا صحيحٌ لا سيَّما بالنسبة إلى مختلف شعائر الانتقال في الحضارة الحديثة، كأعياد المولد، وحفلات التخرُّج، والزِّيجات، والأعياد السنويَّة. وأعرف زوجَين يغرسان شجرةً لكلِّ ذكرى سنويَّة لزواجهما. وفي حقلهما الآن غابةٌ صغيرة فيها نحو أربعين شجرة تؤدِّي شهادةً صامتةً لحبِّهما ووفائهما.

ويمكننا أيضًا أن نحتفل بأحداثٍ أندَر، لكنْ مُساوِية في الأهمِّيَّة، مثل إنجاز مشروعٍ كبير، أو تأمين عَمَل، أو تَلقِّي ترقية أو علاوة. فضلًا عن ذلك، لماذا لا تُقام ترتيباتُ احتفالٍ دوريَّةٌ غيرُ مرتبطة بأحداثٍ خاصَّة. فاقْضُوا وقتًا أطول حول البيانو كعائلة ورنِّموا أو تعلَّموا الرقصاتِ الشعبيَّةَ في حضاراتٍ شتَّى، وتمتَّعوا بها معًا. وخصِّصوا أوقاتًا دوريَّةً لممارسة بعض الألعاب، أو مشاهدة بعض الأفلام، أو قراءة بعض الكتب، وذلك كلُّه معًا. وحوِّلوا الزيارات للأقرباء إلى احتفالاتٍ بعلاقاتكُم. وإنِّي على يقينٍ بأنَّ في وسعكم أن تطلعوا بأفكارٍ عديدةٍ أُخرى تخصُّ عائلتكم وحدَها.

أمرٌ خامسٌ يمكننا أن نفعله هو أن ننتهز أعياد حضارتنا ونحتفل احتفالًا حقيقيًّا. فأيُّ احتفالٍ عظيم يمكن أن نُحييَه بمناسبة عيد الميلاد! ولا داعيَ لأنْ يتَّصف بتلك المادِّيَّة الشديدة المُضافةِ عليه عادةً، إن لم نُردهُ نحنُ كذلك. طبعًا، إنَّ إهداء الهدايا أمرٌ رائع، ولكنَّ في وسعنا أن نقدِّم أنواعًا شتَّى من الهدايا. فمنذُ بضعِ سنين، كان ابنُنا الصغير ناثان يتعلَّم عزف البيانو، فقدَّم لكلِّ فردٍ من

العائلة هديَّةً خاصَّة، إذ عزف له ترنيمةً يحبُّها. وقد أمضى وقتًا مُمتعًا جدًّا وهو يلفُّ عُلَبَ هدايا كبيرة، محاولًا أن يدفع كلَّ فرد لأنْ يحزر ما هي هديَّتُه. ثُمَّ لمَّا فتحوا هداياهم، وجدوا بطاقةً تقول إنَّه سيعزف لهم على البيانو مقطوعةً صغيرة. وكم كان ذلك مُبهجًا وممتعًا حقًّا!

وماذا نقول في عيد الفصح؟ لننسَ الاستعراض الربيعيَّ الطِّراز، ونحتفلْ بقوَّة القيامة. ولنُقِم تمثيليَّاتٍ فصحيَّةً عائليَّة. ولنُحْيِ الاحتفال بأوَّلِ أيَّار (مايو)، بأن نذهب فنلتقطَ بعض الأزهار ونقدِّمها إلى الجيران أو الأصدقاء. ولنبتهِجْ بجمال الألوان وتنوُّعِها. ولماذا نجعل الاحتفال بعشيَّة عيد جميع القدِّيسين (هالُوين) عيدًا وثنيًّا لتخليد قوَّات الظُّلمة؟ فَلْنملأ بيتنا أو كنيستنا بالأنوار، ولنُرنِّمْ مُحتفِلين بانتصار السيِّد المسيح على الظُّلمة! وليلبَسِ الأولاد (والكبار) أزياءً تُمثِّل بعض شخصيَّات الكتاب المقدَّس أو بعض القدِّيسين على مرِّ العصور.

كان يُقام في القرون الوسطى عيدٌ يُدعى "عيد الحَمقى".[٦] وقد كان وقتًا فيه يُباحُ الضَّحكُ على جميع "الأبقار المقدَّسة"* في ذلك الزمانِ والاستهزاءُ بها. فالاكليركيُّون الصِّغار قلَّدوا رؤساءهم وسخروا بهم. والسياسيُّون باتوا غرضًا لقصائد الهجاء. لا بدَّ لنا من الاستغناء عنِ الإسراف في اللَّهو والمجون اللَّذين رافقا أغلب الأحيان مهرجاناتٍ من هذا النَّوع، ولكنَّنا نحتاج حقًّا إلى مناسباتٍ نضحك فيها على أنفُسنا. فبدلًا من الاستئناس بالعوائد الاجتماعيَّة الشائعة في أيَّامنا، قد يحسن بنا أن نجد سُبُلًا إلى التهكُّم بها.

وليس خِيارُنا مقصورًا على الأعياد أو المهرجانات الثابتة، بل في وسعنا أن

* "الأبقار المقدَّسة" مصطلحٌ للدلالة على الأمور المقدَّسة التي لا نمسُّها ولا نتطرَّق إليها في أحاديثنا، سواءٌ أشخصيَّاتٍ كانت تلك الأمور أم أماكنَ أم أشياءَ ملموسة. ومعلومٌ أنَّ الأبقار تُعدُّ مقدَّسةً في بعض الديانات الشرقيَّة (الناشر).

نبتكر مناسباتنا الخاصَّةَ المُميَّزة. فإنَّ إحدى الجماعات أقامت سهرةً احتفاليَّة تكريمًا لرُعاتها. وقد صمَّمت كلُّ عائلة بطاقةً بَيتيَّةَ الصُّنع. وحضَّرت مجموعاتٌ شتَّى تمثيليَّاتٍ هزليَّة وألعابًا وقراءاتٍ ونُكاتٍ طريفة. وبصفتي واحدًا من أُولئك الرُّعاة، يَسَعُني القول إنَّها كانت سهرة خلاَّبة. فلماذا ننتظر حتَّى يغدو رعاتُنا على أُهبة الرحيل لكي نُقيمَ لهم حفلة تكريم؟ ولو أعربْنا عن تقديرنا لهم مرارًا وتكرارًا، لرُبَّما تشجَّعوا فعلًا على البقاء مدَّةً أطول!

وقد علمتُ أنَّ إحدى الكنائس تُقيم "مهرجان أنوار" بمناسبة عيد الميلاد، حيث يعزف المؤمنون ويُرنِّمون، ويؤدُّون عُروضًا مسرحيَّة، وفي المقام الأوَّل يُشركون أشخاصًا كثيرين. كما علمتُ أنَّ جماعةً أُخرى تجتمع فصليًّا كي تحتفل بأطعمة بُلدانٍ أُخرى. فمرَّةً يتناولون وجبةً سُوَيديَّة، وأُخرى وجبةً إيرلنديَّة، وأُخرى وجبةً يابانيَّة.

وحيث أقوم بالتعليم، نُقيم حَدَثًا سنويًّا ندعوه "سمفونيَّة الربيع". والخير الذي يعود به هذا الحدث على الروح الإنسانيَّة يستحيل حسبانُه. وهو الحَدَث السنويُّ الذي يحظى بأكبرِ قَدْرٍ من التوقُّع والترقُّب، وتتوافرُ فيه الموسيقى والأزياء والألوان، لتجعلَ منه استعراضًا فنيًّا مُصغَّرًا رائعًا، حُشِدت له خبراتٌ إنتاجيَّةٌ احترافيَّةٌ شتَّى تخلو من السَّطحيَّة الترميميَّة. وليس هذا الحدث رخيصًا؛ فهو يستهلك مقدارًا وافيًا من الوقت والجهد والمال. غير أنَّنا كلَّنا نحتاج إلى مهرجاناتِ فرحٍ من هذا النَّوع فيما نطلبُ معًا ملكوت الله.

إنَّ الاحتفال يمدُّنا بالقوَّة التي لا بدَّ منها للعَيْش في جميع الانضباطات الأُخرى. وحين نسعى بأمانةٍ في سائر الانضباطات، فهي تُنقذنا من تلك الأشياء التي طالما طبعت حياتنا بالبؤس على مدى السنين، الأمرُ الذي بدوره يبعث على احتفالٍ مُضاعَف. وهكذا تتشكَّل حلقةُ حياةٍ وقوَّةٍ يتعذَّر كسرُها.

خاتمة

ها قد وصلنا إلى نهاية هذه الدراسة، ولكن فقطْ إلى بداية رحلتنا. وقد رأينا كيف يُضاعِف **التأمُّل** حسَّنا الروحيَّ الذي بدَورِه يؤدِّي بنا إلى **الصلاة**. وسرعان ما نكتشف أنَّ الصلاة تشتمل على **الصَّوم** كواسطةٍ تُرافِقها. وإذ تُنوِّرنا هذه الانضباطات الثلاثة، يمكننا أن ننتقل على نحوٍ فعَّالٍ إلى **الدراسة** التي تزوِّدنا بالتمييز في ما يتعلَّق بأنفُسنا وبالعالَمِ الذي نعيش فيه.

ومن طريق **البساطة** نعيش مع الآخرين بصدقٍ واستقامة. ثُمَّ تُمكِّنُنا **العزلة** من أن نكون حاضرين فعلًا لأجل الناس حين نكون معهم. وبواسطة **الخضوع** نعيش مع الآخرين بغير استغلال، كما أنَّنا بواسطة **الخدمة** نكون بَرَكةً لهم.

أمَّا الاعتراف فيُحرِّرنا من ذواتنا، ويُطلِقنا إلى **العبادة**. وهذه تفتح الباب إلى الإرشاد. وإذا مُورِست جميعُ الانضباطات بحرِّيَّة، فإنَّها تأتي **بالاحتفال**.

إنَّ الانضباطاتِ المعهودةَ في الحياة الروحيَّة تَهدينا إلى جبال **الروح** الشاهقة. وها نحن الآن نقف عند خطوطٍ عاليةٍ جدًّا مُتَهيِّبين حيال القِمَم المَكسوَّة بالثلوج أمامنا. وسَنَخطو بثقةٍ متقدِّمين وراء **قائدنا** الذي راد السبيل قبلَنا وقهر القِمَّة العليا.

الملاحظات

الفصل الأوَّل

1. John Woolman, *The Journal of John Woolman* (Secaucus, NJ: Citadel Press, 1972), p. 118.
2. Thomas Merton, *Contemplative Prayer* (Garden City, NY: Doubleday, 1969), p. 37.
3. Heini Arnold, *Freedom from Sinful Thoughts: Christ Alone Breaks the Curse* (Rifton, NY: Plough Publishing House, 1973), p. 94.
4. Emmet Fox, *The Sermon on the Mount* (New York: Harper & Row, 1938), p. 88.
5. Arnold, p. 82.
6. Frank S. Mead, ed., *Encyclopedia of Religious Quotations* (London: Peter Davis, 1965), p. 400.

الفصل الثاني

1. Morton T. Kelsey, *The Other Side of Silence: A Guide to Christian Meditation* (New York: Paulist Press, 1976), p. 83.
2. Madame Guyon, *Experiencing the Depths of Jesus Christ* (Goleta, CA: Christian Books, 1975), p. 3.
3. Timothy Ware, ed., *The Art of Prayer: An Orthodox Anthology* (London: Faber & Faber, 1966), p. 110.
4. Jeremy Taylor, *The House of Understanding: Selections from the Writings of Jeremy Taylor,* ed. Margaret Gest (Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1954), p. 106.
5. Dietrich Bonhoeffer, *The Way to Freedom* (New York: Harper & Row, 1966), p. 57.
6. Guyon, p. 32.
7. Thomas à Kempis, *The Imitation of Christ* (Garden City, NY: Image Books, 1955), p. 85
8. Thomas Merton, *Contemplative Prayer* (Garden City, NY: Doubleday, 1969, p. 59.
9. Morton Kelsey in *The Other Side of Silence* makes an excellent analysis of Eastern and Christian meditation. See especially pp. 1, 57, 98, and 121.
10. Thomas Merton, *Spiritual Direction and Meditation* (Collegeville, MN: Liturgical Press, 1960), p. 68.
11. Merton, *Contemplative Prayer,* p. 39.
12. William Penn, *No Cross, No Crown,* ed. Ronald Selleck (Richmond, IN: Friends United Press, 1981), p. xii.
13. Merton, *Contemplative Prayer,* p. 29.
14. A.W. Tozer, *The Knowledge of the Holy* (New York: Harper & Brothers, 1961), p. 20.
15. Elizabeth O'Connor, *Search for Silence* (Waco, TX: Word Books, 1971), p. 95.
16. Merton, *Spiritual Direction and Meditation*, p. 98.
17. Ibid., p. 47.

18. Alexander Whyte, *Lord, Teach Us to Pray* (New York: Harper & Brothers n.d.), p. 249.
19. As quoted in Lynn J. Radcliffe, *Making Prayer Real* (New York: Abington-Cokesbury Press, 1952), p. 214.
20. St. Francis de Sales, *Introduction to the Devout Life*, trans. John K. Ryan (New York: Doubleday, 1955), p. 84.
21. Merton, *Contemplative Prayer*, p. 59.
22. Merton, *Spiritual Direction and Meditation*, p. 75.
23. Bonhoeffer, p. 59.
24. Whyte, pp. 249-50.
25. Ibid., p. 251.
26. Evelyn Underhill, *Practical Mysticism* (New York: Dutton, 1943), p. 90.
27. Merton, *Spiritual Direction and Meditation*, pp. 88-89.

الفصل الثالث

1. E.M. Bounds, *Power Through Prayer* (Chicago: Moody Press, n.d.), p. 23.
2. Ibid., p. 38.
3. Ibid., pp. 38, 77.
4. Ibid., pp. 41, 54.
5. Ibid., p. 13.
6. Thomas Merton, *Contemplative Prayer* (Garden City, NY: Doubleday, 1969), p. 11.
7. Søren Kierkegaard, *Christian Discourses,* trans. Walter Lowie (Oxford: Oxford University Press, 1940), p. 324.
8. Meister Eckhart, *Meister Eckhart*, trans. C. de B. Evans, Vol. 1 (London: John M. Watkins, 1956), p. 59.
9. As Quoted in Lynn J. Radcliffe, *Making Prayer Real* (New York: Abington-Cokesbury Press, 1952), p. 214.
10. Frank C. Laubach, *Prayer the Mightiest Force in the World* (New York: Fleming H. Revell, 1946), p. 31.
11. Frank C. Laubach, *Learning the Vocabulary of God* (Nashville: Upper Room, 1956), p. 33.
12. Bounds, p. 83.
13. Thomas R. Kelly, *A Testament of Devotion* (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 124.
14. Ibid., p. 35.
15. Bounds, p. 35.

الفصل الرابع

1. John Wesley, *The Journal of the Reverend John Wesley* (London: Epworth Press, 1938), p. 147.
2. David R. Smith, *Fasting: A Neglected Discipline* (Fort Washington, PA: Christian Literature Crusade, 1969), p. 6.
3. Arthur Wallis, *God's Chosen Fast* (Fort Washington, PA: Christian Literature Crusade,

1971), p. 25.
4. Dietrich Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship* (New York: Macmillan, 1959), p. 47.
5. E. M. Bounds, *Power Through Prayer* (Chicago: Moody Press, n.d.), p. 25.
6. John Wesley, *Sermons on Several Occasions* (London: Epworth Press, 1971), p. 301.
7. Smith, p. 39.
8. Thomas R. Kelly, *A Testament of Devotion* (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 35.
9. Wallis, p. 66.
10. Elizabeth O'Connor, *Search for Silence* (Waco, TX: Word Books, 1971), pp. 103, 104.
11. Wesley, *Sermons on Several Occasions*, p. 297.

الفصل الخامس

1. Martin Buber, *Tales of the Hasidim: Early Masters* (New York: Schocken Books, 1948), p. 111.
2. André Gide, *If It Dies*, trans. Dorothy Bussey (New York: Random House, 1935), p. 83.
3. Evelyn Underhill, *Practical Mysticism* (New York: World, Meridian Books, 1955), pp. 93-94.
4. Fyodor Dostoevski, *The Brothers Karamazov* (Chicago: Encyclopaedia Britannica, Great Books, 1952), p. 167.
5. Charles Noel Douglas, ed., *Forty Thousand Quotations* (Garden City, NY: Halcyon House, 1940), p. 1680.

الفصل السادس

1. Richard E. Byrd, *Alone* (New York: Putnam, 1938), p. 19.
2. Arthur G. Gish, *Beyond the Rat Race* (New Canaan. CT: Keats, 1973), p. 21.
3. Ibid., p. 20.
4. Søren Kierkegaard, *Christian Discourses*, trans. Walter Lowie (Oxford: Oxford University Press, 1940), p. 322.
5. Ibid., p. 27.
6. John Wesley, *The Journal of the Reverend John Wesley* (London: Epworth Press, 1938), Nov. 1767.
7. Ronald J. Sider, *Rich Christian in an Age of Hunger* (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1977), p. 18.
8. Kierkegaard, p. 344.
9. John Woolman, *The Journal of John Woolman* (Secaucus, NJ: Citadel Press 1972), pp. 144-145.
10. Ibid., p. 168.
11. George Fox, *Works*, Vol. 8 (Philadelphia, 1831), p. 126, Epistle 131.

الفصل السابع

1. Elizabeth O'Connor, *Search for Silence* (Waco, TX: Word Books, 1971), p. 132.
2. Dietrich Bonhoeffer, *Life Together* (New York: Harper & Row, 1952), pp. 77, 78.
3. Catherine de Haeck Doherty, *Poustinia: Christian Spirituality of the East for Western*

Man (Notre Dame, IN: Ave Maria Press, 1974), p. 23.
4. Thomas à Kempis, *The Imitation of Christ* (New York: Pyramid, 1967), p. 18.
5. John Woolman, *The Journal of John Woolman* (Secaucus, NJ: Citadel Press, 1972), p. 11.
6. Bonhoeffer, *Life Together*, p. 79.
7. Doherty, p. 212.
8. St. John of the Cross, *The Collected Works of St. John of the Cross*, trans. Kieran Kavanaugh and Otilio Rodriguez (Garden City, NY: Doubleday, 1964), p. 296.
9. Ibid., p. 363.
10. Ibid., p. 295.
11. Ibid., p. 364.
12. Ibid., p. 365.
13. Bonhoeffer, *Life Together*, p. 80.
14. Thomas Merton, *The Sign of Jonas* (New York: Harcourt, Brace, 1953), p. 261.
15. Doherty, p. 216.

الفصل الثامن

1. Thomas à Kempis, *The Imitation of Christ*, in an anthology entitled *The Consolation of Philosophy* (New York: Random House, 1943), p. 139.
2. *Hymns for Worship* (Nappanee, IN: Evangel Press, 1963), p. 248.
3. John Howard Yoder, *The Politics of Jesus* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1972), pp. 181-82. (I am indebted to Yoder for several of the ideas that follow.)
4. Ibid., p. 181.
5. Ibid., p. 186.
6. Kempis, p. 172.

الفصل التاسع

1. Thomas R. Kelly, *A Testament of Devotion* (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 124.
2. St. Francis of Assisi, *Selections from the Writings of St. Francis of Assisi* (Nashville: Upper Room Press, 1952), p. 25.
3. John Milton, *The Complete Works of John Milton* (New York: Crown, 1936), p. 614.
4. C. H. Dodd, quoted in William Barclay, *The Letters of John and Jude* (Philadelphia: Westminster Press, 1960), pp. 68, 69.
5. William Law, *A Serious Call to a Devout and Holy Life* (Nashville: Upper Room Press, 1952), p. 26.
6. Thomas à Kempis, *The Imitation of Christ*, in an anthology entitled *The Consolation of Philosophy* (New York: Random House, 1943), p. 211.
7. Brother Ugolino di Monte Santa Maria, *The Little Flowers of St. Francis* (Garden City, NY: Doubleday, 1958), pp. 58-60.
8. Dietrich Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship* (New York: Macmillan, 1963), p. 188.
9. Jeremy Taylor, *The Rule and Exercises of Holy Living in Fellowship of the Saints: An*

Anthology of Christian Devotional Literature (New York: Abingdon-Cokesbury Press, 1957), p. 353.

10. Dietrich Bonhoeffer, *Life Together* (New York: Harper & Row, 1952), p. 99.
11. François Fénelon, *Christian Perfection* (Minneapolis: Bethany Fellowship, 1975), p. 34.
12. Ibid., p. 36.
13. Bernard of Clairvaux, *St. Bernard on the Song of Songs* (London: Mowbray, 1952), p. 70.
14. Bonhoeffer, *Life Together*, p. 97.
15. Ibid., p. 98.

الفصل العاشر

1. Dietrich Bonhoeffer, *Life Together* (New York: Harper & Row, 1952), p. 112.
2. Ibid., p. 118.
3. Agnes Sanford, *The Healing Gifts of the Spirit* (New York: Holman, 1966), p. 110.
4. Bonhoeffer, *Life Together*, p. 116.
5. St. Alphonsus Liguori, "A Good Confession," in an anthology entitled *To Any Christian* (London: Burns & Oates, 1964), p. 192.
6. Douglas Steere, *On Beginning from Within* (New York: Harper & Brothers, 1943), p. 80.
7. Liguori, p. 193.
8. Geoffrey Chaucer, *The Canterbury Tales* (Baltimore: Penguin Books, 1959), p. 23.
9. E. M. Bounds, *Power Through Prayer* (Chicago: Moody Press, n.d.), p. 77.
10. Liguori, p. 195.
11. Bonhoeffer, *Life Together,* p. 118. (the phrase "living under the cross" is Bonhoeffer's.)
12. Sanford, p. 117.

الفصل الحادي عشر

1. A. W. Tozer, *The Knowledge of the Holy* (New York: Harper & Brothers, 1961), p. 11.
2. Ibid., p. 21.
3. Frank C. Laubach, *Learning the Vocabulary of God* (Nashville: Upper Room, 1956), pp. 22-23.
4. Brother Lawrence, *The Practice of the Presence of God* (Nashville: Upper Room, 1950), p. 32.
5. Douglas Steere, *Prayer and Worship* (New York: Edward W. Hazen Foundation, 1942), p. 36.
6. Thomas R. Kelly, *The Eternal Promise* (New York: Harper & Row, 1966), p. 72.
7. Ibid., p. 74.
8. George Fox, Epistle 288 (1672), quoted in *Quaker Religious Thought* 15 (Winter 1973-74): 23.
9. François Fénelon, *Christian Perfection* (Minneapolis: Bethany Fellowship, 1975), p. 4.
10. Thomas Merton, *Contemplative Prayer* (Garden City, NY: Doubleday, 1969,), p. 4.

11. As quoted in D. Elton Trueblood, *The People Called Quakers* (New York: Harper & Row, 1966), p. 91.
12. James Nayler, *A Collection of Syndry Books, Epistles, and Papers, Written by James Nayler,* etc. (London, 1716), p. 378.
13. Willard Sperry, "Reality in Worship," in *The Fellowship of Saints: An Anthology of Christian Devotional Literature,* ed. Thomas S. Kepler (New York: Abingdon- Cokesbury Press, 1963), p. 685.

الفصل الثاني عشر

1. Brother Ugolino di Monte Santa Maria, *The Little Flowers of St. Francis* (Garden City, NY: Doubleday, 1958), pp. 74-78.
2. Rufus M. Jones, *The Quakers in the American Colonies* (New York: Norton, 1921), p. 517.
3. John G. Whittier, ed., *The Journal of John Woolman* (London: Headley Brothers, 1900), p. 13.
4. Thomas Merton, *Spiritual Direction and Meditation* (Collegeville, MN: Liturgical Press, 1960), p. 12.
5. Ibid., p. 8.
6. Jean-Pierre de Caussade, *The Sacrament of the Present Moment*, trans. Kitty Muggeridge (San Francisco: Harper & Row, 1982).
7. Dave and Neta Jackson, *Living Together in a World Falling Apart* (Carol Stream, IL: Creation House, 1974), p. 101.
8. Merton, *Spiritual Direction and Meditation,* p. 9.
9. George Fox, *The Journal of George Fox* (London: Headley Brothers, 1975), p. 184.
10. Dallas Willard, "Studies in the Book of Apostolic Acts: Journey into the Spiritual Unknown" (unpublished study guide available only from the author).

الفصل الثالث عشر

1. Harvey Cox, *The Feast of Fools* (Cambridge: Harvard University Press, 1969), p. 12.
2. François Fénelon, *Christian Perfection* (Minneapolis: Bethany Fellowship, 1975), p. 102.
3. D. Elton Trueblood, *The Humor of Christ* (New York: Harper & Row, 1964), p. 33.
4. Cox, p. 11.
5. Ibid., p. 10.
6. Ibid., p. 3.